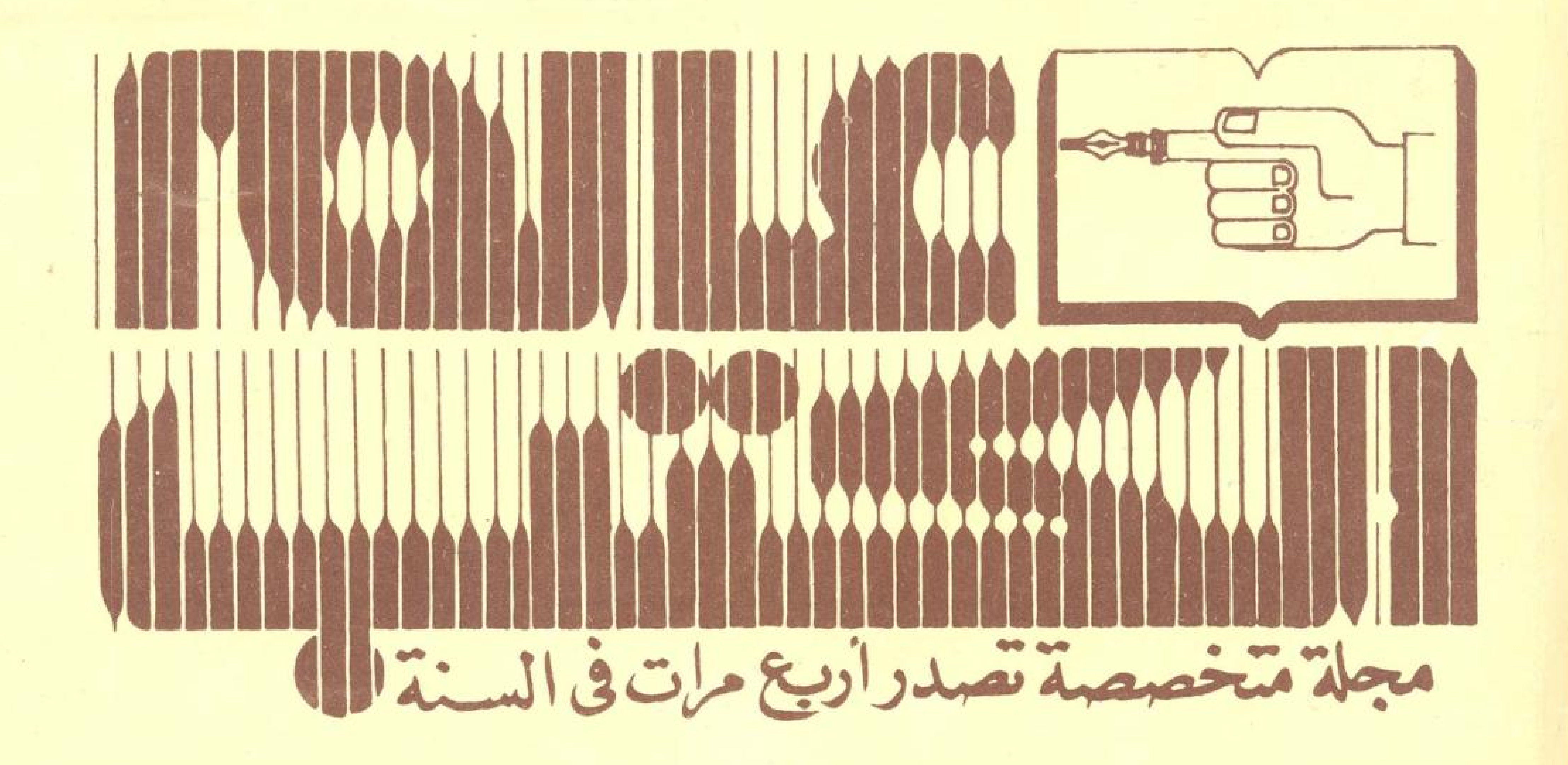


المجلد السابع | العدد الرابع | ربيع الآخر ١٤٠٧هـ ـ ديسمبر ١٩٨٦م

□ من موضوعات هذا العدد □

بسم الله الرحمن الرحيم



مجلة متخصصة تصدر اربع مرات في السنة

تهتم بالكتاب وقضاياه

الناشر: دار ثقيف للنشر والتأليف

الرياض: المملكة العربية السعودية



المؤسسان

عبد العزيز الرفاعي

عبد الرحمن المعمر

رئيس التحرير

يحيى محمود ساعاتي

المجلد السابع — العدد الرابع — ربيع الآخر ١٤٠٧هـ — ديسمبر ١٩٨٦م

منهاج النشر

— يشترط في المواد المراد نشرها :

١- أن تكون في إطار تخصص المجلة .

٢- مكتوبة بالآلة الكاتبة أو بخط واضح .

٣- لم تنشر من قبل .

٤- معتمدة على المنهجية والموضوعية في المعالجة .

— تخضع الدراسات والبحوث للتحكيم قبل نشرها .

— ترتب المواد وفقاً لأمور فنية بحتة .

— لايجوز إعادة نشر أية مادة من مواد المجلة كاملة إلا بإذن مسبق . وفي حالة الاقتباس يرجى الاشارة إلى المصدر .

— ما ينشر يعبر عن رأي كاتبه فقط ولايمثل رأي المجلة بالضرورة .

بيانات إدارية

— المراسلات الخاصة بالتحرير توجه باسم رئيس التحرير (٤٧٧٧٢٦٩) .

— المراسلات الخاصة بالاشتراكات والإعلانات توجه باسم مدير الإدارة (٤٧٦٥٤٢٢) .

— عنوان المجلة :

عالم الكتب

ص . ب : (١٥٩٠) الرياض : (١١٤٤١)

المملكة العربية السعودية

هاتف : ٤٧٦٥٤٢٢

— الاشتراك السنوي في الداخل والخارج ١٠٠ ريال سعودي أو ما يقابلها بالدولار الأمريكي.

— الإعلانات يتفق بشأنها مع الإدارة .

المحتويات

عجز المناهج الدراسية عن إشباع حاجات الطفل القرائية

هاشم عبده هاشم
أستاذ مساعد في قسم المكتبات والمعلومات
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك عبد العزيز
رئيس تحرير جريدة عكاظ

مقدمـــة :

تشكل الطفولة « هاجساً » دولياً مشتركاً .. باعتبارها اللبنة الأولى في تكوين المجتمعات وتأسيس مقدرتها على النماء والازدهار والمشاركة الإنسانية بفعالية أكبر .. في تنمية وتطوير المجتمع البشري . ويرجع الاهتمام الدولي بهذا العنصر إلى عام ١٩٢٤م ، عندما صدر إعلان جنيف لحقوق الطفل وتم الاعتراف بهذه الحقوق في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والهيئات والمنظمات الدولية المعنية بشئون الطفل ، وينص المبدأ « ٧ » من مبادىء هذا الإعلان العشرة على أن « للطفل الحق في الحصول على وسائل التعليم الإجباري المجاني على الأقل في المرحلة الابتدائية ، كما يجب أن تتيح له هذه الوسائل ما يرفع مستوى ثقافته العامة ويمكنه من أن ينمي قدراته وحسن تقديره للأمور وشعوره بالمسئولية الدينية والاجتماعية لكي يصبح عضواً مفيداً في المجتمع ... »(١) .

وهذا يعني أن التعليم حق مكتسب ، وأن على الدول والهيئات والمؤسسات المسئولة عنه أن تحقق هدفاً رئيسياً للتعليم هو : تهيئة الطفل لكي يكون عضواً مشاركاً بفعالية في مجتمع الغد وهو هدف تفاوتت الدول في تحقيقه تبعاً لتفاوت مناهج وأساليب التربية والتعليم فيها ..

ويرجع هذا التفاوت إلى حجم التجربة الحضارية ومعدلات التنمية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية فيها ، وهو ما يعبر عنه بكفاءة نظام التعليم ونضج خطط التنمية وجدية الأهداف المرسومة لبناء المجتمعات ، ومدى تركيزها على الطفل كلبنة أساسية في البناء الاجتماعي منذ ولادته وترعرعه في إطار الأسرة ، وليبدأ أولى خطواته في المدرسة ويتدرج في مراحل التعليم المختلفة ..

وقد حرص الباحث على تتبع الأهداف والسياسات التي وضعتها الدولة في المملكة العربية لسعودية لرعاية الطفل وتوفير أبرز مقوم إنساني له ، عبر قناة التربية والتعليم بوسائله وأساليبه المتعددة ، كما حرص على مقارنة الواقع المعاش من خلال مناهج المرحلة الابتدائية بما هو مرسوم ومخطط له .

وركز الباحث بصورة خاصة على القراءة كأبرز مقومات النمو .. باعتبارها إحدى الحاجات الأساسية التي يعتمد عليها نمو الطفل الذهني والمعرفي .. وقدرته المبكرة على استيعاب التجارب الإنسانية المحيطة به بوعي وإدراك كاملين ، ومدى استيعاب منهج المرحلة الابتدائية لهذا الهدف البارز .

القسم الأول

الهدف من التعليم

يتفق خبراء التربية والتعليم على « أن الهدف الأول من التعليم — أينما وجد — هو إعداد الصغار إعداداً كافياً ليأخذوا مكانتهم في الجماعة ويتحملوا مسئولياتهم في الخدمة العامة عن طريق إمداد كل طفل بقدر وافر من المعرفة ينمي اهتماماته وقدراته العقلية»(٢) .

ويعتبر التعليم في جميع مراحله ومستوياته ومآربه وألوانه ، بمثابة احتياج ملح لا يمكن أن تستغني عنه المجتمعات لتنمية الموارد البشرية وتطوير مقدرتها على العطاء واستثمارها في برامج التنمية الشاملة ..

ولذلك فإن الهدف الأول للتعليم هو استغلال الطاقات البشرية المتاحة للمجتمع وتحسين مستوى أدائها ورفع معدلات إنتاجها .. وهو بهذا المفهوم استثمار مضمون لرأس المال الثابت في المجتمع .

ذلك أن الإنسان يعتبر أغلى استثمار في الدنيا ، وأن النجاح في هذا

الاستثمار من خلال برامج التربية والتعليم المتقنة من شأنه أن يضاعف المردود الاقتصادي لهذا المجتمع ويعزز قدرته على الاستمرار والنماء والتفوق .

المناهج لماذا ؟

وتمثل المناهج من وجهة نظر التربية الحديثة مجموعة الخبرات وأوجه النشاط التي توفرها المدرسة لتلاميذها داخل المدرسة وخارجها ، سواء أكان هذا النشاط رياضياً أو علمياً أو تفسياً ، لكي يتحقق لهؤلاء التلاميذ أقصى نمو لهم ويتحقق للمجتمع أقصى فائدة ممكنة .(٣)

وهو مفهوم يختلف تماماً مع النظرة التقليدية القديمة إلى المناهج التي تنظر إلى التعليم على أنه مجموعة من المقررات الدراسية المصممة كوحدات مستقلة يقوم المدرسون بتلقينها للتلاميذ ، ويتولى التلاميذ حفظها واختزان ما هو موجود فيها من معلومات دون إعطاء الحرية للعقل بممارسة حقه في الاختيار .

والفارق بين نمطي التربية الحديث والقديم هو أن التربية الحديثة تكرس مبدأ اعتماد التلاميذ ـــ منذ الطفولة ـــ على أنفسهم ، وتسعى إلى تطوير مقدرتهم الفعلية واستغلال طاقاتهم الذهنية وتشجيعهم على الابتكار والإبداع ، وتحاول أن تكتشف ميولهم ورغباتهم ، لتوجهها وجهة إيجابية تتفق مع توجهات المجتمع وأهدافه المستقبلية في أوسع عملية استثمار ومواءمة بين القدرة الفردية الذاتية المتاحة للتلاميذ وبين توجهات المجتمع وأهدافه وخططه المستقبلية .

ومن الواضح أن المجتمعات التي تعتمد نمط التربية والتعليم التقليدي تواجه مشكلة حادة ، تتمثل في تعطيل الثروة البشرية عن التفكير المستقل ، وتقلص درجة مشاركة الفرد في تحمل تبعات البناء والتنمية ، وتحد من مساهمته في التحولات الإيجابية للمجتمع في الوقت الذي يتميز فيه الفرد الذي يعتمد نمط التربية والتعلم الذاتي بفعالية أكبر وقدرة على الخلق والابتكار والمشاركة الإيجابية على كل المستويات .

وتهدف التربية الحديثة إلى « تكوين الإنسان المتوازن ، المتكامل الشخصية ، وليس ذلك الإنسان الممزق الضائع ، وهذا يتم نتيجة تكوين لا تجعل يد الإنسان عدوة لفكره عبر التواصل المثمر بين المدرسة والحياة ..»(٤) . إذ إن علينا أن نحرر الطفل من الشعور بأن ما يتعلمه لا صلة له بالواقع ، وهذا الشعور ناتج من التضارب بين الثقافة الداخلية المستمدة من الكتب وبين متطلبات الحياة اليومية التي تسيطر عليها نشاطات الإنتاج .(٥)

أو كما يقول « ايدجارفور » وزير التربية الفرنسي السابق ورئيس اللجنة الدولية للنهوض بالتربية :

« إن من بين نقائض نظام التعليم ، وخاصة التعليم القائم على التلقين لا على التنشيط ، أنه لا يوجد في تلك المؤسسات التربوية أي معلم مكلف يخلق الدافع عند التلميذ .. لأنه عندما يكون لدى الإنسان دافع فإن كل شيء يتغير » .(٦) .

ومن كل هذا نستنتج :

أولاً : أنه لا يمكن فصل التربية عن التعليم .

ثانياً : أن برنامج التعليم المثمر هو الذي يبني في الإنسان منذ طفولته شخصيته ، ويمكنه من الاعتماد على نفسه ، ويتيح له فرص الخلق والابتكار .. ولا يخضعه للتلقين بحيث تلغي القدرة لديه على التفكير والتحليل .

ثالثاً : أن ربط التعليم بالحياة وبالعمل يتطلب توفير أدوات كثيرة ، وفي مقدمتها المعرفة والخبرة ، وأن كلاً من المعرفة أو الخبرة لا يمكن توفيره للإنسان ما لم يسعَ المنهج التعليمي إلى تنمية الميول القرائية لديه واستيعاب كل ما حوله من خبرات وتجارب وآراء وأفكار ..

وقد لاحظ الباحث خلال دراسته هذه أن هناك علاقة طردية بين القدرة التعليمية على تنمية الميول القرائية لدى الأطفال ، وبين تحصيلهم العلمي المتفوق في مختلف مراحل حياتهم ، وأنه كلما نميت هذه الميول ووجهت وجهة مثمرة كان الفرد أكثر إيجابية في حياته وتجانساً مع أفراد مجتمعه وتحملا لمسئولياته ، واقتدارا على الإسهام بدور فعال في عملية التنمية .

فمامدى إسهام المناهج الدراسية في المملكة في إشباع حاجات الأطفال القرائية ؟

الأطفال في المملكة

ليست هناك إحصائية دقيقة وشاملة وحديثة توضح لنا نسبة الأطفال بالمملكة(٧) ولكننا نستطيع أن نستشف ذلك من خلال إعداد طلبة وطالبات المرحلة الابتدائية وفقا لما ورد في خطة التنمية الرابعة ، على الرغم من « أن هناك تبايناً-في مدى أعمار الأطفال السعوديين المستجدين . ففي عام ١٤٠٤/١٤٠٥هـ ، كان المتوسط العمري للطلاب المستجدين في الصف الأول الابتدائي (٦ر٩) سنوات ، والطالبات السعوديات (٦ر٧) سنوات .

« وخلال الفترة الممتدة من ١٣٩٤/١٣٩٥هـ إلى ١٤٠٢/١٤٠٣هـ ، ارتفع عدد المستجدين الذكور الملتحقين في الصف الأول الابتدائي بمعدل سنوي حوالي (٨٪) من إجمالي عدد السكان الذكور في سن المتوسط العمري لدخول الصف الأول الابتدائي أو أسرع بحوالي (٢٠٪) من النمو المتوقع في عدد السكان الذكور في السنة .

وخلال الفترة نفسها ارتفعت نسبة الطالبات السعوديات المستجدات في الصف الأول الابتدائي حوالي (١ر٥٪) سنويا من إجمالي عدد السكان الإناث في سن المتوسط العمري لدخول الصف الأول الابتدائي .. وتوحي هذه التقديرات أن حوالي (٧٠٪) من الذكور وحوالي (٦٥٪) من الإناث من إجمالي السكان السعوديين في سن المتوسط العمري لدخول المدارس قد التحقوا بالصف الأول الابتدائي عام ١٤٠٤/١٤٠٥هـ .[٨] .

وهذا يعني أن (٣٠٪) من الأطفال و (٣٥٪) من الإناث في مرحلة الطفولة المبكرة حتى سن الخامسة ما زالوا موجودين في منازلهم .. وأن هذه النسبة العالية تشكل حوالي (٥ر١) مليون طفل وطفلة ، فإذا أضيف إليهم أعداد الأطفال من الذكور والإناث المنخرطين في مراحل الدراسة الأخرى وحتى سن الطفولة المتأخرة (٩ — ١٢) .. فإننا سنكتشف أن عدد الأطفال في المملكة العربية السعودية يكاد يصل إلى (٥ر٢) مليون بين ذكر وأنثى ..وهو عدد يحتاج إلى تفكير طويل الأمد وتخطيط بعيد المدى يعرف كيف يدخر هذه الثروة الوطنية وكيف يوظفها التوظيف المستقبلي الصحيح .. لا سيما وأن أعداد طلاب المدارس الابتدائية سيصل في عام ١٤٠٩/١٤١٠ إلى (٠٠٠ر٨٤١) طفل وأن أعداد الطالبات لنفس الفترة سيبلغ (٠٠٠ر١٣٩) طفلة ، أي أن عدد المنتظمين (فقط) بالمرحلة الابتدائية هو (٠٠٠ر٩٨٠) طفل وطفلة [٩] .

فماذا فعلت الأجهزة المسئولة عن التعليم لهذا الطفل ؟

باستقراء السياسة التعليمية للمملكة ، نلاحظ أن المادة « ٣٤ » من الباب الثاني وهي تتحدث عن : غاية التعليم وأهدافه .. تركز على « تزويد الطالب بالقدر المناسب من المعلومات الثقافية والخبرات المختلفة التي تجعل منه عضواً عاملاً في المجتمع »[١٠] .

فيما تنص المادة «٦٧» على « تزويده بثروة من التعابير الصحيحة والأساسيات الميسرة»[١١] وكذلك « تشجيع نشاطه الابتكاري وتعهد ذوقه الجمالي وإتاحة الفرصة أمام حيويته للانطلاق الموجه »[١٢] كما تسعى إلى «الاهتمام باكتشاف الموهوبين ورعايتهم وإتاحة الإمكانيات والفرص المختلفة لنمو مواهبهم في إطار البرامج العامة وبوضع برامج خاصة»[١٣] .

والهدف من كل هذا هو « ربط التربية والتعليم — في جميع المراحل — بخطة التنمية العامة للدولة»[١٤] ، وهو عين الهدف الذي ذهبت إليه خطط التنمية نفسها ، وركزت عليه الخطة الرابعة حين أشارت في الفقرة (٣) من الأساس الاستراتيجي السادس إلى ضرورة « العناية بالطفل في كافة المجالات وعلى جميع المستويات[١٥] .

ومن الواضح أن المخططين للعملية التعليمية كانوا يدركون منذ البداية أبعاد المسئولية ، وطبيعة الوظائف التي تؤديها التربية والتعليم ... لكن هذا الوضوح لم يترجم — من الناحية التطبيقية — إلى فعل ، وأن مناهج المرحلة الابتدائية لم تستطع أن تترجم هذه المعاني إلى عملية تعليمية مطورة توفق بين الأهداف والحاجات وتستثمر الطاقات الفعلية استثماراً إيجابياً وتخرج بالعملية التعليمية من التلقين إلى الاستيعاب الواعي لتوفر للتلاميذ في سنواتهم الأولى فرصة التفكير المستقل ، وتربي فيهم فضيلة الاعتماد على النفس وتطور مقدراتهم ومواهبهم وملكاتهم الخاصة .

وسوف يتضح هذا من الاستعراض التالي لبعض مواد المرحلة الابتدائية (بنين — وبنات) ومقارنة هذه المواد بقدرة الطفل العمرية ، ونموه الذهني ودرجة ومستوى ذكائه ، وطاقته الاستيعابية لنرى كيف أن مناهج هذه المرحلة قد جانبها الكثير من الصواب وأصبح من المحتم علينا أن نتدارك هذا الخلل وأن نعيد النظر في هذه المناهج باعتبار أن المرحلة الابتدائية هي القاعدة التي يرتكز عليها بقية المراحل الأخرى ، وتؤثر بصورة كبيرة في تكوين عقلية الإنسان وشخصيته وتبلور طاقاته وتبرز مواهبه أو تقتلها

أولاً : مناهج الابتدائية « بنين»

المواد		السنوات الدراسية					
		أولى	ثانية	ثالثة	رابعة	خامسة	سادسة
العلوم الدينية	القرآن الكريم	٨	٨	٨	٧	٣	٤ +
	التجويد	—	—	—	١	١	—
	التوحيد	٢	٢ ×	٢ ×	٢ ×	٢	٢
	الفقه	٢	٢	٢	٢	٢	٢
	الحديث	—	—	—	—	١	١
	المجموع	١٢	١٢	١٢	١٢	٩	٩
علوم اللغة العربية	الهجاء والكتابة	٧	٧	—	—	—	—
	القراءة والمطالعة	—	—	٢	٢	٢	٢
	أناشيد ومحفوظات	٢	٢	٢	٢	٠	١
	الإملاء	—	—	٢	٢	٢	٢
	الخط	—	—	١	١	١	١
	التعبير والإنشاء	—	—	٢	٢	١	١
	النحو	—	—	—	١	٢	٢
	المجموع	٩	٩	١١	١٠	٩	٩
الاجتماعيات	الجغرافيا	—	—	—	١	٥ر١	٥ر١
	التاريخ	—	—	—	١	٥ر١	٥ر١
	المجموع	—	—	—	٢	٣	٣

المادة	الفرع	أولى	ثانية	ثالثة	رابعة	خامسة	سادسة
الرياضيات	الحساب	٤	٤	٦	٥	٦	٥
	الهندسة	—	—	—	—	١	١
	المجموع	**٤**	**٤**	**٦**	**٥**	**٧**	**٦**
العلوم والتربية الصحية		٢	٢	٢	٢	٣	٤
الرسم والأشغال		٢	٢	٢	٢	٢	٢
التربية الرياضية		٢	٢	٢	٢	٢	٢
المجموع الكلي		**٣٢**	**٣٢**	**٣٥**	**٣٥**	**٣٥**	**٣٥**

ملحوظة (+) حصة للحفظ

(×) يستغل فائض هذه الحصص في القرآن الكريم حفظا وتلاوة.

وتتبادر إلى الذهن فور قراءة الجدول السابق مجموعة من الملاحظات الهامة التالية :

أولاً : « إن المنهج يهتم بكمية المعلومات أكثر من نوعها ، والمواد الجامدة أكثر من العمل ، والاستظهار أكثر من التفكير ، وهو يقدم لجميع التلاميذ مادة دراسية موحدة بصرف النظر عن اختلاف البيئات من مدرسة إلى أخرى »[١٧]

ثانياً : إن الوحدة الموضوعية بين المواد لا تكاد تتوفر بالقدر الذي يعكس نظرة المنهج الشمولية إلى التلميذ ككل .. ويسمح باستغلال طاقاته وملكاته وقدراته المختلفة .

ثالثاً : إن التوازن مفقود في التغطية للمواد .. وهذا يعني تجاهل حاجات الطفل إلى المعرفة المتنوعة ، فضلاً عن تمكينه من تدريب قدراته الذكائية والفكرية على التفاعل .

رابعاً : إن كمية المعلومات التي تشتمل عليها وحدات المنهج لجميع السنوات لا تنظر إلى عامل « العمر » بموضوعية قدر تركيزها على إعطاء أكبر قدر من المعلومات في أقصر وقت ممكن يتيحه الفصل الدراسي .. وتسمح به قدرة التلميذ على الحفظ والاستظهار بصرف النظر عن درجة الاستيعاب لديه ، ولذلك فإنه لا يلبث أن ينسى هذا الكم الهائل من المعلوات بعد وقت قصير من تركه المرحلة الدراسية السابقة .

خامساً : إن التكليفات الكثيرة التي تعقب هذا الكم من المعلومات لا تسمح للطفل بهضم المقررات الدراسية فضلاً عن التفكير خارجها .. والتأمل في الحياة واكتساب الخبرات العملية من خلال المواقف العديدة التي يمكن أن يتعرض لها .

فإذا أضيف إلى كل هذا المشكلات التالية :

١ — إن المدرسين لا يجدون الوقت الكافي لتنويع المواقف وإضفاء المزيد من المعلومات الخارجية نظراً لارتفاع نصاب كل مدرس وتزايد تكليفاته وتضخم المنهج .. ومطالبته بإنجازه في الوقت المحدد .. بحيث يقتصر دوره على مجرد الترديد والإعادة لما هو موجود في الكتاب ..

٢ — إن ارتفاع عدد الطلاب في الفصل الدراسي إلى معدل (٣٥ — ٤٥) طالباً .. يقلل من إمكانية الفائدة المتحققة داخل الفصل .

٣ — إن المنهج الدراسي المتضخم لايعير أي اهتمام للنشاطات اللاصفية ، كالمكتبة المدرسية ، والرحلات ، والانخراط في الجمعيات والنشاطات المختلفة ، وبذلك فإن الطالب يظل محصوراً في دائرة الكتاب المقرر طوال سنواته الدراسية الست ..

إذا أضيف هذا إلى المشكلة ، فإننا سندرك « أن المنهج يعني بالوقوف على الحقائق والمعلوات أكثر من تدريب التلميذ على مواجهة مواقف الحياة وتكوين شخصية متكاملة توفر مواطنا صالحاً .. باعتبار أن المنهج السليم يزود — في الأصل — التلاميذ بطرائق تفكير سليمة ومهارات واتجاهات وميول مفيدة ، مثل القعود على تحمل المسئولية ونمو روح التعاون والتفكير على أسس صحيحة .. والتزود بمهارات تعينهم على حسن استخدام أوقات فراغهم »[١٨] .

ويمكن للجدول التالي أن يجسد هذه الحقيقة بصورة تسمح

اسم المادة	عدد الساعات التي يدرسها التلميذ كل أسبوع						
	أولى	ثانية	ثالثة	رابعة	خامسة	سادسة	
العلوم الدينية	١٢	١٢	١٢	١٢	٩	٩	القرآن ، التجويد ، التوحيد ، الحديث ، الفقة
اللغة العربية	٩	٩	١١	١٠	٩	٩	
الاجتماعيات	—	—	—	٢	٣	٣	
الرياضيات	٤	٤	٦	٥	٧	٦	
العلوم والتربية الصحية	٢	٢	٢	٢	٣	٤	
الرسم والأشغال	٣	٣	٢	٢	٢	٢	
التربية الرياضية	٢	٢	٢	٢	٢	٢	
المجموع	**٣٢**	**٣٢**	**٣٥**	**٣٥**	**٣٥**	**٣٥**	

(١٩)

بإدراك الخلل الناشىء عن استغراق وقت الطفل في استظهار المعلومات .. وحرمانه من التفكير الصحيح بعيداً عن الكتاب المقرر .. أو حتى توفير الوقت الكافي للعب كوسيلة ترويحية مفيدة .

ويعكس عدد الساعات المخصص لكل مادة من المواد .. درجة التكدس في المناهج ، كما يعكس مدى الجهد المبذول من قبل المدرس والطفل في حشو عقله بالمعلومات واستظهارها .. ومن ثم استحالة استيعابها أو إدراك مضامينها .. لا سيما وأن كثيراً منها لم يبن على أسس علمية ولم يقدم للتلاميذ على نحو مقبول يمكن فهمه والانشغال به والتفاعل معه .

ذلك أن المشكلة التي يخلفها التكدس لا تتمثل (فقط) في كم المعلومات المعطى للأطفال في سنوات حياتهم الأولى هذه ، وإنما تكمن أيضاً في طريقة عرض هذه المعلوات ومعالجتها .. وجمودها وعدم ارتباطها بحياة الإنسان ومدركاته وغياب عنصري التبسيط والتشويق فيها .. فضلاً عن أنها لا تدعم بوسائل إيضاحية كافية يمكن أن ترسخ مضامينها أو تكسبها شيئاً من الحيوية والتأثير .

وما سبق إبرازه بالنسبة لمناهج المرحلة الابتدائية للبنين لا يختلف كثيراً عما يمكن أن يلمسه أي باحث وهو يستعرض المواد المقررة على طالبات المرحلة نفسها .. وإن اختلفت في تفاصيلها بحكم اختلاف الجنس ..

ويمكن ملاحظة ذلك مما يأتي :

عدد الحصص الأسبوعية في المرحلة الابتدائية للبنات

المواد الدراسية	الأولى	الثانية	الثالثة	الرابعة	الخامسة	السادسة
القرآن الكريم	٧	٧	٧	٦	٥	٣
الحديث	—	—	—	—	١	١
التفسير	—	—	—	—	—	١
التجويد	—	—	—	١	١	—
التوحيد	١	١	١	١	١	٢
الفقة	١	١	١	١	١	٢
القراءة والمطالعة	٨	٨	٤	٣	٢	٢
الإمـــلاء	—	—	٢	٢	١	١
الخط	—	—	—	١	١	١
المحفوظات	١	١	١	١	١	١
التعبير	—	—	١	١	١	١
القواعد	—	—	—	١	٢	٢
المواد الاجتماعية	—	—	—	٢	٢	٢
العلوم	٢	٢	٢	٢	٣	٣
الرياضيات	٤	٤	٤	٥	٥	٩
التربية الفنية	٢	٢	٢	١	١	١
التربية النسوية	—	—	—	٢	٢	٢
* المجموع	٢٦	٢٦	٢٦	٣٠	٣٠	٣٠

(٢٠)

ملحوظة : حلت التربية النسوية محل التربية الرياضية في السنوات الرابعة والسادسة فقط ، وبناء على ذلك فقد نقصت الخطة حصتين في كل من الصف الأول والثاني والثالث .

ومن خلال هذا الجدول وسابقه يتبين الآتي :

أولاً : إن عدد الحصص الأسبوعية المخصص للقراءة والمطالعة يتناقص بمدارس البنات تبعاً لتقدم السنة الدراسية، فبينما هي (٨) حص في السنتين الأولى والثانية ، فإننا نلاحظ أنها تصبح (٤) حصص في السنة الثالثة و (٣) حصص في السنة الرابعة ، وحصتين في كل من السنتين الخامسة والسادسة ، في الوقت الذي تزيد فيه إمكانية الاستيعاب والفهم والقدرة على القراءة الجيدة في السنوات الأخيرة من المرحلة الابتدائية بدرجة تستوجب زيادة جرعة المطالعة وليس إنقاصها .

ثانياً : تضاؤل الاهتمام بملكة تدريب الذاكرة سواء من خلال مادة المحفوظات أو تحسين القدرة اللغوية على التعبير الصحيح . وقد يبدو أن في هذا تناقضاً مع القول بأن على المناهج أن تبتعد عن مبدأ التلقين ، وتسخير الطالب و الطالبة للحفظ ، إلا أن ما يقصده الباحث هو أن تدريب الذاكرة عن طريق اقتران عاملي الحفظ مع الاستماع والمشاهدة عبر الوسائل المعينة والمواد السمعية البصرية مع إتقان الاختيار للنصوص والموضوعات ، من شأنه أن يسهم في تمرين الذاكرة وإنضاجها نتيجة استخدام كافة الحواس .. وليس الاعتماد على حاسة البصر فقط .

ثالثاً : إن مطالعة المقررات كمفردات، ومراجعة المنهج كتكليفات سنوية تؤكد بأن الخلل موجود بدرجة تقل نسبياً في مدارس البنات عمّا هو موجود بالنسبة للطلبة في هذه المرحلة ، لأن كم المعلومات المطلوب استيعابه من قبل الطلبة أكبر مما هو مطلوب من الطالبات ، ويكفي أن نلاحظ عدد الساعات لكل سنة دراسية بكل مرحلة على

المستويين وفقا للجدول التالي :

الأولى		الثانية		الثالثة		الرابعة		الخامسة		السادسة	
بنين	بنات	بنين	بنات	بنين	بنات	بنين	بنات	بنين	بنات	بنين	بنات
٣٢	٢٦	٣٢	٢٦	٣٥	٢٦	٣٥	٣٠	٣٥	٣٠	٣٥	٣٠

ولا شك أن الباحث المدقق سيتساءل عن فلسفة هذا التفاوت على الرغم من أن الطالبات يتلقين مواد أخرى تفرضها طبيعة تكوينهن وحاجاتهن مثل التربية النسوية ، وإن كان المقابل لها هو التربية البدنية عند الطلاب .

رابعاً : إن جرعة علوم اللغة العربية بالنسبة للطلاب تفوق ما يعطى للطالبات في نفس المرحلة ، حيث يتلقى طلاب السنوات الأولى والثانية والخامسة والسادسة (٩) ساعات في الأسبوع ، بينما يتلقى طلاب السنة الثالثة (١١) ساعة وطلاب السنة الرابعة (١٠) ساعات في الوقت الذي تتلقى فيه طالبات الأولى والثانية والثالثة والرابعة (٩) ساعات فقط .. وهذا يعني أن التركيز على علوم العربية ضعيف ، ومتفاوت في المرحلة الواحدة، وهو الوضع الذي يبرر تواضع حصيلة طلابنا وطالباتنا اللغوية ليس في المرحلة الابتدائية فحسب ، وإنما في جميع مراحل التعليم ، وحتى بعد تخرجهم من الجامعات أيضاً ، كما يعكس ــ من جانب آخر ــ عدم توفر عنصر التنسيق بين مناهج البنين والبنات ، ويسجل غياب الرؤية الواحدة إلى الفئتين .

ولا شك أن لهذا تبعاته السلبية داخل المنزل الواحد الذي يخرج منه طالب وطالبة ليعودا إلى المنزل بأفهام وقناعات وآراء قد لا تكون متجانسة ، فضلاً عن أنها غير متوازنة وغير كافية لتأهيلهما للمستقبل .

خامساً : إن التعليم الابتدائي في مدارس البنات يعاني من نفس الفجوة التي يعاني منها تعليم البنين بين السياسات والأهداف المكتوبة وبين ما هو مأخوذ به عملياً .. في الوقت الذي ترى فيه الرئاسة العامة للبنات « أن اللغة العربية ينبغي أن تحظى في المرحلة الابتدائية بقدر كبير من العناية والاهتمام بحيث تمتاز معه عن بقية المواد الدراسية الأخرى ، باعتبار أن اللغة هي الوسيلة التي تعتمد عليها تربية الطفلة من جميع النواحي ، لتكون متصلة ببيئتها غير بعيدة عن الحياة التي تحيط بها وتكون على صلة بما وصل إليه بنو الإنسان من العلوم والإدارة والفنون »[٢١] . فإننا لا نكاد نجد العدد الكافي من الساعات المتاحة لهذه المواد في المنهج .. ناهيك عن المحتوى الذي تشتمل عليه المقررات الدراسية التي تحتاج ــ بكل تأكيد ــ لمعالجة جديدة تعتمد على مفاهيم تربوية حديثة من شأنها أن تستغل الطاقة الذهنية المتاحة للطالبات استغلالاً إيجابياً مختلفاً ، باعتبار أن العنصر النسائي يمثل الأساس الأول في عملية التربية والتنشئة للأجيال ، ومن ثم يتحمل مسئولية كبيرة في عملية التنمية الشاملة والطموحة وفقاً للنظرة الموضوعية إلى الفتاة كعنصر حيوي هام في إحداث التغيير الاجتماعي الملائم .

وبشكل عام فإنه يمكن استخلاص مجموعة من السلبيات التي أفرزها تضخم المناهج الدراسية في المرحلة الابتدائية ، وتصميمها على نحو يبتعد عن المنهجية ، ويؤدي إلى تعويق القدرة الذهنية المستقلة والحيلولة دون عطائها الإيجابي الكامل .

أولاً : تفاقم ظاهرة التسرب في المدارس الابتدائية ولا سيما بالنسبة للطلاب .. ذلك أن « المرحلة الابتدائية كثيراً ما تكون خاتمة المطاف بالنسبة للكثيرين من أبناء البلدان العربية لأن (٢١٫٨٪) من جملة المسجلين بالمرحلة الأولى هم فقط الذين يواصلون الدراسة في المرحلة التالية ، أي أن أكثر من ثلاثة أرباع الأطفال لا يتجاوزون في تعليمهم المرحلة الابتدائية »[٢٢] . وقد بينت الإحصاءات أن نسبة ٢٥٪ من إجمالي المسجلين في السنة الأولى الابتدائية بالمملكة يتركون الدراسة قبل إتمام المرحلة الابتدائية[٢٣] وذلك للأسباب التالية :

١ ــ افتقاد عامل التوجيه نحو التعريف بأهمية التعليم في أوساط البيئة ولا سيما في الأرياف .

٢ ــ عدم توفر عنصر الترغيب والتشويق في العملية التعليمية بدرجة تجتذب الأطفال وتصرفهم عن المغريات الأخرى .

٣ ــ انخراط أعداد منهم في مساعدة أسرهم في الأعمال الحرة والمزارع وسواها .

ثانياً : تزايد حالات الرسوب بدرجة ملفتة للانتباه ، حيث « تشكل نسبة الطلاب الراسبين في بعض الفصول حوالي (١٥٪) من إجمالي الطلبة الملتحقين »[٢٤] وهكذا نجد « أن نسبة عالية من الضياع التعليمي ناتج عن ظاهرة الرسوب وإعادة السنة الدراسية ، إذ إن عدد السنوات التعليمية المستثمرة لتخريج الطالب من مراحل التعليم العام تبلغ (١٧) سنة دراسية تقريباً للطلاب و (١٥) سنة للطالبات بدلاً من

(١٢) سنة حسب النظام التعليمي المتبع ، وهذا الفرق يمثل هدراً كبيراً في الوقت والجهد والمال»[٢٥] ، وقد لاحظ المخططون أن هناك مشاكل أخرى تساهم ــ ولو جزئيا ــ في تعويق النمو السريع للنظام التعليمي هي :
ــ الزيادة الكبيرة في نسبة الطلاب إلى المدرسين .
ــ أساليب التدريس التي ترتكز (كما أسلفنا) على الحفظ أكثر من الفهم والاستنباط واستخدام المهارات التحليلية المطلوبة .[٢٦] .

وهكذا نجد « أن معدلات الرسوب والتسرب المرتفعة تساهم في انخفاض مؤشرات الكفاية وبالتالي انخفاض معدلات الترفيع ، وعلى سبيل المثال فإن متوسط عدد السنوات التي يقضيها خريج المرحلة الابتدائية المحددة لست سنوات هو (٦ر٦) سنوات» .[٢٧] .

ثالثاً : ضعف التكوين الثقافي ، وبناء الشخصية على نحو خاطىء لا يعتمد على التجربة والممارسة واكتساب الخبرة الذاتية بما في ذلك اكتساب المعرفة الإنسانية الصحيحة والمتنوعة . ويمكن إدارك هذا العنصر بصورة أكثر تفصيلاً في الجزء التالي من البحث .

القسم الثانــــي

إشباع الحاجات القرائية لدى الأطفال :

يمثل الإحساس بالحاجة إلى المعرفة لدى الأطفال جزءاً من تكوينهم الفطري .. إذ يحرصون على تأمل كل ما يحيط بهم ، ويحاولون التعرف على طبيعته وخصائصه ، وقد يتعرضون بسبب هذا النزوع لبعض المخاطر وهم يسعون إلى اكتشاف الأشياء والتعرف عليها ، كأن يضع الطفل يده في النار .. فتحترق ، وقد يسقط من علٍ فيصاب بإصابات مختلفة ، وقد يبلع قرشاً أو مادة سامة ..

كل هذا يحدث لأن غريزة حب الاستطلاع تنشأ مع الطفل وتنمو .. ولذلك فإن محاولة الطفل أن يتعرف على بيئته من العوامل الهامة التي إذا ما عولجت بحكمة فإن ذلك يؤدي إلى تنمية ما يمكن أن يكون لديه من إمكانات وقدرات «وهناك وسائل متعددة لإشباع الحاجة إلى المعرفة لديه ، منها ممارسة النشاط الذاتي «اللعب» بأن يبذل المتعلم نشاطاً من جانبه وليس بتوجيه من المنزل ، إذ لو لجأ المنزل أو المدرسة إلى أسلوب التلقين وجعلاه الطريق الأساسي الوحيد الذي يطل منه الطفل على عالم المعرفة ، فإن النتيجة الطبيعية تكون بخروج شخصيات مغلقة ، والشخصية المغلقة لا يتسع أفقها لاستقبال المعرفة أو استيعابها أو هضمها ..

كما أن الأسئلة التي يطرحها الأطفال على أسرهم أو مدرسيهم والإجابة عليها من قبلهم تعد من وسائل اكتساب المعرفة لديهم ، شريطة أن تتسم هذه الإجابات بالوضوح والدقة والصحة ، وأن تتناسب مع أعمارهم ومستويات إدراكهم .. ويسمي «انجلو بترى» الرغبة في توجيه الأسئلة «بالجوع العقلي» ويرى أنه لا بد من إشباع هذا الجوع حتى يتمكن الطفل من الحصول على الإجابات المناسبة وينمي معارفه ولا يعيش حالة قلق وارتباك وحيرة مستمرة نتيجةعدم عثوره على إجابات محددة على ما يدور في ذهنه .[٢٨] .

وتعتبر القراءة مصدراً هاماً من مصادر المعرفة الشاملة التي توفر للطفل إجابات محددة وموثوقة .. وتنمي فيه غريزة حب الاستطلاع ، وتشجعه على المزيد من البحث و الاستقصاء للتعرف على الأشياء ما دام أنه سيجد إجابات مباشرة على كل سؤال ينشأ لديه .

غير أن القراءة «مهارة» تتبلور في عدة مراحل هي :
١ ــ اكتشاف الميول القرائية ٢ ــ تكوينها ٣ ــ تغذيتها وتشجيعها وتنميتها ٤ ــ تطويرها في الاتجاه الصحيح .

ذلك أنها «تعتبر جزءاً من نمو الطفل ، ويعتبر التأخر فيها مظهراً من مظاهر عدم نضج الطفل بصفة عامة ، فاللغة التي يستعملها الطفل (في حياته اليومية) دليل على نضجه العقلي فضلاً عن أنها وسيلة الاتصال المألوفة بين الأفراد ،ومعروف أن الأطفال يكونون مختلفين في بداية مرحلة دخولهم إلى المدرسة من حيث الاستعداد والقدرة على القراءة تبعاً لما يصادفونه في المنزل ، سواء بالنسبة لمستوى تعليم الوالدين وبقية أفراد الأسرة ، أو بالنسبة لاهتمامهم بعوامل الثقافة وإقبالهم عليها واقتنائهم لها .. فالطفل المتفوق اللامع الذي يتكلم كثيراً أو يتلذذ بالاستماع إلى القصص والأناشيد والذي يعتبر القراءة شيئاً أساسياً بالنسبة لأفراد أسرته غالباً ما يتعلم القراءة بتوجيهات بسيطة جداً بعد دخول المدرسة الابتدائية ، والطفل الذي يتوفر لديه استعداد عقلي متوسط أو دون المتوسط من نفس بيئة المنزل السابق يحس برغبة ملحة للقراءة ، ولكنه يحتاج إلى وقت أطول كي يتعلم ، والطفل المتأخر عقلياً الذي تنقصه المقدرة على التميز بين المترادفات والمتناقضات يتقدم ببطء في القراءة في المرحلة الأولى ويصبح مشكلاً في القراءة .

على أن الملاحظة الجديرة بالاهتمام ــ في هذا السبيل ــ هي أن نمو معدل زيادة اكتساب الطفل للكلمات والألفاظ الجديدة تقل عن معدله في الطفولة ، وبالتحديد في مرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية ، إلا إذا كانت المدرسة غنية بالمثيرات اللغوية المختلفة والتي تناسب مستوى الطفل العقلي»[٢٩] .

ومن الواضح أن إشباع الحاجات القرائية يمر بعدة مراحل وقنوات .. فهي تتم في المنزل (أولاً) ثم في المدرسة (ثانياً) ومن ثم في المجتمع (ثالثاً) .

وكلما كان المنزل على قدر طيب من التعليم ومن الاهتمام بالمعرفة ، وجد الطفل نفسه وسط بيئة صالحة للتعليم والاستنارة وتوسيع آفاق معارفه ، ويحصل المزيد من الخبرة العملية التي تعزز تلك المعارف النظرية ، بحيث يصبح الطفل مهيئاً للنمو الصحيح ، ومستعداً لاكتساب معارف أكثر في المراحل المتعاقبة .. لأن «التنمية تحتاج إلى خصال نفسية كثيرة تتفاعل لتنتج شخصية الرجل القادر على تحمل مسئوليات التنمية وتبعاتها، وكثير من هذه الخصال تتكون عبر سنين طويلة وتتأثر إلى حد بعيد بنوع التربية التي تلقاها الطفل في المنزل ، ولا أعتقد أنني أتجنى على الحقيقة إذا قلت إن كثيراًمن عائلاتنا تربي الأطفال على نحو يجعلهم عاجزين في المستقبل عن تحمل دورهم في التنمية»[٣٠] .

وبالتأكيد فإن «الأمية» تشكل حاجزاً كبيراً بين تحقيق معدلات التنمية الصحيحة في المجتمعات ، ومنها مجتمعنا ، وبين استغلال الأطفال كثروة حقيقية مهدرة .. ويكفي أن نعرف «أن الأرقام التي تطالعنا بها الدراسات المختلفة حول واقع الطفل العربي مؤلمة ، وتشير إحدى الإحصاءات إلى أن عدد الأطفال والشباب الذين لم يلتحقوا بالمدارس الابتدائية والثانوية (٦ ــ ١٧ سنة) في العالم العربي من مجموع السكان الكلي هو (٢٢٫٥) مليوناً عام ١٩٧٤ مقابل (٢١٫٩) مليوناً عام ١٩٧٠م و (١٩٫٥) مليوناً عام ١٩٦٥م)[٣١] .

ذلك أن المنزل كبيئة أولى يواجهها الطفل ، تؤثر تأثيراً كاملاً في تكوينه العقلي ، وفي عاداته ، وخبراته ومعارفه ، وفي شخصيته أيضاً .

وعندما يذهب الطفل إلى المدرسة مباشرة .. في سن السادسة دون أن يكون قد أعد إعداداً جيداً في المنزل ، ودون أن يمر بروضة أو مدرسة تمهيدية لاكتساب خصائص اجتماعية وسلوكية ومعرفية جديدة بالاحتكاك بمن هم في مثل سنه ، فإنه يواجه مشكلة كبيرة في التكيف وفي التحصيل على حد سواء .. «وليس غريباً أن تكون نسبة كبيرة من الآباء والأمهات في العالم العربي أمية ، إذ إنه في معظم الأحوال تجهل أمهات الأطفال القراءة والكتابة»[٣٢] ، ومن الطبيعي أن تعمل المدرسة الابتدائية في ظل هذه الحقيقة على تعويض هذا القصور وأن تعد مناهجها على هذا الأساس .. بحيث توفر للطفل الحاجة إلى المعرفة ، وتسهم بصورة غير مباشرة في دفع الأسرة إلى تحسين مستواها العلمي عن طريق مطالبتها الملحة بمتابعة تحصيل أطفالها .. وتهيئة الأجواء الدراسية والمعرفة المناسبة لهم في المنزل .

فما هو الوضع القائم في مدارسنا الابتدائية ؟

لقد وضح من الجزء الأول من الدراسة :

١ ــ أن المنهج يقوم على مواد دراسية منفصلة أو موزعة على حصص متعددة ولا يعنى بالتلميذ ككل .

٢ ــ وأنه يعتمد على المواد والمعلومات وليس على النشاط واكتساب المزيد من الخبرات ، ومن ثم فإنه ليس فيه مجال كاف لإشباع ميول التلاميذ للعب والحركة والنشاط .

٣ ــ أنه يمدّ التلاميذ جميعاً بنفس النوع والكمية من المعلومات بصرف النظر عن اختلاف حاجاتهم وقدراتهم ، ويتصل بهذا تزويد التلاميذ جميعاً بكتاب مدرسي واحد يستظهرونه أملاً في النجاح في الامتحان .

٤ ــ أن تجزئته إلى مواد دراسية موزعة على أكثر من ثلاثين حصة أسبوعياً يوحي بأن عملية التعليم في المدرسة الابتدائية تقوم على تلقين نواحي النقص هذه ، ويتغلب على صعوبة انفصال المواد الدراسية بالعمل على الربط بينها وإنشاء لون من الصلة الوثيقة بين أوجه النشاط في المواد المختلفة ، بل بين هذه المواد وأوجه النشاط خارج الفصل»[٣٣] وما يدعو إلى الدهشة هو أن السياسة التعليمية قد نبهت إلى ضرورة تفادي مثل هذه السلبيات حين وضعت أسساً علمية صحيحة تحكمها نظرة تربوية سليمة للدور الذي ينبغي أن تلعبه العملية التعليمية في تكوين ذهنية الإنسان وشخصيته على حد سواء .

ففي المادة (٣٤) من الباب الثاني الخاص بغايات التعليم وأهدافه العامة تلزم هذه السياسة المدرسة «بتزويد الطالب بالقدر المناسب من المعلومات الثقافية والخبرات المختلفة التي تجعل منه عضواً عاملاً في المجتمع» ..

ونلاحظ أن هذه المادة تركز على :

١ ــ قدر مناسب من المعلومات .. يراعى عمر المتلقي وقدراته العامة والخاصة وحاجاته الفعلية إلى المعرفة ، وهذا غير متاح في ظل المنهج المتضخم .

٢ ــ اكتساب الخبرات المختلفة .. خارج نطاق الكتاب المقرر وتوسيع دائرة معارفه ، وذلك غير ممكن نتيجة استغراق وقت الطالب في الحفظ والاستظهار للمواد المقررة .

٣ ــ بناء الذات .. وتقوية حقيقة الاعتماد على النفس .. عبر سلسلة التجارب والمحاولات التي تتحقق في ظل المبادرة الشخصية من الطفل بعيداً عن التلقين والتكليف الذي يفرضه المنهج الحالي .

يضاف إلى هذا أن المادة (٤١) تنص على «تشجيع وتنمية روح البحث والتفكير العلميين ، وتقوية القدرة على المشاهدة والتأمل وتبصير الطلاب بآيات الله في الكون وما فيه وإدراك حكمة الله في خلقه تمكين الفرد من الاضطلاع بدوره الفعال في بناء الحياة الاجتماعية وتوجيهها توجيها سليما»[٣٤] وهذا لا يمكن أن يتم خارج دائرة الوعي المعرفي الذي يتهيأ للطفل منذ مراحل تكوينه المبكر .. وهو ما أدركته المواد (٤٤) و (٤٥) و (٤٦) ووضعته في عداد أولوياتها على النحو التالي :

ــ تنمية مهارات القراءة وعادة المطالعة (لدى الطالب) سعياً وراء زيادة المعارف .

ــ اكتساب القدرة على التعبير الصحيح في التخاطب والتحدث والكتابة بلغة سليمة وتفكير منظم .

ــ تنمية القدرة اللغوية بشتى الوسائل التي تغذي اللغة العربية وتساعد على تذوقها وإدراك نواحي الجمال فيها أسلوباً وفكرة[٣٥] .

دور المدرس في التوجيه القرائي :

ومع أن «كل معلم هو معلم قراءة»[٣٦] بالدرجة الأولى نتيجة ما يوفره للطالب من فرص معرفية واسعة .. داخل وخارج الكتاب المقرر ، سواء عبر عملية التحضير اليومية للمواد المكلف بها ، أو من خلال النشاطات المختلفة التي يوصي التلاميذ بممارستها أو يساعدهم على الحصول عليها .. إلا أن عملية التدريس في مدارسنا الابتدائية تتم خارج نطاق هذا الفهم .. لعدة أسباب هي :

أولاً : زيادة الأعباء بحيث يزيد نصاب أستاذ هذه المرحلة في أكثر الأحيان عن (٢٥) حصة دراسية في الأسبوع .

ثانياً : شخصية المدرس نفسه ، فهو إما أن يكون ضعيف التأهل من الناحية العلمية ، ولا سيما أولئك الذين انخرطوا في سلك التدريس بمؤهل معاهد المعلمين فقط ، أو أولئك الذين تلقوا دورات في الكليات المتوسطة ، أو حتى المؤهلين جامعياً دون توفر البنية الثقافية والتربوية السليمة لديهم .

ثالثاً : ضعف الخبرة لدى مدرسي هذه المرحلة بحكم عمره الذي يتراوح ما بين (٢٠ ــ ٢٥) سنة .. وهي سن هشّة لا يمكن أن يعتمد عليها في تكوين جيل ناضج ومؤهل علمياً .. ومتفتح معرفياً .. لاسيما وأن المدرس في المدرسة الابتدائية أو في الجامعة يستطيع أن يترك آثاراً سلبية أو إيجابية على شخصيات الطلبة الذين يجلسون أمامه .

هدف المدرس يجب أن يكون في تدريب الطالب وليس تلقينه ، وهناك فرق شاسع بين طالب مدرب وطالب ملقن ، بإمكاننا أن نطلب من إنسان ما أن يقرأ كل الكتب التي تتحدث عن السباحة ، ولكننا نحكم عليه بالمعرفة إذا لم تدربه قبل إلقائه في الماء ، والأمر نفسه يصدق بالنسبة لكافة المهارات الأخرى ، وعلى كل مدرس ألا يكتفي بأن يسأل نفسه : هل نجحت في جعل الطالب يستوعب المقرر ؟ بل عليه أن يسأل سؤالاً آخر : هل نجحت في تدريب الملكة الذهنية عند الطالب بحيث يستطيع التعامل مع مشاكل ومواقف جديدة ؟ بعبارة أخرى عليه أن يسأل نفسه : هل حاولت أن أعد الطالب الإعداد الكافي لجعله في المستقبل عنصراً فعالاً من عناصر التنمية»[٣٧] وإن كنا ندرك بأن المدرس ليس مسئولا ــ كلية ــ عن هذا القصور لأنه لا يستطيع أن يتحرك خارج إطار المنهج المكثف .. مهما كان نضجه ورغبته في أن يرتقي بالعملية التعليمية .. ويخرج بها عن دائرة التلقين إلى التدريب .. وتحقيق مبدأ التفاعل بين المادة والطالب وبين الطالب والحياة .. وهذا لا يمكن أن يتأتى إلا إذا أعيد النظر ــ بالكامل ــ في مناهج المرحلة الابتدائية ، واعتمدت المكتبة المدرسية كهدف أساسي في تطوير العملية التعليمية ، وتحول الفصل الدراسي إلى مختبر للمعلومات تؤدى فيه جميع النشاطات وتكتسب من خلاله المزيد من المهارات وتمارس فيه شتى الهوايات .. وتكتشف الميول الحقيقية للتلاميذ .. وأصبحت حصة المكتبة المدرسية جزءاً أساسياً في جدول اليوم الدراسي .. وأعطى التلاميذ عناية كافية من قبل المدرسين والموجهين بهدف تطوير ميولهم القرائية .. وتوسيع مداركهم ومساعدتهم على بلورة قدراتهم الخاصة وتوجههم بصورة فردية أو جماعية .

هذا إذا نحن «أدركنا أهمية القراءة الحرة والاطلاع المتحرر من قيود الدروس وأنها طريقنا لخلق رغبة البحث العلمي لدى شباب الأمة ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بمعرفة طريق البداية الذي يتمثل في رأيي في أن يجعل الكتاب رخيص القيمة .. ليصبح متداولا ، حتى يمكننا آنئذ أن نبني مكتبة الطفل ومن ثم مكتبة المدرسة والمكتبة العامة من بعد»[٣٨] وبدون هذا فإن المنزل سيستمر مقصراً إلى المعرفة ، ولا يتوفر لديه الاهتمام بالقراءة ، وبالتالي فإن عادة القراءة

لن تورث لطفل يغيب الكتاب والصحيفة واللعبة فيه بصورة دائمة .. الأمر الذي يترتب على المدرسة مضاعفته ، ويصبح عليها «أن تعزز حب الكتاب لدى الطفل وتؤسس علاقة ودية بينهما ، بل تعمق هذه العلاقة بكل ما تستطيع من أنشطة .. مثل مسابقات القراءة والمسابقات الثقافية التي تعتمد على مراجعة الكتب ، والسرد القصصي وقراءة الشعر ، وكذلك النشاط التمثيلي والنشاط المسرحي وعرض الكتب وزيارات مكتبات الأطفال»(٣٩) وهذا يتطلب مراجعة شاملة لكل من : المناهج كخطط وقوالب مرسومة .. وللكتاب المقرر كمحتوى ومضمون ومعالجة وأسلوب .. وكذلك لواقع المدرس كسن وكخبرة وعمق ثقافي ، لأن الباحث عندما يفحص المناهج والخطط والكتب لا يجد صدى لتلك المفاهيم التي اعتمدتها السياسة التعليمية بالمملكة .. فالمواد نظرية وليست هناك عناية بالمشاهد والتعامل مع البيئة الطبيعية والاجتماعية المحيطة بالمدرسة . كما أن السلم المهني محدود جداً .. وقد زاد في مشكلة المناهج الانفصام بين المواد والتفريع في المادة الواحدة بدءاً بالصف الأول الابتدائي ، وكأننا نريد لهذا الطفل أن يكون متخصصاً في كل المواد من السن السادسة»(٤٠) .

وكمحصلة لهذه الدراسة فإن الباحث يوصي بما يأتي :

أولاً : تعزيز العلاقة بين أهداف مناهج التعليم وأساليبه من ناحية وبين فرص العمل من ناحية أخرى ..
وذلك بتكليف مربين مؤهلين لتأليف المقررات الدراسية للمرحلة الابتدائية بحيث يتحقق مبدأ التوازن بين القدر المناسب من المعرفة النظرية وبين القدر المطلوب من المعارف المكتسبة بواسطة الخبرة والتجريب الذاتي عبر وسائل النشاط المختلفة .

ثانياً : استخدام وسائل الإيضاح والمواد السمعية والبصرية بصورة عضوية في العملية التعليمية ودمج إدارتي المكتبات المدرسية والوسائل التعليمية بوزارة المعارف بدل الاكتفاء بالمعارض الجامدة التي يتم تلقين التلميذ بها وتكليفه بحفظها من خلال الكتاب المقرر ، وعدم الاستفادة من حاسة السمع والبصر والإدراك لمواطن الجمال والعمق في المعارف ، فضلاً عن ترسيخ المرئيات والمسموعات في الذهن ..

ثالثاً : اعتماد القراءة .. وما يتصل بها من نشاطات ومسابقات داخل وخارج الفصل الدراسي ، وداخل وخارج المكتبة المدرسية ، وربط النشاطات اللامنهجية كالرحلات ومثيلاتها بالمكتبة المدرسية .. تنمية للميول القرائية وتشجيعاً للتلميذ على الاعتماد على الذات واكتساب المعرفة مباشرة دون وسيط بما يؤدي إلى تطوير قدرته اللغوية ويوسع نطاق اهتماماته المعرفية ويفتح أفقه على آفاق أخرى .. توسع مداركه وخبراته باستمرار .

رابعاً : تعويد التلاميذ الصغار ، منذ مراحل التعليم المبكرة على البحث عن المعاني واستخلاصها من خلال القراءة ، ومن ثم إكسابهم مهارات التركيب اللغوي السليم ، والتحليل والاستنباط الصحيحين في مراحل متقدمة .. استغلالاً لقدراتهم الذهنية وتوظيفاً لإمكاناتهم العقلية في التفكير المبدع والخلاق ..

خامساً : مساعدة التلاميذ في الكشف عن مواهبهم، وتنمية الروح الناقدة لديهم بدلاً من الاتباعية في التفكير وقتل حرية الاختيار والممارسة والتصرف لديهم، وكذلك تطوير استعداداتهم على ممارسة التجربة والانتقال من مرحلة التعليم لاكتساب المعرفة فقط إلى مرحلة تعلم كيف يتعلم .

سادساً : العناية باختيار المدرسين للمرحلة الابتدائية والتركيز على الخبرات العالية ، والمدربة تربوياً وعلمياً وثقافياً وأخلاقياً .. حتى يكون بناء الطفل سليماً وصحيحاً ومتيناً .. وخبراته واسعة ومتنوعة ، وحتى يشعر — في هذه المرحلة المبكرة — بالأمان والطمأنينة والحنان في كنف مدرس يجمع بين السن المتقدمة ويعامله معاملة الأب والمعلم في آن واحد .. وبين تحمّل الكثير من تصرفاته وأخطائه وانفعالاته المبكرة ، ويوجهه وجهة سليمة ويقوّم اعوجاجه بما اكتسب من خبرات واسعة في التعامل السليم مع الأطفال .

سابعاً : التوسع في إقامة مكتبات الفصول ومكتبات المواد ، وإتاحة القراءة لصغار التلاميذ عن طريق الإعارة الخارجية أو البيع بأسعار رمزية للكتب والقصص والصحف والمجلات .

ثامناً : تشجيع التلاميذ على التردد على المكتبة المدرسية .. سواء عن طريق اختيار الموقع المناسب لها قريباً من الفصول الدراسية ، أو عن طريق توفير أكثر من حصة دراسية مفتوحة في اليوم لإلقائها في المكتبة والتعامل مع مجموعاتها .. أو عن طريق إثارة غريزة حب الاستطلاع لديهم في التعرف على أجزاء من القصص التي تروى داخل الفصل وتوجههم إلى الذهاب إلى المكتبة لمعرفة هذه الأفراد ، ووضع أسماء المتفوقين منهم في قائمة الشرف بالمكتبة ، ومنحهم مكافآت مادية رمزية .

تاسعاً : تفريغ أمناء المكتبات ، وإعفائهم من الأعباء الدراسية أو الإدارية الأخرى ، تمكينهم من فتح المكتبة طوال اليوم الدراسي وبعده ، وتوفير الخدمات المطلوبة منهم للتلاميذ باستمرار ، وتوفير فرص التخطيط والتنسيق بينهم وبين مدرسي المواد لتحقيق المتابعة الضرورية للمواهب والكشف عنها .. وتطويرها ..

عاشراً : تشجيع الآباء والأمهات على زيارة المدرسة وقضاء وقت مناسب في المكتبة المدرسية والتعرف على طبيعة الوضع الدراسي .. والاستفادة من المكتبة والاستماع إلى ندوات ومحاضرات مفيدة من شأنها أن تطبق الفجوة القائمة بين المنزل والمدرسة . وتشجع الأسرة على اعتماد المكتبة المنزلية كوسيلة تربوية مكملة للعملية التعليمية بالمدرسة ، وتوجيه الآباء إلى أهمية متابعة تحصيل أبنائهم ، والارتفاع بمستواهم والإجابة على أسئلتهم ..

وبغير هذا فإن العملية التعليمية ستظل جامدة .. ما استمرت الحاجات القرائية لدى التلاميذ مهملة .

الهوامش

١ ــ ماري عزمي (مترجم) . إعلان حقوق الطفل . مجلة اليونسكو ــ للمكتبات والأطفال . ع ٣٧ . س ١٠ ، نوفمبر ١٩٧٩ ــ يناير ١٩٨٠م . ص ص ٢١/١٦ .

٢ ــ لوري ، جين اليزابيث. مكتبة المدرسة الابتدائية ، تعريب مدحت كاظم . القاهرة ، جمعية المكتبات المدرسية ، ١٩٧٨م . ص ٨ .

٣ ــ زيدان ، محمد مصطفى ، التعليم الابتدائي بالمملكة العربية السعودية ــ دراسة موضوعية كاملة . جدة ، دار الشرق ، (د . ت) .

٤ ــ مرسي ، زغلول . نتعلم ونعمل (رصد واقع التربية : مختارات من متطلبات . باريس ، اليونسكو ، م . ص ١٠ .

٥ ــ امبو ، أحمد مختار . نفس المرجع . ص ٢١ .

٦ ــ نفس المرجع . ص ٢٦ .

٧ ــ الإحصائية الوحيدة المتاحة هي «المؤشر الإحصائي» الذي أصدرته مصلحة الإحصاءات العامة بوزارة المالية والاقتصاد الوطني عام ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، واشتمل على إحصاءات ترجع إلى عام ١٣٩٤هـ .

٨ ــ خطة التنمية الرابعة . ص ٢٩٢ .

٩ ــ نفس المرجع . ص ٢٩٩ .

١٠ ــ سياسة التعليم في المملكة العربية السعودية . ط ٢ ، ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م) ص ١٣ .

١١ ــ نفس المرجع . ص ١٧ .

١٢ ــ نفس المرجع . ص ١٨ .

١٣ ــ نفس المرجع . ص ١٦/١٥ .

١٤ ــ نفس المرجع . ص ٩ .

١٥ ــ وزارة التخطيط . استراتيجية خطة التنمية الرابعة (١٤٠٥ ــ ١٤١٠) (١٩٨٥ ــ ١٩٩٠م) . ص ٧ .

١٦ ــ الزيد ، عبد الله محمد. التعليم في المملكة العربية السعودية . نموذج مختلف . ط ٣ ، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م . ص ٨٨ .

١٧ ــ زيدان ، محمد مصطفى . (المرجع السابق ذكره) . ص ٦٦ .

١٨ ــ المصدر السابق . ص ٦٧ .

١٩ ــ الزيد ، عبد الله . المرجع الآنف ذكره ، ص ٨٩ .

٢٠ ــ الرئاسة العامة لتعليم البنات ــ الإدارة العامة للمناهج والبحوث والكتب . منهج المرحلة الابتدائية لتعليم البنات ــ ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م . ص ٤ .

٢١ ــ المرجع السابق . ص ٣٣ .

٢٢ ــ بامشموس ، سعيد . التعليم الابتدائي : دراسة منهجية . تأليف سعيد بامشموس ونور الدين عبد الجواد . الرياض ، دار الفيصل الثقافية ، ١٣٤٠هـ .

٢٣ ــ خطة التنمية الرابعة . ص ٨٥ .

٢٤ ــ نفس المرجع . ص ٢٩٤ .

٢٥ ــ نفس المرجع . ص ٨٤ .

٢٦ ــ المرجع السابق . ص ٢٩٤ .

٢٧ ــ المرجع السابق . ص ٢٩٣ .

٢٨ ــ فهمي ، مصطفى . الصحة النفسية . دراسات في سيكلوجية التكيف . القاهرة ــ مكتبة الخانجي (١٩٧٦م) . ص ص ٣١/٣٠ .

٢٩ ــ زيدان ، محمد مصطفى . المرجع الآنف ذكره . ص ص ٢٤٢/٢٤١ .

٣٠ ــ القصيبي ، غازي . التنمية وجهاً لوجه . جدة ، تهامة (الكتاب العربي السعودي ــ ٢٣) ١٤٠١هـ (١٩٨١م) . ص ٤٩ .

٣١ ــ زيد ، إلياس . الطفل العربي والإنماء ــ بمناسبة السنة العالمية للطفل ١٩٧٩م ، المستقبل العربي . مج ٢ . ع ١٠ تشرين ثاني ، ١٩٧٩م . ص ١٢٥/١٢٤ .

٣٢ ــ شلبي ، أحمد عبد العزيز . نحو استراتيجية لتلبية الاحتياجات الأساسية للطفل العربي . المرجع السابق . ص ١٤٥/١٤٤ .

٣٣ ــ زيدان ، محمد مصطفى . المرجع السابق . ص ٦٤/٦٣ .

٣٤ ــ المرجع السابق . ص ١٣ .

٣٥ ــ المرجع السابق . ص ١٤ .

٣٦ ــ المجلة العربية للبحوث التربوية . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، إدارة البحوث التربوية ، ن .ت ، مج ٣ . ع ١ . يناير ١٩٨٣م . ص١٩٩

٣٧ ــ القصيبي ، غازي . التنمية وجهاً لوجه . ص ٥٠ .

٣٨ ــ عبد الواسع ، عبد الوهاب . التعليم في المملكة العربية السعودية بين

٣٩ ــ ملص ، محمد بسام . الطفل العربي والكتاب . المجلة العربية للثقافة . ق . س (س ٤ . ع ٧ ذو الحجة ١٤٠٤هـ سبتمبر (أيلول) ١٩٨٤م . ص ص ١١٧ ــ ١١٤ .

٤٠ ــ المنفوحي ، عبد العزيز محمد . ملامح التعليم في المملكة العربية السعودية . تقرير أعد في ربيع الأول ١٣٩٧هـ لوزارة المعارف للمكتبات المدرسية في المنطقة الغربية بالمملكة العربية السعودية . رسالة دكتوراه للباحث . ص ٣٤٢ .

كرستيان سنوك هورخرونيه (١٨٥٧ ـ ١٩٣٦م) بعض الملاحظات حول نشاطاته العلمية والسياسية في هولندا وجزيرة العرب واندونيسيا*

بيتر شورد فان كوننكزفيلد (١)
ترجمها من الهولندية قاسم السامرائي

منذ سنة ١٩٧٩م تدور مناقشات حامية حول نشاطات المستشرق الهولندي كرستيان سنوك هورخرونيه، في حقل الدراسات الإسلامية والسياسية الاستعمارية الهولندية تجاه الإسلام في اندونيسيا. فخلال نصف قرن، من سنة ١٨٨٩م وحتى وفاته في سنة ١٩٣٦م شغل سنوك منصب مستشار للشئون الإسلامية للحكومة الهولندية، وفي عمله هذا كان تأثير سنوك واسعا على السياسة الهولندية في الأمور المهمة التي كانت تتعلق بالمستعمرات الهولندية التي كانت تسمّى إذ ذاك الهند الشرقية الهولندية، وفي الوقت نفسه كان سنوك العامل المؤثر الأكبر على تلوين النشاط الاستشراقي بصفة خاصة في هولندا خلال تلك الفترة، إضافة إلى تأثيره هذا فقد أنتج كثيرا من البحوث حول الإسلام التي عني بها الاستشراق الأوروبي إذ ذاك.

إن الجدل الذي سبقت الإشارة إليه كان قد بدا جدالا داخليا بين المستشرقين الهولنديين حسب ولكن ذلك سرعان ما أثار انتباه بعض العلماء الأندونيسيين، فكتبوا عدة مقالات في الصحافة الأندونيسية منذ عام ١٩٨٢م، أما في العالم العربي فإن هناك دراسة مختصرة للمناقشات التي دارت في هولندا بقلم صديقي القدير الدكتور قاسم السامرّائي أدرجها في كتابه: «الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية» الذي ظهر في الرياض سنة ١٤٠٣هـ.

ومنذ بداية الجدل فقد ظهر ما يزيد على مائة مقال في اللغات الهولندية والأندونيسية والعربية، والأمل أن العدد سوف يزداد في المستقبل القريب، لأن موضوع هذه المناقشات يدور حول جانب مهم جدا من جوانب التاريخ الاستعماري المهمل، فهو في الحقيقة يتركز على دور المستشرقين السياسي في العصر الاستعماري، وعلى علاقات هؤلاء المستشرقين الشخصية بالجمهور المسلم الذي كان واقعا تحت الحكم الاستعماري، وعلى مدىً تأثير كتاباتهم في إبراز صورة الإسلام بخاصة، وصورة الحضارات غير الأوروبية بصورة عامة على القارىء الأوروبي. فقد كانت كتاباتهم هذه متأثرة إلى حد بعيد بميولهم السياسية والدينية معاً.

ومع أن هذه المناقشات تدور الآن حول دور الاستعمار الهولندي والاستشراق الهولندي إلا أننا لا بدّ أن نتوقّع مجادلات مشابهة حول دور الاستشراق البريطاني والاستشراق الفرنسي في كل من شمال أفريقيا والشرق الأوسط، ومن هنا فإنني أرىٰ أن المناقشات التي أثارها ادورد سعيد ليست كافية لانتقاد الاستشراق، وذلك لأن ادّورد سعيد درس الاستشراق عموما كظاهرة أدبية وليس كظاهرة تاريخية لها أبعاد سياسية واجتماعية واسعة. فقد وصف سعيد فكرة الاستشراق في أوروبا ولهذا الغرض وحده كان الأمر كافيا بالنسبة له أن يعتمد على مصادر أدبية أمثال الروايات الرومانسية الموغلة في خيال الشرق وأدب الرحلات، إضافة إلى كتابات المستشرقين أنفسهم. ومع هذا فإن مناقشة معنىٰ الاستشراق لا يمكن أن تعتمد على الروايات وأساطير الرحّالين المغامرين حسب، وهي كذلك لا يمكن أن تعتمد على كتابات المستشرقين المنشورة وحدها في العصر الاستعماري لأية دولة، لأن هذه المنشورات تظهر فقط اتجاه المؤلفين نحو الإسلام والحضارات غير الأوروبية بصورة نظرية وعامة، ولهذا السبب أيضاً فإن أيّ انتقاد موضوعي لموقفهم ولكتاباتهم يتطلب دراسة أوسع من ذلك. فإن الذي نحتاجه في أية دراسة هو إثباتات تاريخية حول سيرهم الشخصية والمصادر التي استقوا المعلومات منها، بل والأهمّ من كل ذلك علاقاتهم الشخصية مع المسلمين الذين وقعوا تحت حكم حكوماتهم، فإن مثل هذا النوع من المعلومات يمكن الحصول عليه من المصادر الآتية:

١) أوراقهم الشخصية التي تركوها ولم تُنشَر بعد.

٢) الوثائق الرسمية، أمثال الاستشارات السياسية التي قدّموها لحكوماتهم.

٣) رسائلهم الشخصية ومراسلاتهم مع معاصريهم من

الأصدقاء والزملاء .

ففي هذه الدراسة أود أن أشرح لكم طريقتي في دراسة الاستشراق في العصر الاستعماري والتي أود أن أدعوها بـ «النقد التاريخي للاستشراق» . وإنني استعمل هذا الاصطلاح لأنني أود أن أفهم وفي الوقت نفسه أحلل ظاهرة الاستشراق اعتمادا على مصادرها وفي حدود نطاقها التاريخي . ولعل أحسن مثال أعرضه الآن لتوضيح منهجي هذا هو دراستي للمستشرق الهولندي **سنوك هورخرونيه** ، ففي الحدود المتاحة لي في هذه الدراسة سأقصر حديثي على نقطة واحدة مهمة هي : موقف سنوك الشخصي من الإسلام .

إن الدارس لحياة سنوك الشخصية والعلمية يدرك أن هناك ثلاثة أبعاد :

الأول : دراسته في لايدن وسفره إلى الجزيرة العربية في الفترة المحصورة بين (١٨٧٤ ــ ١٨٨٩م) .

الثاني : مكوثه في اندونيسيا خلال السنوات (١٨٨٩ ــ ١٩٠٦م) .

والثالث : فترة كونه أستاذاً للإسلام واللغة العربية في لايدن من سنة ١٩٠٦م إلى ١٩٣٦م وهي السنة التي توفي فيها بعد أن تقاعد .

وفي هذه المحاضرة سوف أدرس الفترتين الأوليين لأنهما أهم الفترات التي كوّنت سلوكه فيما بعد .

لقد بدأ **سنوك** طالبا يدرس اللاهوت في لايدن ، واستمر في دراسته هذه بعد أن أضاف إليها اللغة العربية والإسلام ، حيث درسهما على المستشرق الهولندي المعروف دي خويه وقد أثّرت دراسته لعلم اللاهوت تأثيرا عميقا على موقفه من الإنجيل ، فقد كانت الآراء السائدة في لايدن إذ ذاك بين الدارسين لعلم اللاهوت أن الإنجيل لم يكن وحيا وإنما هو من صنع كاتبيه ، ولم يكن سنوك بمنجاة من هذه الآراء ، ولهذا فإنه حين درس القرآن والحديث طبق آراءه حول الإنجيل على القرآن والحديث ، ومن هذا المنطلق فإنه عد القرآن من صنع نبي الإسلام ، كما عد الإنجيل من صنع كاتبيه من قبل ، بل إن الظاهر من آرائه المنشورة أنه عد القرآن كتابا تاريخيا يستنبط منه أوثق المعلومات عن سيرة النبي ، ولهذا فإن موقفه من الحديث لم يختلف عن موقف **كولدزيهر** الذي رأى أن أكثر الحديث النبوي يعود إلى ما بعد النبي ، وأنه يعكس المجادلات التي كانت دائرة بين فرق المسلمين خلال القرنين الأولين من الهجرة . هذا هو موقف سنوك تجاه القرآن والسنة النبوية خلال حياته ، مما يظهر واضحا في كل ما كتب عن الإسلام ، هذا الموقف وهذا الاتجاه كانا الأساس الأول في أول ما كتب ، وأعني أطروحته حول «الحج في أوائل التاريخ الإسلامي»[٢] .

وما دمنا في الحديث عن الحج ، فإن الحج إذ ذاك كان أيضا موضوعاً سياسياً مهما في هولندا ، وذلك لأن أعدادا كبيرة من الأندونيسيين كانت تؤدي فريضة الحج كل سنة ، وقد كانت سياسة الحكومة الهولندية في الحج السبب المباشر في كثير من المناقشات في هولندا . فقد تصاعدت أصوات كثيرة تدعو إلى التقليص أو الحدّ من حرية السماح للحجّاج بزيارة مكة المكرمة ، وقد احتجّ هؤلاء بالحجج الآتية :

١ ــ أن الحج كان يسبب ضياع أموال كثيرة من المستعمرات .

٢ ــ أن الحجاج كانوا يسببون انتشار الأوبئة التي يجلبونها أثناء الحج ، حتى قالوا إن ماء زمزم كان موبوءا بمرض الكوليرا[٣] .

٣ ــ واحتج هؤلاء بأن الحجاج كانوا يستوردون معهم أفكارا سياسية خطرة من مكة .

٤ ــ وقد عدَّ هؤلاء مدينة جدة مركزا لتوريد الأسلحة إلى المستعمرات للثورة على الحكومات الأوروبية الاستعمارية .

يظهر من وثائق دار الحكومة في لاهاي أن القنصل الهولندي العام في جدة قد اقترح مرارا على الحكومة الهولندية أن تجنّد عملاء سريين مثلما فعلت بريطانيا في جدة للتسرّب بين الحجاج لمعرفة من يعمل ضد هولندا ، إلا أن الحكومة الهولندية رفضت هذه الاقتراحات لسبب بسيط هو أن هذه العملية تكلّف كثيرا ، وقد اقترح القنصل أن يرسل اثنين من الأندونيسيين اللذين يعتمد عليهما إلى مكة كل سنة للغرض نفسه ، وقد رفضت الحكومة هذا الاقتراح أيضا لأنها لم تعتقد أن مثل هؤلاء يمكن أن يوجدوا بين المسلمين الأندونيسيين . ولم ييأس القنصل الهولندي ، فعاد واقترح أن ترسل الحكومة الهولندية **سنوك** إلى جدة ليعمل بين الحجاج الأندونيسيين لفائدة الإدارة الاستعمارية والعلم معا ، وقد وافقت الحكومة بعد تردّد ، وموّلت سفرته جزئياً وبصورة غير مباشرة ، إضافة إلى ذلك فإن اسم مكة كهدف نهائي لسفرة سنوك لم تذكر مطلقا في الوثائق الرسمية[٤] .

لقد وصل **سنوك** إلى جدة في صيف سنة ١٨٨٤م وقد مكث خمسة شهور في جدة للتدريب على تعليم لغة الخطابة بالعربية ، وإنشاء علاقات مع الحجاج الجاويين ، ومع علماء مكة إذا ما حدث أن قدموا إلى جدة ، كل هذا يظهر من دفتر مذكّراته غير المنشور والمحفوظ في مكتبة جامعة لايدن[٥] . ويظهر واضحا في دفتر

مذكراته أن معارفه من الأندونيسيين قد سألوه لماذا لم يتحول إلى الإسلام مع أنه قد درس كثيرا من الأصول والمصادر الإسلامية ، وقد أجاب سنوك على هذا السؤال لنفسه ، فكتب في دفتر مذكراته أنه كان يتفادى الإجابة على مثل هذا السؤال . ومع هذا فإن الحقيقة التاريخية تظهر أن سنوك أعلن إسلامه قبل سفره إلى مكة ومكوثه فيها ستة أشهر منذ ربيع ١٨٨٥م حيث تبنّى اسما إسلاميا هو عبد الغفار . ونحن نعرف أنه تسلم تحت هذا الاسم عدة رسائل شخصية أثناء بقائه في مكة وبعده ، وقد ظهرت واحدة من هذه الرسائل في كتاب قاسم السامرائي الذي أشرت إليه وهو كتاب الاستشراق ، مما يبرهن جلياً أن **سنوك قد أعلن إسلامه** . وفي هذه الرسالة التي كتبها سي عزيز بن الحداد الجزائري ورد ما يأتي :

«لأنك أشهرت إسلامك وعلماء مكة يشهدون بإسلامك» (٦)

ومن جدة كتب **سنوك** رسالة إلى صديقه المستشرق الهنغاري كولدزيهر وأخبره عن عزمه على الولوج إلى مكة ، وهذه الرسالة غير منشورة ، وهي محفوظة الآن في الأكاديمية العلمية في بودابيست ومؤرَّخة في ١٦ يناير ١٨٨٥م ورد فيها ما يأتي : «لا أود أن أكتمك سراً بأنني قد احوّل مستقرّي من جدة إلى مكة لكي أتابع بعض الدروس أحيانا ، ولإغناء معلوماتي بتنمية علاقاتي المباشرة مع معارفي الكثيرين من أهل مكة ، ولكنني أرجو أن لا تكشف أية معلومات لأي إنسان ، فإنّي اكتشفت طريقا سهلا يفتح إن شاء الله أبواب المدينة المقدسة لي ، وهذا بالطبع لا يمكن أن يكون مستطاعا بدون شيء من إظهار الإسلام»(٧) .

وفي رسالة من مكة موجهة إلى أستاذه **تيودور نولدكه** كتب سنوك بالطريقة ذاتها ما يأتي : «بالتأكيد فإنني أذهب إلى الكعبة .. لأنني بالطبع لا أستطيع البقاء هنا دون إظهار الإسلام ، وذلك لأن الأيام التي كان فيها النصارى أو أي نجس يمكن أن يعيشوا بحرية هنا قد انتهت» ، هذه الرسالة التي نشَرتُها حديثا محفوظة في مكتبة جامعة توبنكن بألمانيا(٨) .

وفي رسالة أخرى أرسلها سنوك إلى صديقه المستشرق الألماني **كارل بيزولد** ذكر سنوك إظهاره للإسلام مرة أخرى ، وقد أشار لصديقه بأن كثيرا من الرحالة الأوروبيين المشهورين الذين جالوا في العالم الإسلامي قد عملوا الشيء نفسه . وقد ذكر أمثلة منهم بركهارت وريتشارد بيرتن ، إذ ذهبا إلى مكة وكتبا وصفا للجزيرة العربية . وهذه الرسالة غير المنشورة محفوظة في مكتبة جامعة هايدلبرج(٩) .

ولا يأخذنا العجب عند ذاك إذا رأينا أن سنوك كتب في مقالة له بعد رجوعه من مكة إلى هولندا منتقدا الرحالة الانجليزي دوتي الذي سافر عبر الجزيرة العربية دون أن يتبنى مظهرا إسلاميا(١٠) . **ففي** رسالة غير منشورة أرسلها إلى كولدزيهر كتب : «في مجتمع ما (...) حيث يعد الإنسان بالكاد إنسانا دون أن يكون مسلما **فإنني** لا أرى سببا يمنع أي فرد (...) أن يكون مسلما مع المسلمين ، فإن المرء بعمله هذا لا يفقد شخصيته بالضرورة ، وهذا كله بناء على تجربتي الخاصة ...»(١١) .

لقد أصبحت رحلة **سنوك** إلى الجزيرة العربية مشهورة جدا في أوروبا بعد أن نشر كتابه عن مكة بجزأين ، وقد حوىٰ **الجزء الأول** وصفا تاريخيا للمدينة المقدسة نقلا من مصادر مكتوبة باللغة العربية ، أما **الجزء الثاني** فإنه يحتوي على وصف للحياة اليومية فيها حين كان سنوك في مكة . وقد عد هذا الجزء لزمن طويل وصف شاهد عيان وأن سنوك شاهده بنفسه . وقد أظهرت في أحد منشوراتي أن هذا الانطباع لم يكن صحيحا كليّا وذلك لأن أجزاء طويلة ومهمة من هذا الجزء تتعلق بالتعليم الديني والعادات التي كانت منتشرة في مكة أخذها سنوك من تقارير بالعربية كتبها له **رادن أبو بكر** وهو أحد الجاويين المجاورين في مكة ، والذي تعرف عليهم سنوك من خلال القنصلية الهولندية في جدة ، وقد عينته القنصلية بوظيفة مخبر بناء على توصية سنوك به(١٢) .

لقد حوت تقارير **رادن أبو بكر** معلومات مفصّلة عن كثير من العلماء الجاويين في مكة أدخلها سنوك كلها مع تغيير يسير في كتابه عن مكة ، ولهذا السبب فإنني لا أغالي إذا قررت أن أكثر المعلومات المهمةالتي أوردها سنوك في الجزء الثاني من كتابه إنما هي المعلومات التي كتبها رادن أبو بكر له دون أن يكون لسنوك أي جهد شخصي فيها .

وهنا نقف على حقيقة علمية تاريخية تتعلق بدور بعض المسلمين الذين يقدمون المعلومات عن أمر أو آخر للمستشرقين وموقف المستشرقين من مسألة الاعتراف بهذا الجميل العلمي ، فإن بعضهم تغافل عن الاعتراف بدور هؤلاء الذين أسدوا لهم الجميل ، وهذا ما نراه كذلك مثلا في كتاب الفهرس لمجموعة من المخطوطات العربية في لايدن الذي ألفه المستشرق السويدي كارلو لاندبرج ، فإنه في الحقيقة قد اعتمد كليا على فهرس موجود فعلا للمخطوطات العربية سبق أن كتبه ونشره على الحجر وبعدد قليل أمين المدني الحلواني إلا أن لاندبرج لم يذكر هذه الحقيقة العلمية إطلاقا(١٣) .

ولا أود أن أسرد أمثلة كثيرة ، لأن هذه الأمثلة تبرهن على أن أية دراسة تاريخية نقدية للاستشراق يجب أن تضع في حسابها إمكانية تغافل بعض المستشرقين الاعتراف بالمعلومات التي كانوا يستقونها من المسلمين كتابة أو شفاها ، والسبب كما أراه هوتأثير الأخلاق

الاستعمارية على العقلية الأوروبية ، حيث كان الأوروبي يحس في نفسه استعلاء على غيره ، وأنه يشعر بالضعف إذا ما اعترف بمثل هذا الجميل العلمي .

لقد أصبح سنوك حجة مشهورة في أوروبا حين نشر كتابه حول مكة في مجال دراسة الإسلام المعاصر ، فقد أظهر كتابه الأهمية القصوىٰ التي تلعبها مكة المكرمة كمركز ديني بالنسبة للمسلمين الأندونيسيين ، وقد أقنع هذا الحكومة الهولندية بفائدة دراسة الإسلام بعمق حتى تتمكن هولندا من إدارة مستعمراتها بيسر وسهولة فتساعدها هذه الدراسة على تقوية حكمها فيها ، ولذلك يجب ألا يغيب عن بالنا أن سنوك نشر كتابه في الوقت الذي كان التوسع الاقتصادي والعسكري الهولندي على أشده في اندونيسيا ، وفي الوقت نفسه كانت الثورة في إقليم غرب جاوه قد بدأت تتفجر تحت شعار الإسلام ، بينما كانت هولندا في الوقت نفسه مشتبكة في حرب ضروس مع سلطنة إقليم آجي في شمال جزيرة سومطرة . وقد أصبحت هذه الحرب أطول حرب وأكثر دموية من أية حرب خاضتها هولندا في اندونيسيا ، وهذه الحرب أيضا كانت تحت شعار الإسلام ، حيث استند الآجيون في حربهم هذه على فتاوى أصدرها علماء مكة ، وبعض هذه الفتاوى التي لم تنشر بعد محفوظة أيضا في مكتبة جامعة لايدن(١٤) .

ولم يدم الوقت طويلا حتى تعالت الأصوات في هولندا بالاستفادة من خبرة سنوك في مكة وعلاقاته هناك واستعمالها في خدمة هولندا في اندونيسيا ، وقد تم إرسال سنوك فعلا إلى اندونيسيا في سنة ١٨٨٩م حيث مكث ست عشرة سنة لعب خلالها دوراً كبيراً في الشئون الاندونيسية والحرب في إقليم آجي ، وهذا كله يظهر واضحا من الوثائق الحكومية الرسمية ، فقد كانت خطة الحكومة الهولندية تتركز على أن يقوم سنوك أولا بالسفر إلى سنغافورة ، ومنها إلى بينانغ في ماليزيا ، ومن هناك يتسلل وراء خطوط الآجيين للاتصال مع بعض الآجيين المقرّبين لسلطان الإقليم للحصول على معلومات تستفيد منها الإدارة الحربية الهولندية ، إلا أن هذه الخطة أحبطها القائد العام للقوات الهولندية في آجي ، فكان من نتيجة هذا الإحباط أن سافر سنوك مباشرة إلى جاوة ، غير أن مهمته الأولى في إقليم آجي قد تحققت بعد سنوات قليلة ، إذ لعب دورا واسعا في مساعدة الإدارة الهولندية ضد الآجيين(١٥) .

الغريب في سلوك سنوك هورخرونيه توضحه الوثائق الشخصية له ، وهذه الغرابة تتجلىٰ في أنه كان يلبس لباس المسلم مع الاندونيسيين المسلمين ، وفي الوقت نفسه يلبس لباس الأوروبي مع الأوروبيين . فهو للأوروبيين المستشرق الوفي لحكومته في تقديم نصائحه الرسمية حول الإسلام ، وأكثر هذه النصائح أو الاستشارات قد نُشِرَت بعد موته في ثلاثة أجزاء ضخمة(١٦) ، وهو في الوقت نفسه عبد الغفّار بالنسبة للمسلمين الأندونيسيين ، المسلم الذي درس في مكة وله علاقات واسعة مع علماء مكة .

إنها لحقيقة تثير الدهشة أن المسلمين الأندونيسيين كانوا يعترفون بسنوك عالما مسلماً كما يظهر في العديد من الرسائل التي وجّهها أصحابها له طالبين منه الفتوىٰ ، فكانت هذه الرسائل تحمل مثلا : «إلى الشيخ العلّامة عبد الغفار مفتي بتاويا» أو : «إلى شيخ الإسلام في الديار الجاوية» ... إلى آخره ، دون أن يخالجهم أدنىٰ شك في موقفه من الإسلام(١٧) ، إضافة إلى ذلك فإن سنوك كان محاطا بجماعة من الطبقة العالية من الجاويين الذين عرفهم أثناء مكوثه في مكة ، منهم حاجي حسن مصطفى الذي عيّنه سكرتيرا له ، فقام بصحبته بالتجوال على المدارس الدينية في جاوة ليقدم رأيه للإدارة الاستعمارية الهولندية حول هذه المدارس وما يجب عمله فيها من إصلاحات(١٨) . وقد أضيف لسنوك مساعد آخر هو العالم الحضرمي السيد عثمان بن يحيىٰ العلوي ، الذي بدأ سنوك بمراسلته حين وصل إلى لايدن قادماً من مكة(١٩) .

ولعل سائلا يسأل : هل كان هؤلاء المتعاونون مع سنوك على علم بدوره ذي الوجهين ؟ أنا شخصياً أعتقد أنّ الأمر لم يكن كذلك ، مع أن الوثائق التي رأيتها حتى الآن لم تكشف حقيقة الأمر فيما إذا كانوا على علم بدور سنوك .

ومن الناحية الأخرى فإن الإدارة الاستعمارية الهولندية في اندونيسيا على ما يظهر كانت على علم تامّ بدوره ذي الوجهين هذا ، لأن ذلك يظهر واضحا من الوثائق غير المنشورة والمحفوظة في دار الوثائق الوطنية في جاكارتا التي تذكر الأسس التي كان على سنوك أن يسير عليها في سلوكه وعمله بالتفصيل . ويظهر من هذه الوثائق أن رأي الإدارة الهولندية كان واضحا في أن الطبيعة الرسمية لعمل سنوك في جمع المعلومات يجب أن تكون سراً وألا تكشف أبدا للأندونيسيين .

وفي هذه الوثائق أيضا يظهر أن الإدارة الاستعمارية الهولندية كانت مقتنعة بأن سنوك قد برهن على كفاءته الواسعة في مثل هذا العمل حين كان في الجزيرة العربية(٢٠) .

إضافة إلى ذلك فإن الجماعة الأوروبية كانت على علم بطبيعة عمل سنوك هذا في اندونيسيا كما تظهره الصحافة الهولندية إذ ذاك ، إلى حد أنه بعد وصول سنوك إلى جاوة ظهرت مقالة طويلة تنتقد سلوك سنوك وتصرّفه في تظاهره بالإسلام ، وتشير هذه المقالة إلى الحقيقة التي عرفناها فيما بعد بأن سنوك لم يتحول إلى الإسلام بدافع

من إيمانه بهذا الدين ، ولكنه اتخذ هذا التظاهر لأغراض عملية أي : «للعمل كجاسوس في خدمة الحكومة الهولندية» . وقد كتب مؤلف هذه المقالة أن سلوك سنوك والحكومة الهولندية التي تستغلّ موقفه المزور يجب أن تدان بقوة[٢١] ومع هذا فإنّ مقالة أخرى دافعت عن سلوك سنوك هذا واحتجت بحجج منها (وهنا اقتبس مقالة الجريدة):

«إن مسلمينا (وتعني الأندونيسيين) ليسوا بهذه الدرجة من الغباء بحيث أنهم يسمحون لأنفسهم أن يخدعوا بمثل هذه السهولة ، وهم يعرفون أنهم يستطيعون الاعتماد على الدكتور سنوك ، وأنه سوف لن يضرّ بمصالحهم ناهيك عن خيانتهم ، ولهذا فإنهم يستقبلونه بطريقة مؤدبة سبق أن استقبلوه بها (وتعني بمكة) وهم يفتحون له الأبواب واسعة في حياتهم وأفكارهم»[٢٢] .

وقد سببت هذه المجادلات لسنوك حرجاً ، فبدأ يحاول جاهدا أن يقوي مركزه ويعمل على إزالة أية شبهة وشك حول إخلاصه للإسلام كأي مسلم . ولأجل ألا يبقى في نفوس المسلمين أدنىٰ شك فقد تزوج سنوك ابنة أحد القضاة ، ولما توفيت تزوج ابنة قاضٍ آخر ، وقد كانت العائلتان من نبلاء غرب جاوة . ولم يعرف أحد عن هذه الزيجات خارج اندونيسيا حتى وقت قريب[٢٣] . وكان سنوك نفسه قد احتفظ بهذه الزيجات سراً إلى حد أنه منع زوجته الثانية وأطفاله قبل سفره إلى هولندا النهائي من الكشف عن زواجه أو حتى التحدث عنه[٢٤] .

أما ما يتعلّق بالزيجات فإنني أود أن أعرض الحقائق الآتية عليكم : لقد أظهرت بعض المقالات في الصحافة الاستعمارية التي كانت تصدر في اندونيسيا أن سنوك قد تزوج ابنة قاضٍ جاوي في مدينة جامس في غرب جاوة طبقا للقواعد الشرعية الإسلامية . وقد سببت هذه التقارير انزعاجا واسعا بين الأوروبيين هناك، لأن القوانين الاستعمارية كانت لا تسمح للأوربي من الزواج إلا طبقا لقوانينها وما عدا ذلك فإن أي زواج للأوروبيين يعتبر غير قانوني . أما الزواج الذي يجري طبقا للشريعة الإسلامية فقد عدّته الإدارة الاستعمارية قانونياً للأندونيسيين فقط . أما زواج الأوروبي من أندونيسية مسلمة طبقاً للشريعة الإسلامية فقد كان غير قانوني وغير معترف به ، وهذا بالطبع ينسحب على الأطفال الذين ينجبهم هذا الأوروبي ، فإن القاضي كان يعتبرهم غير شرعيين .

ولما كان كثير من الأوروبيين يعيشون مع بعض النساء الأندونيسيات من الطبقات الدنيا معيشة السادة مع الجواري ، فإن أطفالهم كانوا يتساوون أمام القانون إذ ذاك مع الأطفال الذين ينجبهم الأوروبي المتزوج من امرأة اندونيسية كان قد تزوجها طبقا للشريعة الإسلامية .

ولهذا فإن سنوك عندما تزوج طبقا للشريعة الإسلامية كان على علم تام بأن زوجته المسلمة كانت في نظر القانون الاستعماري الهولندي جارية، وأن أطفاله سيكونون غير شرعيين لا حق لهم باستعمال اسمه أو حتى وراثته ، إلى غير ذلك من حقوق الأبناء الشرعيين .

لقد طلب وزير المستعمرات الهولندي توضيحا من الإدارة الاستعمارية في اندونيسيا حول هذه التقارير الصحفية ، وسأل في الوقت نفسه فيما إذا كان سنوك يمكن أن يحتفظ بمنصبه الرسمي لو كانت هذه التقارير صحيحة . وقد أنكر الحاكم العام هذه المعلومات قائلا : إن حقيقة الأمر لا يتعدىٰ أن قاضي جامس قد نظم احتفالا للزواج في المسجد لكي يتعلم سنوك عملياً طبيعة الترتيبات الشرعية للزواج في الإسلام وعادات أهل البلد في مثل هذا الاحتفال[٢٥] .

وقد جاء إنكار آخر من سنوك نفسه في رسالة لم تنشر بعد أرسلها لصديقه الهولندي اللاهوتي **بافنك** محفوظة في مكتبة الجامعة الحرة في امستردام قال فيها : «إن القاضي المقصودِ قد عيّن لي كاتبا قد كان تزوّج من أصغر بناته»[٢٦] .

السؤال : ماذا حدث حقيقة في جامس ؟ إن الوثائق لا تلقي ضوءا على هذا السؤال ، ولكن إشارات قليلة تظهر من بعض مذكرات رجال الإدارة الاستعمارية إذ ذاك والتي نُشِرت حديثا . وهذه الإشارات تُصَرِّح بأن سنوك قد تزوج زواجا إسلاميا بعض النساء الأندونيسيات ، ومن هذه المذكرات هناك كتاب يتحدث مؤلفه حول الاحتلال الياباني ، ويذكر عَرَضاً أنه تعرَّف على ابن لسنوك من زوجة اندونيسية مسلمة . وهذا الابن يُسمىٰ يوسف ، ويشتغل مع البوليس في بونتيانك إلا أن هذا الابن لم يعش إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية[٢٧] .

والواقع أن هذه المعلومات ليست صحيحة كلياً ، لأن يوسف ابن سنوك هذا قد عاش إلى ما بعد الحرب ، ولم يزل حيا حتى اليوم في مدينة باندونك ، وقد قابلته في باندونك في شهر ديسمبر سنة ١٩٨٢م وقد سمح لي بالتحدث معه وأخبرني بما يأتي :

«إن تقارير الجريدة الصادرة في سنة ١٨٩٠م كانت صحيحة ففي هذه السنة تزوج سنوك السيدة سانكانا ابنة رادن حاجي محمد طائب قاضي جامس الوحيدة ، ففي البداية رفض القاضي إعطاء ابنته لسنوك ، إلا أن زوجة الحاكم في جامس الأندونيسي التي كانت قريبة للقاضي نفسه تدخلت في الأمر وأجبرته على الرضوخ والموافقة على هذا الزواج ، لأن زوجها كان يتمتع بسلطة واسعة على القضاء والناس معا . وقد توفيت سنكانا في سنة ١٨٩٦م مخلفة وراءها

أربعة أطفال من سنوك ، فآلوا إلى رعاية زوجة حاكم جامس بحكم قرابتها منهم ، وأسماء هؤلاء الأطفال حسب أعمارهم : سلمى ايما ، عمر ، آمنة ، وإبراهيم»[٢٨] .

وفي أكثر من ألف رسالة رأيتها لسنوك لم تُنْشَر بعد فإنني لم أعثر على أي اعتراف واضح أو ضمني بهؤلاء الأطفال ، بل العجيب هو العكس تماما ، فإن سنوك حين كان له طفلان هما سلمىٰ ايما وعمر ، كتب رسالة في سنة ١٨٩٣م إلى المستشرق الألماني تيودور نولدكه في ستراسبورج ، قال فيها : «ولمّا لم يكن لي أطفال يسعدون شيخوختي فإنني لا آمل إطلاقا أن أصبح عجوزا»[٢٩] . ومن الناحية الأخرى فإن أرشيف سنوك في مكتبة جامعة لايدن يحتوي على عدة رسائل أرسلها له أطفاله من زواجه الأول بعد رحيله إلى هولندا ، بل إن بعض أجوبته لهؤلاء الأولاد لا تزال محفوظة عند إحدىٰ حفيداته في باندونك[٣٠] .

أما زواجه الثاني فقد عقده في باندونك في سنة ١٨٩٨م على ستي سعدية ابنة رادن حاجي محمد شعيب وهي في الثالثة عشرة من عمرها ، وقد كان هذا القاضي نائباً في القضاء في باندونك . وقد كانت لهذا القاضي علاقات نسب مع أربعة من القضاة في باندونك وكانت عائلته من العوائل النبيلة في غرب جاوة ، ومن هذا الزواج وُلِدَ يوسف في سنة ١٩٠٥م وهو الابن الحي الوحيد لسنوك .

والسؤال : ما هي الأهمية التاريخية لهذين الزواجين اللذين احتفظ سنوك بهما سرا ؟

أعتقد أن الإنسان يستطيع أن يخرج بنتيجة واضحة ، وهي أن سفرة سنوك إلى مكة وزواجه من هاتين العائلتين النبيلتين ثم كونه مستشرقاً أوروبيا وعالما مسلما في نظر المسلمين في الأقل قد هيّأ لنفسه بذلك مركزا مهما جدا في المجتمع الأندونيسي المسلم إضافة إلى مركز مماثل في الأهمية في المجتمع الأوروبي الحاكم في اندونيسيا ، وذلك لأن علاقاته المبنية على الثقة بين المسلمين التي اكتسبها من سفرته إلى مكة وزواجه كانت ذات فائدة قصوىٰ للإدارة الاستعمارية الهولندية ، ولعمله أيضا فيها كمستشار للشئون الإسلامية . ففي جدة رأيناه يوصي القنصلية الهولندية بتعيين رادن أبو بكر بوظيفة مخبر ، وفي هذه الوظيفة قدّم رادن أبو بكر معلومات حيوية ومهمة عن اللاجئين السياسيين الهاربين من جاوة إلى مكة[٣١] . وفي جاوة نفسها قام قريب لرادن أبو بكر واسمه رادن سوتادننكرات بتزويد سنوك بمعلومات موثوقة حول الثورات الإسلامية في غرب جاوة ضد الحكم الهولندي[٣٢] . أما حاجي حسن مصطفىٰ الذي قابله سنوك في مكة لأول مرة ، والذي أصبح كاتبا لسنوك في جاوة ، فقد عينته الإدارة الاستعمارية الهولندية قاضيا في إقليم آجيه بناء على توصية سنوك به ، وقد زوَّد هذا القاضي سنوك بمعلومات عسكرية مهمة حول الحرب في آجيه[٣٣] ، وبناء على توصية سنوك أيضا فقد عُيِّنَ هذا القاضي في باندونك ، حيث استفاد سنوك منه في ترتيب أمر زواجه الثاني . وحين شغر منصب القاضي في آجيه بنقل حاجي حسن مصطفى إلى باندونك ، أوصىٰ سنوك بتعيين رادن حاجي محمد رشدي الذي كان قريبا من والد زوجة سنوك الثانية ، وقد سبق لسنوك أن تعرَّف على حاجي رشدي بمكة أيضا .

في الحقيقة إنني لا أود أن أصنف لكم قائمة طويلة بهذه الشبكة أو الأخطبوط التي حاكها سنوك في اندونيسيا ، لأن غرضي الأول هنا يتركز على الإشارة إلى أن سفرة سنوك إلى مكة وزواجه الأول والثاني لم تكن عبثا ، لأن كل هذا قد هيأ له مركزا مهما جدا في المجتمع الأندونيسي المسلم وبخاصة الطبقة الدينية والإقطاعية الغنية في غرب جاوة مما لم يستطع أي أوروبي آخر الوصول إليه قبله أو بعده ، وهذه الحقيقة يجب ألا تغفلها أية دراسة جديدة لتاريخ الاستشراق في المستقبل .

ومع كل ما سبق قوله فإن سنوك كان هولنديا أوروبيا عمل في خدمة حكومته الاستعمارية ، فإنه يظهر من كتاب نصائحه ومن كتابه «هولندا والإسلام» أنه كان مؤمنا إيمانا عميقا بضم اندونيسيا ثقافيا وإداريا إلى هولندا ، وقد كان يؤمن أيضا أن هولندا واندونيسيا يجب أن يكونا امبراطورية واحدة ليس إداريا حسب بل وثقافيا أيضاً ، ولأجل الوصول إلى هذا الهدف فإنه رأى أن دور الدين الإسلامي يجب أن يكون ضعيفا حتى لا يمنع الانضمام التام ، ومن هنا فإنه قد اعترض بشدّة ضدّ تقنين الشريعة الإسلامية حين اعتبرت الإدارة الاستعمارية ذلك ، وكان اعتراضه منصبا ضد تطبيق الأحوال الشخصية ، لأنه كان يدعو إلى تبديل الشريعة الإسلامية بالقوانين الوضعية الأوروبية وقد كان يرى أنه لا محل للشريعة في اندونيسيا الجديدة ، ولأجل الوصول إلى تطبيق القوانين الأوروبية الوضعية فإنه كان يرى أن التعليم يجب أن يكون على النمط الأوروبي ، بل إنه كان يرى أيضاً أن كل حركة فكرية إسلامية تدعو إلى الوقوف ضد هولندا يجب أن يُقْضىٰ عليها بدون مسامحة .

جريدة الإرشادات

* محاضرة ألقاها المؤلف يوم الثلاثاء ١٤٠٥/٧/١٣هـ في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض .

(١) أستاذ مشارك في جامعة لايدن الحكومية (كلية العلوم الدينية ، قسم الديانات المقارنة) هولندا ، وعنوان المؤلف : الدكتور ب ، ش ، فان كوننكزفيلد ، جامعة ليدن ، ص ، ب ، ٩٥١٥ ، ليدن ، هولندا .

(Dr.P.SJ. van Koningsveld, P.O.Box 9515, 2300 RA-LEIDEN, The Netherlands).

(٢) قد جمع المستشرق الهولندي أ ، ي ، فنسنك مؤلفات سنوك هورخرونيه الصغيرة (مقالاته ومراجعاته لبعض الكتب الاستشراقية ورسالته للدكتوراه في الحج الخ) في ٧ أجزاء طُبِعَت في مدينتي بون ولايبزخ في سنة ١٩٢٣ ـــ ١٩٢٧م وعنوانها :

«Verspreide Geschriften van C.Snouck Hurgronje, voorzien van een bibliographie en registers door Dr. A.J.Wensinck». Bonn und Leipzig, 1923-1927,

أمّا أهمّ مؤلفات سنوك الكبيرة فهما : (١) كتابه عن مكة في جزأين ، لاهاي ١٨٨٨ ـــ ١٨٨٩م (باللغة الألمانية) وقد ترجم الجزء الثاني منه المتعلّق بالحياة الدينية والاجتماعية في مكّة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى اللغة الإنجليزية وطبع في ليدن سنة ١٩٣١م وعنوانه :

C.Snouck Hurgronje, «Mekka in the latter part of the 19th century» Leiden 1931.

(٢) «الآشيون» (كتاب مطبوع بأمر الحكومة) ، باتافيا/ليدن ١٨٩٣ ـــ ١٨٩٤م (باللغة الهولندية وعنوانه :

«De Atjèhers. Uitgegeven op last der Regeering». Batavia-Leiden 1893-1894, 2 vols.

(٣) قارن مقالة وليم روف : الصحة وحفظ الأمن ، الدول الامبريالية والحج في القرن التاسع عشر ، «دراسات متعلّقة بالجزيرة العربية» ، الجزء السادس ، ١٩٨٢م ص ١٤٣ ـــ ١٦٠ ، وعنوانها بالإنجليزية :

William R.Roff, Sanitation and security. The imperial powers and the nineteenth century Hajj. «Arabian Studies», Cambridge,vol.6.1982.143-180.

(٤) الأرشيف الوطني العام في لاهاي (هولندا) ، قسم وزارة الخارجية ، ملفّ رقم أ ٧٤ «الأحوال السياسية في الحجاز» ، صندوق ١٤٨ وخاصّة الرسائل المؤرّخة في ١٨٨٢/١٢/٢٨م ، ١٨٨٣/٦/١م ، ١٨٨٤/٥/٧م ، ١٨٨٤/٥/١٤م ، ١٨٨٤/٥/٢٩م ، ١٨٨٤/٦/٢٨م ، و ١٨٨٤/٧/٣م . وقارن أيضا مقالة الكاتب : «سنوك هورخرونيه كما كان» ، مجلة «الدليل» ، ١٤٣ ، ١٩٨٠م ، ص ٧٧١ ـــ ٧٧٣ (بالهولندية) وعنوانها :

Snouck Hurgronje zoals hij was, «De Gids», 143, 1980,771-3.

(٥) مكتبة جامعة ليدن ، مخطوطة شرقية رقم ٧١١٢ .

(٦) رسالة محفوظة في مكتبة جامعة ليدن ، مخطوطة شرقية رقم ١٨٠٩٧ ملفّ رقم ٣٢ ، وهي مؤرّخة في العشرين من شهر ذي القعدة سنة ١٣٠٢هـ ، نشرها قاسم السامرّائي في كتابه : «الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية» ، الرياض ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص ١١٥ .

(٧) انظر : «العلم والصداقة في الاستشراق المبكّر رسائل سنوك هورخرونيه إلى كولدزيهر المحفوظة في المجموعة الشرقية لمكتبة المجمع العلمي الهنغاري في بودابيست» حقّقها ب ش ، فان كوننكزفيلد ، ليدن ١٩٨٥م ، ص ٤٣ ـــ ٤٤ ، وعنوانه :

«Scholarship, and friendship in early Islamwissenschaft. The letters of C.Snouck Hurgronje to I.Goldziher from the Oriental Collection of the Library of the Hungarian Academy of Sciences, Budapest» published by P.Sj. van Koningsveld, Leiden 1985.

(٨) انظر : «الاستشراق والإسلام ، رسائل سنوك هورخرونيه إلى نولدكه المحفوظة في مكتبة جامعة توبنكن» ، حقّقها ب ، ش فان كوننكزفيلد ، ليدن ١٩٨٥م ، ص ٨ ـــ ١٠ ، وعنوانه :

«Orientalims and Islam. The letters of C.Snouck Hurgronje to Th. Noldeke from the Tubingen University Library», published by P.Sj. van Koningsveld, Leiden 1985.

(٩) رسالة مؤرخة في الثامن عشر من شهر فبراير سنة ١٨٨٦م ومحفوظة في مكتبة جامعة هايدلبرج ، أما رسائل سنوك هورخرونيه إلى بيزولد فسوف أنشرها في المستقبل القريب في سلسلة «عبد الغفّار ، مراجع لتاريخ الدراسات الإسلامية في العالم الغربي» تنشرها كلية العلوم الدينية في جامعة ليدن الحكومية ، وعنوان هذه السلسلة :

(«Abdoel-Ghaffaar. Sources for the History of Islamic Studies in the Western World»).

(١٠) مقالات حديثة في معرفة الإسلام ، «مجلّة تاريخ الديانات» ، الجزء الخامس والعشرون ، سنة ١٨٨٩م ، ص ٦٤ ـــ ٩٠ ، وعنوانها باللغة الفرنسية :

Contributions récentes à la connaissance de l'Islam. «Revue de l'Histoire des Religions», 25,1889,64-90.

وقد طُبِعَتْ هذه المقالة مرّة ثانية في الجزء السادس من مجموعة مؤلفات سنوك المذكورة أعلاه في حاشية رقم ٢ .

(١١) رسالة غير مؤرّخة من سنة ١٨٨٨م ، وهي مدرجة في الكتاب المذكور أعلاه في حاشية رقم ٧ ، ص ١٠١ ـــ ١٠٢ .

(١٢) انظر كتابي : «سنوك هورخرونيه المسمّى بعبد الغفّار ، بعض الملاحظات التاريخية والنقدية» ، ليدن ١٩٨٢م ، ص ١١ ـــ ١٤ ، أمّا تعاليق الرادن أبي بكر الجاوي فهي محفوظة (باللغة العربية) في مكتبة جامعة ليدن ، مخطوطة شرقية رقم ٧١١١ ، وانظر أيضا حاشية رقم ٣١ أدناه .

(١٣) أعني : «فهرست المخطوطات العربية والتي تملكها دار بريل في ليدن» ، ليدن ١٨٨٣م باللغة الفرنسية (لكارلو لاندبرج) ، وعنوانها :

C.Landberg, Catalogue des manuscrits arabes, provenant d'une bibliotheque privée à El-Medîna et appartenant à la maison, E.J.Brill. Leiden 1883.

واعتمد «المؤلف» في هذا الفهرس على تأليف نادر يكاد يكون مجهولا ، وهو : «فهرست الكتب الخط القلم العربي المعروضة للبيع في الاكسبسيون المصري في امستردام مملكة الهولندا (كذا) سنة ١٨٨٣»

وهو مطبوع على الحجر بخط العالم المدني أمين الحلواني ، ولم يُذكر هذا الفهرست النادر في مقالة عاصم حمدان : «المخطوطات العربية في مكتبة بريل بمدينة ليدن ، بحث في العلاقات العلمية بين العالمين أمين حسن الحلواني ومحمود التركزي الشنقيطي والمستشرق السويدي كارلولاندبرج» ، الطالب ، مجلة طلابية يصدرها صندوق الطلاب السعودي في بريطانيا ، محرم ١٤٠٦هـ/اكتوبر ١٩٨٥م ، ص ــ ٢٩ ــ ٣٨ .

(١٤) مثل مخطوطة شرقية ٨١٥١ في مكتبة جامعة ليدن (فتوى لمحمد بن سليمان بن حسب الله الشافعي المكّي المتوفّى سنة ١٣٢٥هـ/١٩١٧م) وعندي في مكتبتي الخاصّة نسخة مصوّرة من فتوىً غير منشورة وتتعلق بحرب الآشيين ضدّ هولندا ، كتبها أبو بكر العطّاس مفتي مدينة جهور (في ماليزيا المعاصرة) في سنة ١٣١٢هـ/١٨٩٤م تقريبا بعنوان : «رسالة التسليم والقتال والردّ على من أفتىٰ بغير استدلال» .

(١٥) راجع ك . فان درماتن : «سنوك هورخرونيه والحرب في آجيه» ، ليدن ١٩٤٨م ، الجزء الثاني ص ١٠٠ (باللغة الهولندية وعنوانه :)

K.van der Maaten, «Snouck Hurgronje en de Atjeh-Oorlog», Leiden 1948, 2 vols.

(١٦) «الاستشارات الرسمية لسنوك هورخرونيه ، ١٨٨٩ ــ ١٩٣٦م» نشرها أ . خوبي وس . آدريانسه ، لاهاي ١٩٥٧ ــ ١٩٦٥م ، ٣ أجزاء (بالهولندية) وعنوان الكتاب :

«Ambtelijke Adviezen van C.Snouck Hurgronje, 1889-1936». Uitgegeven door E.Gobée en C.Adriaanse. 's-Gravenhage, 1957-1965, 3 vols.

(١٧) وثائق مختلفة ومحتوية على هذه الألقاب الشرفية محفوظة في مكتبة جامعة ليدن «مخطوطة شرقية رقم ١٨٠٩٧ ، ملفّ رقم ١ ، ومخطوطة شرقية رقم ٧١١١» .

(١٨) حول شخصية وحياة حاجي حسن مصطفى راجع الاستشارات المذكورة أعلاه (تحت حاشية رقم ١٦) ، الجزء الأول ص ١٨٠ ، وانظر أيضا كتاب الدكتور خ . ف . بايبر : «دراسات في تاريخ الإسلام في اندونيسيا ، ١٩٠٠ ــ ١٩٥٠م» ، ليدن ١٩٧٧ (باللغة الهولندية) عنوانه :

G.F.Pijper, «Studien over de geschiedenis van de islam in Indonesie, 1900-1950». Leiden 1977.

(١٩) راجع : «الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية» تأليف الدكتور قاسم السامرّائي ، الرياض ، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص ١٤٤ ــ ١٤٧ .

(٢٠) مذكرة سرّية موجّهة إلى الحاكم العامّ في مدينة باتافيا (جاكارتا المعاصرة) ومؤرّخة في ١٨٨٩/٦/١٩م وهي محفوظة في الأرشيف الوطني في جاكارتا ، قسم التعليم والعبادة والصناعة تحت رقم ٦٠١ ــ ٢٠/٦ ، ويوجد في آخرها ملحق مسمّىً بـ «مسودّة رسالة مدير التعليم والعبادة والصناعة التي ستوجّه إلى رؤساء إدارة الأقاليم كلّما ابتدأ الدكتور سنوك ببحثه في إقليم من الأقاليم» .

(٢١) مقالة بدون توقيع في جريدة «القاطرة» الصادرة في ١٨٨٩/٩/٢١م ، أما جريدة «القاطرة» فهي جريدة استعمارية هولندية اسمها (De Locomotief) نُشِرَتْ في مدينة سمارانج في وسط جزيرة جاوة .

(٢٢) جريدة «القاطرة» بتاريخ ١٨٨٩/١٠/١٢م ، مقالة بقلم رئيس التحرير ب . بروسهوفت ومسمّاة بـ «مهمّة شريفة» (يعني مهمّة سنوك في اندونيسيا) ، وعنوانها في الهولندية :

P.Brooshooft, «Een eerlijke zending».

(٢٣) إلّا أنّ بعض موظفي الإدارة الاستعمارية في اندونيسيا وهولندا كانوا على علم تامّ بهذه الزيجة ، ولكنهم كانوا يكتمون سرّها اقتداء بسنوك نفسه ، وهذا كان أيضاً شأن المستشرقين الهولنديين الذين شغلوا وظيفة المستشار في كلّ ما كان يتعلّق بالإسلام في اندونيسيا بعد رجوع سنوك إلى هولندا في سنة ١٩٠٦م ، فالدكتور بايبر مثلا لم يذكر شيئا عن سلوك سنوك هورخرونيه كمسلم في واحدة من مؤلّفاته العديدة التى أعرب فيها عن رأيه في أهمّية أستاذه سنوك لتاريخ الاستشراق بصورة عامة والسياسة الاستعمارية الهولندية بصورة خاصة ، راجع مثلا كتاب بايبر : «الإسلام وهولندا» ، ليدن ١٩٥٧م (باللغة الانجليزية وعنوانه :)

G.F.Pijper, «Islam and The Netherlands» Leiden 1957.

(٢٤) كما أخبرني يوسف بن سنوك في مدينة باندونك (في غرب جزيرة جاوة) في ١٩٨٢/١٢/٢٠م ، وقارن حاشية رقم ٢٨ أدناه .

(٢٥) الأرشيف الوطني العام في لاهاي ، وزارة المستعمرات ، ١٨٥٠ ــ ١٩٠٠م ، فهرست رقم : «6195 C 4 - M 7» ، وثيقة رقم ل ٤ .

(٢٦) رسالة مؤرّخة في ١٦ يونيو سنة ١٨٩٠م .

(٢٧) «الشمس الحمراء فوق جزيرة بورنيو» تأليف س . فان هيكرن ، لاهاي ١٩٦٨م ص ١٠٤ (باللغة الهولندية) وعنوانه :

C.van Heeckeren, «Rode zon boven Borneo». Den Haag 1968.

وراجع أيضاً : د. فان در مولن : «ألا تسمع الرعد ؟» ، ليدن ١٩٨١م ص ٧٥ (بالإنجليزية) وعنوانه :

D.van der Meulen, «Don't you hear the thunder? Leiden 1981.

(٢٨) قد نَشَرْتُ تقريرا عن هذه المحادثة مع السيد يوسف بن سنوك في الجريدة الهولندية المسمّاة («Trouw») في الخامس من شهر فبراير سنة ١٩٨٣م ، وقد تُرْجِمَتْ هذه المقالة إلى اللغة الأندونيسية ، ثم نُشِرَتْ في جريدة «كومباس» في ١٩٨٣/٢/٦م وراجع الآن أيضا كتابي المسمّى بـ «سنوك هورخرونيه وإظهاره للإسلام ، حول ناحية مهملة من التاريخ الاستعماري» ، ليدن ١٩٨٥م ص ٣٧ ــ ٣٨ ، (باللغة الهولندية) وعنوانه :

Snouck Hurgronje's «Izhaar oel-Islaam. Een veronachtzaamd aspect van de Koloniale geschiedenis. Leiden 1985, pp. 37-8.

(٢٩) رسالة مؤرخة في ١٨٩٣/٢/١٠م ومنشورة في ص ٣٣ من تحقيقي لرسائل سنوك إلى نولدكه المذكور في حاشية رقم ٨ أعلاه .

(٣٠) مكتبة جامعة ليدن، مخطوطة شرقية رقم ٨٩٥٢ (تحت اسمي «لاسميتاكوسوما» «Lasmitakusuma» و «خرنيدا» : «Garnida» ،

أما رسائل سنوك إلى أولاده الاندونيسيين فبعضها لم يزل موجودا عند السيدة توني سوبراتا (وهي حفيدة لسنوك في مدينة باندونك — اندونيسيا) .

(٣١) الأرشيف الوطني العام ، وزارة الخارجية ، ملف أ ٧٤ ، صندوق ١٤٨ (الأحوال السياسية في الحجاز) ، وثيقة مؤرخة في ١٨٩١/١١/٢٥م ، وراجع أيضاً الوثيقة المؤرّخة في ١٨٩٨/٤/٥م في الصندوق نفسه ، وانظر أيضاً ل .ي . خراف : «سنوك هورخرونيه ومنتقدوه ، مجلة الدليل سنة ١٩٨١م ، ص ٣٢٩ — ٣٣٠ (بالهولندية) وعنوان هذه المقالة :

L.I.Graf, Snouck Hurgronje en zijn critici. «De Gids», 1981,pp. 329-330.

(٣٢) أكثرية هذه الأخبار مكتوبة باللغة الملاوية وهي محفوظة في مكتبة جامعة ليدن في مخطوطة شرقية رقم ٧٩٣٦ .

(٣٣) رسائله العربية التي بعث بها إلى سنوك من إقليم آجيه محفوظة في مكتبة جامعة ليدن (مخطوطة شرقية رقم ١٨٠٩٧ ، ملفّ رقم ١٦) .



المكتبة العامة بمكة المكرمة

عبد اللطيف بن دهيش
أستاذ مشارك في قسم التاريخ
جامعة أم القرى

هي إحدى المكتبات العامة التي أسستها الدولة في مكة المكرمة ، وتتبع هذه المكتبة وزارة المعارف ، وتشرف عليها إدارة التعليم بمكة المكرمة . وكان تأسيسها في عام ١٣٩٧هـ الموافق ١٩٧٧م ، وقد كانت نواة هذه المكتبة ، قد بدأت في غرفة صغيرة في مبنى بيت الطالب قبل تاريخ إعلان تأسيسها بعدة أعوام ، ثم نقلت في ذلك العام إلى مبنى مستأجر بجوار إدارة التعليم بحي الزاهر بمكة المكرمة ، وأطلق عليها منذ ذلك التاريخ المكتبة العامة بمكة. وقد كانت وزارة المعارف قد قررت فتح مكتبات عامة في جميع المدن الكبرى في المملكة حتى تساهم في رفع عجلة البحث العلمي ، ولتكون هذه المكتبات منهلا من مناهل العلم والمعرفة يستفيد منها الأساتذة والطلاب في أبحاثهم ودراساتهم التي أصبحت جزءا من المنهج الدراسي في جميع مدارس الدولة ، وليستفيد منها بقية أفراد المجتمع من الباحثين والقراء في تلك المدن . ولذلك أخذت وزارة المعارف في تزويد هذه المكتبة بكميات كبيرة من الكتب والدوريات في مختلف التخصصات ، حتى أصبح مبنى المكتبة لا يستوعب كمية الكتب الواردة إليه وكإجراء مؤقت قامت إدارة التعليم بمكة بنقل هذه المكتبة من المبنى المستأجر إلى جزء من المبنى الجديد لبيت الطالب بالقرب من مجمع المدارس بالشارع العام ، وذلك في منتصف عام ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

ويتكون المبنى المؤقت للمكتبة من ثلاث قاعات كبيرة خصصت إحداها للإدارة وحفظ الكتب النادرة والصحف والمجلات ذات الإصدارات القديمة ، والقاعة الأخرى لكتب الأطفال وتقع في مدخل المبنى ، أما القاعة الثالثة فهي أكبر القاعات ، وقد خصصت لحفظ الكتب العامة في مختلف التخصصات ، وزودت بطاولات للقراء بكراسيها حتى يستفيد منها الأساتذة والطلاب والباحثون.

وتحتوي المكتبة في الوقت الحاضر على أكثر من خمسة عشر ألف مجلد ، وتشمل جميع المعارف وأهمها العلوم الإسلامية من تفسير وحديث وفقه وتوحيد ، وعلوم اللغة العربية وآدابها والتراجم والتاريخ والجغرافيا والعلوم التطبيقية والعلوم البحتة .

ومعظم كتب المكتبة مفهرسة ومصنفة حسب تصنيف ديوي العشري . وحيث إن المكتبة مكتبة عامة يرتادها القراء من مختلف الأعمار لذلك خصصت بها قاعة لتكون مكتبة للأطفال يرتادها طلاب المدارس الابتدائية من سن السادسة فما فوق ، وتحتوي هذه القاعة على مجموعة ممتازة من كتب الأطفال . كما يوجد بالمكتبة مجموعة من الصحف المحلية اليومية والمجلات المحلية والعالمية .

والكتب العامة منظمة وموضوعة في دواليب مفتوحة حتى يسهل تناولها ، وقد رتبت حسب الفنون وحسب تقسيمات ديوي العشري . ومعظم الكتب في هذه المكتبة غير مجلدة . ويتم تزويد المكتبة بالكتب والدوريات وكتب الأطفال عن طريق الإدارة ــ العامة للمكتبات بوزارة المعارف . كما تستقبل المكتبة الكتب المهداة لها من المواطنين والمؤسسات الحكومية التعليمية منها وغير التعليمية . وعند ورود الكتب يتم فحصها وتسجيلها في سجلات خاصة ، وتختم بختم المكتبة وتأخذ رقما خاصا حتى يسهل الاستدلال عليها وعلى موردها .

والإعارة بالمكتبة مسموحة ولكن على نطاق ضيق جدا للمواطنين ، أما أساتذة وطلاب المدارس فإنه مسموح لهم الإعارة حسب القواعد والأنظمة المتبعة في مثل هذه المكتبات .

وتفتح المكتبة أبوابها في الوقت الحاضر خلال الدوام الرسمي فقط . وقد كانت تفتح لفترة مسائية من الساعة الرابعة عصرا وحتى الساعة التاسعة والنصف ليلا ، وذلك طوال العام الدراسي ، ويبلغ عدد رواد المكتبة اليومي حوالي خمسة من الأساتذة الباحثين ، وحوالي ثلاثين إلى أربعين طالبا من مختلف التخصصات والمراحل الدراسية دون الجامعة .

وقد تولى إدارة هذه المكتبة منذ تأسيسها في عام ١٣٩٧هـ كل من الأساتذة :

غازي حسن آشي ١٣٩٧ ــ ١٣٩٨هـ
فتحي محمد نور فلمبان ١٣٩٨ ــ ١٣٩٩هـ
محمود أحمد حريري ١٣٩٩ ــ

وبجانب هؤلاء كان يعمل بالمكتبة عدد من الموظفين .

وتضم المكتبة في الوقت الحاضر بجانب مديرها محمد أحمد حريري موظفاً آخر هو غازي حسن آشي ، ومستخدما واحدا فقط .

وقد أوضح مدير المكتبة الحالي أن وزارة المعارف لديها الكثير لهذه المكتبة ، التي لا يساعد وضعها الحالي على الاتساع وتزويد المكتبة بكل جديد في عالم المعرفة ، ولذلك قررت الوزارة في عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م إنشاء مبنى جديد للمكتبة العامة بمكة المكرمة على جزء كبير من أرض إدارة التعليم سابقا بحي الزاهر . وهو مبنى من فئة مباني المكتبات ذات الحجم المتوسط ، كما يرمز إلى ذلك من مناقصات الوزارة .

وقد صمم المبنى على أحدث أساليب التصميم لمباني المكتبات العالمية ، وتم تجهيزه بأحدث الأثاث المكتبي من دواليب لحفظ الكتب ومقاعد وطاولات قراءة لرواد المكتبة من الأساتذة والطلاب ومقصورات خاصة للباحثين ، وإدراج فهارس ودواليب عرض الكتب وحاملات الصحف والدوريات ونحو ذلك ، كما أن الإضاءة في القاعات كافية ووضعت بطريقة فنية تريح القراء .

ويتكون مبنى المكتبة الجديد من ثلاثة طوابق ونصف الطابق ، وفي كل طابق قاعات واسعة خصصت لعرض الكتب ، وغرف خاصة بالموظفين المسئولين عن إدارة المكتبة وتسجيل وفهرسة وتصنيف الكتب . كما أن الطابق الأرضي يحتوي على قاعة عامة للمحاضرات وعقد اللقاءات والندوات العامة والخاصة . ويحتوي المبنى أيضا على طابق أرضي واسع خصص كمستودع عام وورش للتجليد والتصوير العلمي . وكذلك أضيف إلى هذا المبنى ملاحق للحراسة والمراقبة ليلا ونهارا . ومن المقرر أن ينتهي العمل من هذا المبنى الجديد للمكتبة خلال النصف الأول من عام ١٤٠٦هـ . ويتم بعد ذلك انتقال المكتبة من مقرها المؤقت إلى المبنى الجديد ، وعندئذ ستقوم الوزارة بإرسال ما لديها من كتب وموسوعات ومعاجم ودوريات وكتب الأطفال ونحو ذلك لتدعيم مقتنيات هذه المكتبة ، وحتى تؤدي دورها العلمي خدمة للعلم وطلابه في هذه المدينة المقدسة . كما أن عدد موظفي المكتبة سيزداد تدريجيا حسب احتياجات المبنى الجديد .(١)

---

١ — زيارة خاصة لهذه المكتبة والاطلاع على محتوياتها . ومقابلة مع مديرها الحالي الأستاذ محمود أحمد حريري في رمضان عام ١٤٠٥هـ .

ترويج كتب الأطفال

محمد بسام ملص

«أمة لا تقرأ» . في أكثر من موقف وُجهت هذه التهمة في وقتنا الحالي إلى الأمة التي أكرمها الله بالإسلام ، فكانت خير أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

إن الواقع الذي نعيشه يستطيع أن يكون مؤشراً إلى جزء من هذا الاتهام . فالكتاب عند هذه الأمة لا يلقى الاهتمام الكافي الآن . وما نقصد بهذا هو الكتاب الذي يُقرأ باستمتاع ورغبة وحب ، لا الكتاب الذي يقرأ للدراسة . هي القراءة الترويحية التطوعية التي تترك أثرها الكبير في شخصية الطفل ، لأنها تقوده بسهولة إلى ما يجب أن يقرأ في الجانب التعليمي .

عدم الاهتمام بالمطالعة معناه فقدان لذة الاستمتاع بالقراءة . إننا لا نستطيع أن نتجاهل حقائق نعيشها ونتألم لها ، وقد نحاول فرادى أن نغير جوانب عدة منها ، نحن المهتمين بالمطالعة كنشاط إنساني له دوره في بناء هذه الأمة ، مثلما كان له دوره الطليعي في بناء أجدادها الصالحين .

لا ننكر إعراض الكثيرين عن الكتاب . ولا ننكر أن أنشطة التسلية الأخرى قد أخذت مكانها عند الناس . فقد نرى الأطفال والفتيان والشباب وحتى الرجال يتابعون نشاطا رياضيا بكل حماسة . فيتردد على أفواههم «أبطال» ذلك النشاط وتزين صورهم غرف العديدين منهم . في حين أصبح الكتاب مهجورا . وقليلا ما نجد مكتبات خاصة في البيوت . وحتى إذا ما وجدت كتب فإنها أشبه ما تكون جزءا من الأثاث للناحية الجمالية وربما للمباهاة .

هذه ليست صورة قاتمة ، بل هي جانب من الواقع الذي نعيش . إننا نحن المسؤولون عن غرس حب الكتاب عند الأطفال ، لسنا تجار ثقافة ، نقيس الربح والخسارة لنترك الثقافة إذا ما أخفقت صفقة ما . نحن حملة رسالة : على أكتافنا تقع مسئولية تربية هذا النشء . فالأجيال الناشئة تسأل عما قدمنا لها ، والله يسألنا عما قدمناه .

إن اهتمام الأجيال الناشئة بالكتاب مسؤولية . هي مسؤولية الأب والأم والأخوة والأخوات الكبار في البيت . وهي مسؤولية كل من يتعامل مع الأطفال وثقافتهم ، وخاصة كتبهم ، المعلمات والمعلمون وأمينات وأمناء المكتبات والمشرفات والمشرفون على المراكز والمؤسسات الثقافية والاجتماعية التي ترعى ثقافة الأطفال .

فماذا نفعل لترويج كتب الأطفال؟ تكون البداية دائما في البيت . فالبيت هو اللبنة الأساسية للتأسيس . وفي البيت تكون القدوة ، فالقدوة في التربية هي من أسس التربية . يرى الطفل الصغير (في مرحلة ما قبل المدرسة) أمه وأباه يهتمان بالكتاب فيقدمانه له ، ويشاركانه النظر إليه وقراءته ، ويخصصان وقتا لقراءة كتب لهما . فنجد الطفل نفسه في اتساق وانسجام . كيف لا وهما يجسدان المثل الأعلى والقدوة . إنهما ، وخاصة الأم ، الأكثر تأثيرا في الطفل في تلك المرحلة المهمة في تكوينه .

واجب الوالدين في أن يهتم الطفل بالكتاب واجب يرتبط بواجبات الأم في العناية بصحة طفلها ونشاطاته الترويحية ، وغيرها من الأمور الأساسية في تنشئته .

واجب الوالدين هو إنشاء مكتبة خاصة في البيت ، مع تخصيص قسم من هذه المكتبة للطفل ، ليبدأ اهتمامه بالكتاب ويتفاعل معه ، يشجع البيت الطفل على شراء الكتب بين وقت وآخر ، مع توفير مبلغ من مصروف الطفل لشراء الكتاب الجيد . هذه عادة سليمة إذا ما نشأ عليها الطفل ، ينشأ محبا للكتاب ، وبالتالي تكون عنده الدوافع ليخوض مجال العلم ، وما أحوج هذه الأمة في كل الأزمان إلى أجيال تكرّس وقتها للعلم النافع لصالح أمتها !

يصطحب الوالدان الطفل في زيارات مختلفة إلى مكتبات الأطفال ومعارض الكتب وحتى المكتبات التجارية وأية نشاطات يكون فيها الكتاب مركز اهتمام . فهذا من شأنه أيضا أن يغرس حب الكتاب عند الطفل ، لأن الممارسات السليمة على هذا النحو تصبح عادات سليمة يمارسها الطفل لتغدو جزءا أساسيا من حياته .

لا بد للوالدين أن يعتنيا عناية شديدة باختيار الكتاب الجيد ، مع اعتبار الشكل والمضمون، وإن كان الشكل ، كالرسومات والإخراج ، في هذه المرحلة المبكرة يستحوذ على النصيب الأوفر من الكتاب ، إن لم يكن هو الكتاب كله . فالرسومات في هذه المرحلة تلعب دورها الفعّال في تعرّف الطفل إلى العالم من حوله ، كما أنها تساهم في تنمية ذوقه .

الكتاب الجيد الذي يقدمه كل ناشر يحترم نفسه هو الكتاب الذي تتمتع رسوماته بمستوى عال من الجودة ويمتاز إخراجه بالإتقان . لقد قطع كتاب الأطفال شوطا كبيرا في مجال الرسومات . فظهر نتيجة لذلك فنانون استطاعوا أن يعبروا عن عالم الطفولة بالريشة ، لتصبح أعمالهم في كتب الأطفال متفردة في مجالها . لقد رفعت رسومات فنانين كرسوا جهودهم للطفولة كتابَ الأطفال إلى المستوى الذي يجب أن يكون عليه ، بعد أن كان مجرد نص ورسومات تفتقر إلى أبسط قواعد الفن الموجه للأطفال .

وقد ترافق الرسومات كلمات قليلة تتناسب وإدراك الطفل اللغوي وتدرجه نحو استيعاب اللغة . وهذه أيضا لا بد أن تراعى عند اختيار الكتاب ، فلكل طفل تجاربه وقدراته واستعداداته واستيعابه .

لا نريد أن نحمّل الوالدين ما لا طاقة لهما به ، بسبب تفاوت الفروق الاجتماعية والثقافية ، فلا نتوقع ، على سبيل المثال ، أن تقوم الأم الريفية بالاهتمام بكتاب طفلها ، وهي التي قد تكون أمية . إننا إزاء هذا الواقع نتوقع أن تقوم المؤسسات بهذا الدور لتساعد الأم والأب في أي مكان . إنها أمه ، والراعي مسؤول عن رعيته .

قد يبدو الأمر غريبا أو مبالغا فيه لو طرحنا رأي مهتم في مجال كتب الأطفال وقراءتهم ، يعتبر أن الجنين في رحم أمه يتجاوب مع الكلمة تجاوبا جيدا . فلا بد للأم الحامل أن تقرأ لجنينها حتى تغرس عنده حب الكلمة والكتاب . الأمر يبدو غريبا ، ولكننا نطالب أن يهتم الوالدان بالطفل أكثر مما هو واقع في عالمنا العربي .

الأم هي المسؤولة مباشرة عن طفلها في البيت. فلا تظن أنها تضيع الوقت وهي تتابع مع الطفل كتابا أثار اهتمامه . يجب ألا تصاب بالملل لأن طفلها قد أحب كتابا بعينه ، فطلب منها أن تقرأه له مرات ومرات ، قد تتجاوز المئات . فالطفل في كتاب ما ، استطاع مؤلفه ورسامه أن يدخلا عالم الطفولة ببساطة ، يرى نفسه وتجاربه والعالم الصغير المحيط به . فلا بد للأم أن تبتكر شيئاً في كل مرة تقرأ الكتاب مع طفلها . إن اهتمام الأم بطفلها يجب أن يأخذ مكان الأولوية . فالأم بدل أن تتابع أحدث خطوط الموضة ، وبدل أن تضيع ساعات مع جاراتها وعند المزينات والمزينين للعناية الزائدة بالمظهر ، وبدل أن تترك طفلها بين أيدي «مربيات» أجنبيات دخيلات على أمتنا ، بدل كل هذا عليها أن تمضي وقتها مع طفلها تمنحه حبها وحنانها واهتمامها ، ولها أجرها عند ربها ، فهي تساهم في بناء رجل المستقبل ، وما أعظم هذا البناء !

تلك هي بعض الخطوات التي يمكن للبيت أن يقوم بها في مجال ترويج كتاب الطفل . لن يجد البيت أن الأمر صعب ، فالخطوة الصحيحة الأولى تتبعها خطوات ، مع ضرورة التركيز على تحلي البيت بالصبر في التعامل مع الطفل . وما دامت النوايا صادقة فالحق عز وجل سييسر الأمور .

إذا كانت البداية سليمة ، فإن الطفل سيخطو خطواته الأولى الصحيحة نحو التعليم والتعلم . تؤكد آن ايرفنج أنه مهما تطورت التقنيات في العالم ، فإن التعلم في المدرسة يعتمد على القدرة على القراءة . فالقراءة هي الوسيلة الأولية للوصول إلى المعلومات خلال مرحلة المدرسة .[1]

المهتم بأدب الأطفال وكتبهم ، والمتابع لما تقدمه الدول الكثيرة المهتمة بأطفالها ، يشعر بالضيق ويسأل ، مَن لأطفال هذه الأمة ؟ مَن يرعاهم ويهتم بهم على جميع الأصعدة ، وخاصة على صعيد الكتاب الذي نحن بصدده ؟

أقدم مثلا حيا من عام ١٩٨٦م يوضح إلى أي حد تستطيع المؤسسات المتخصصة أن تهتم بالطفل وكتابه . الاهتمام جاء من جامعة اكسفورد في بريطانيا . الجامعة مؤسسة أكاديمية بحتة تمكنت خلال عقود كثيرة (تأسست في القرن ١٣ ميلادي)[2] من نشر آلاف المطبوعات الجادة. اهتمت هذه الجامعة بأدب الأطفال اهتماما لا يقل عن اهتمام جامعة أخرى مشابهة في البلد نفسه هي جامعة كمبريدج (تأسست هي الأخرى في القرن ١٣ ميلادي)[3] . لقد طرحت جامعة اكسفورد نشرة تعلن فيها عن برنامج للقراءة بالتعاون مع البيت والمدرسة والمكتبات . أطلقت الجامعة على برنامجها اسم «شجرة اكسفورد للقراءة» «Oxford Reading Tree» .

البرنامج ، كما تشير النشرة[4] ، هو برنامج قراءة جديد يثير الاهتمام لأطفال من الخامسة إلى السابعة . يقدم البرنامج اتجاه لغة متكاملة ليتعلم الطفل القراءة . قام معلمون باختباره بحماسة كبيرة في أرجاء بريطانيا . تشير النشرة إلى أن البرنامج يؤمن نجاحا مضمونا للأطفال لأنه يمتلك المزايا التالية :

١ — قراءة للمعنى . تساعد الرسومات في فهم النص ، كما أن الكلمات الجديدة يمكن أن تفهم بسهولة لأنها تقدم في النص دائما .

٢ — نماذج لغوية طبيعية ، تبتعد عن النص المتصنع المتكلف .

٣ — كلمات مفتاحية تتكرر ليتمكن الطفل من استيعابها .

٤ — قصص ممتعة .

٥ — رسومات ممتازة ، فالرسومات ملونة ومرحة سيحبها الأطفال . إنها تتفاعل مع النص لتوصيل المعنى .

٦ — مضمون حديث مرتبط بحياة الطفل . فالطفل يمكنه أن يعيش مع الشخصيات والأحداث .

توضح الشجرة التي تشكل أساس هذا البرنامج الأطوار التي تنمو فيها قراءة الطفل ، فهي تتكون من ٣ أطوار : للطور الأول ٥ مراحل (١ — ٥) تناسب الأطفال من ٥ — ٦ سنوات، للطور الثاني ٥ مراحل (٦ — ١١) تناسب الأطفال من ٦ — ٧ سنوات، أما الطور الثالث فيضم مواد أخرى للطور الثاني(٥) .

خصص البرنامج ١٩ مكانا موزعا في أنحاء بريطانيا . هي أمكنة ينطلق منها المشرفون على هذا البرنامج لزيارات المدارس بناء على رغبة المدارس . تكمن هذه الزيارات في أن يعرض المشرفون جانبا من هذا البرنامج تطبيقيا .

لا يكتفي البرنامج بدعوة المدارس ، بل يدعو الآباء في بطاقة خاصة مرافقة للنشرة إلى المشاركة ، فللوالدين دور مهم يقومان به . إن سرد القصة والتحدث عنها يساعد الطفل على تعلم القراءة . هذا لا يستغرق أكثر من ١٥ دقيقة في الأسبوع . فلا بد من تخصيص وقت هادىء يجلس فيه الوالدان مع الطفل ويشاركانه الاستمتاع بالقصة . ثم ترشد البطاقة الوالدين إلى خطوات عملية للتعامل مع الكتاب .

لا ننسى في هذا المجال الظروف الاقتصادية الصعبة التي يمر بها العالم ، مما يجعل هذه الخطوة تبدو كأنها ترف . إلا أن اهتمام الجامعة باللغة الانجليزية وحرصها على تعليم الطفل ووضع الكتاب الجيد بين يديه مؤشر كبير إلى إخلاصها . ولا ننسى أيضا أن الجهة المشرفة على هذا البرنامج جامعة ، وليست مؤسسة حكومية تلقى الدعم المادي الكامل من الدولة .

أين هي المؤسسات في عالمنا العربي التي تقوم بما تقوم به المؤسسات في الدول الأخرى ؟ ما هو نشاط دور النشر العامة والخاصة ؟ أين هي الجامعات التي ترعى برامج طموحة تهتم بقراءة الطفل وكتبه على أسس تراعي متطلبات الطفل اللغوية في القراءة والاستيعاب ، كما تهتم بشكل الكتاب؟

ماذا أعد الناشرون في عالمنا العربي لترويج كتب الأطفال حتى تصبح في متناول كل طفل ؟ إن نشر كتب الأطفال يحتاج إلى كثير من الجهد والوقت والمال . فكتاب الأطفال ثقافة وفن وتجارة . قد لا نستطيع أن نغفل الجانب الاقتصادي الذي يؤدي دوره الأساسي في استمرار إنتاج الناشر . فإذا ما استمرت الخسارة فإن هذا مؤشر إلى توقف دار النشر ، إن لم ينهض بها لإنقاذها . لن نتناول هنا دعم الدولة للناشرين لأن هذا موضوع يتطلب دراسة لا مجال لها هنا . ولكننا فقط نؤكد أن الناشر وقد اختار أن يدخل مجال نشر الكتب ، عليه أن يراعي المعايير الجيدة إذا ما أقدم على نشر كتب الأطفال . وهي معايير تتصل بالشكل والمضمون . لهذا كان نشر كتب الأطفال أمرا أصعب من نشر كتب الكبار . ليس هذا فقط ، بل على الناشر أن يهتم أيضا بترويج الكتاب .

أشير في هذا المجال إلى تجربتين ، واحدة في عالمنا العربي، والأخرى في دولة شقيقة ، توضحان اهتمام دار النشر في ترويج كتاب الطفل .

يحدثنا المدير التنفيذي عن تجربة «دار الفتى العربي» في لبنان : «قمنا منذ أربع سنوات بتنفيذ مشروع أطلقنا عليه اسم «الكتاب لكل طفل» نأخذ بواسطته اشتراكات من أي إنسان قادر على ذلك في أي بلد عربي ، وحسب أي مبلغ يحدده هو ، ونقوم نحن بإرسال مجموعة كتب الأطفال إلى الجهة التي يحددها هو ، لأطفال أصدقائه أو أقربائه أو المحتاجين والفقراء ، أو نحدد نحن بالنيابة عنه إذا شاء من خلال قائمة لدينا تتضمن أغلب المؤسسات والجمعيات الخيرية في الوطن العربي»(٦) ولا نعرف ما هو مصير هذا البرنامج بعد أن أسس عام ١٩٧٩م .

التجربة الأخرى من الباكستان الشقيق للناشر دارول أنشا في البنجاب . فقد عمد هذا الناشر إلى تجربة أسماها «مكتبة بيازة» يقوم الأطفال من خلالها بتوفير بيازة واحدة كل يوم ، ثم يرسلون ما يوفرونه إلى الناشر كل شهر ، وبالمقابل يتلقون كتابا جذابا . إلا أن هذا البرنامج لم يستمر إلا لسنوات قليلة بسبب صعوبات مالية(٧) .

ما هو دور مكتبات الأطفال والمكتبات المدرسية في عالمنا العربي؟ هل استطاعت أن تساهم بفعالية في ترويج كتب الأطفال من خلال نشاطاتها؟

فلنتأمل هذا المثال الحي ، وإن كان من بلد أجنبي . ها هي أمينة مكتبة مارست عملها في مجال مكتبات الأطفال مدة تزيد عن ١٥ سنة . إنها تطرح فكرة أن تخرج المكتبة إلى المجتمع . هي ترى ضرورة أن تمد المكتبة يدها إلى الأطفال لتشجيعهم على ارتيادها وقراءة محتوياتها(٨) .

ماذا فعلت جانيت هيل لتطبق فكرتها تلك؟ ماذا فعلت لتجعل مكتبة الأطفال مكانا ثقافيا اجتماعيا مسليا ، وليس مجرد مكان تخزن فيه المطبوعات ويقتصر النشاط فيه على الإعارة بصورتها الضيقة؟

انطلقت جانيت بكل حماسة واهتمام وإخلاص تقرأ القصص كنشاط متميز يعرف بسرد القصة . لم تكن تكتفي بسرد القصص في المكتبات ، بل تزور دور الحضانة والمراكز الرياضية المختلفة والحدائق العامة والأحياء الشعبية(٩) .

هكذا تقدم أمينة المكتبة نموذجا في كيفية التعامل مع الطفل وكتابه . فكم هو عدد أمينات وأمناء مكتبات الأطفال والمكتبات المدرسية الذين يقدمون شيئا مماثلا في عالمنا العربي؟ أين هي النظرة

الطليعية في التعامل مع كتب الأطفال؟ يبدو أن هذه الأمة مشغولة في كل الأمور ، إلا في الاهتمام الجاد والصادق بقراءة الطفل وكتابه .

لقد مضت تلك النظرة التقليدية إلى مكتبة الأطفال التي تحصر نشاط المكتبة في زيارة الطفل إليها والجلوس هناك للقراءة ، وربما يكون تعامل الطفل مع الكتاب غير سليم في غياب الإشراف الحقيقي للمشرفة .

يقتصر العمل في كثير من مكتبات الأطفال والمكتبات المدرسية في عالمنا العربي على الإجراءات المكتبية الأولية . فهناك التصنيف ، على سبيل المثال ، الذي قد لا يستند إلى أسس علمية . وهناك الفهرسة التي تفتقدها الكثير من المكتبات . هناك أيضا الإعارة ، وقد تبرز بعض النشاطات المتفرقة غير المنتظمة ، وخاصة في المناسبات ، كأنما الاهتمام بالكتاب لا يكون إلا بمناسبة .

الواقع الذي تعيشه كثير من المكتبات المدرسية في عالمنا العربي مؤلم . فبدل أن تكون هذه المكتبات الإشعاع الفكري الثقافي للطفل ، وبدل أن تكون هي القلب النابض الذي يغذي العملية التربوية ، وبدل أن تكون ملتقى للأطفال حيث يجدون الفرصة للابتكار والاستمتاع بالقراءة الحرة والتشجيع ، بدل كل هذا تكون المكتبة مخزنا للكتب والدوريات القديمة ، لا يسمح للطفل بارتيادها خشية ضياع أي كتاب ، فأمين المكتبة محاسب على كل كتاب يضيع في نهاية العام الدراسي ، بعد إجراء الجرد السنوي المنتظم! الكتب موجودة فقط كموجودات متحف . وأمين المكتبة عادة ما يكون معلما لم يكتمل نصابه في الحصص المقررة ، فيلصق به هذا العمل ، وقد لا يملك أي اهتمام بالكتاب .

بوجود ذلك الواقع من الطبيعي أن تغيب النشاطات في المكتبة ، مثل عرض الكتب الجديدة ، ومعارض الكتب والسرد القصصي والعروض التمثيلية والمسابقات الثقافية .

ينبغي أن ندرك أن النشاطات المختلفة في مكتبة لأطفال والمكتبة المدرسية هي نشاطات أساسية تتصل اتصالا وثيقا ومباشرا بالكتاب . فإذا استمرت هذه النشاطات لذاتها فقط ، دون أن تعتبر قيمة للكتاب ، فإنها تفقد شرعيتها كنشاطات للكتاب(١٠) ، وتصبح مجرد نشاطات عادية .

إن النشاط المسرحي الذي يهتم بتقديم المسرحيات ينبع أصلا من كونه نشاطا يعتمد أساسا على إعداد وتقديم نصوص مسرحية من الكتب التي يحبها الأطفال ، أو تأليف وتقديم نصوص مسرحية ترتبط موضوعاتها بالقراءة والكتب والمكتبات .

مثال آخر من النشاطات التمثيلية ، مسرح الدمى الذي يهدف إلى تجسيد القصة مع مشاركة الأطفال مشاركة فعالة في العرض . تطرح أمينة المكتبة فكرة تقديم عرض مسرحي بالدمى ، فيقوم الأطفال باختيار القصة المناسبة من كتاب ليعدوا قصته كنص مسرحي بإشراف الأمينة . كذلك يقوم الأطفال بصنع الدمى بالاستعانة بكتب توفرها المكتبة . والأمر نفسه ينطبق على تصميم المسرح الخاص بالدمى والمناظر والملابس وغيرها من المستلزمات الأساسية للمسرحية(١١) .

نلاحظ من المثال السابق كيف يقوم الأطفال أنفسهم بكل تلك الأمور . هذا في حد ذاته يعتبر خطوة رائدة في تربية وبناء شخصية الطفل ، لأن هذا يعني إتاحة الفرصة له ليعبر عن نفسه وعن العالم الذي يحيط به ثم يبدع ، معتبرين الفوائد الجمة التي يحققها الأطفال من مشاركتهم في النشاط المسرحي .

أما نشاط الطفل التمثيلي (child drama) فيجب أن يأخذ جزءا من اهتمام المكتبة . هو نشاط تمثيلي يقوم الأطفال من خلاله بأداء أدوار تلقائية مرتجلين حوارا دون استعداد مسبق عادة . يمكن لهذا النشاط التمثيلي أن يعتمد أساسا على الكتاب . فبعد أن تُقرأ قصة للأطفال ، يؤدونها بالحركة والحوار ، دون تحضير . وهذا هو أحد الفروق بين هذا النشاط والنشاط المسرحي السابق الذي يتطلب إعدادا وتدريبات . نشاط الطفل التمثيلي يعمق فهم القصة عند الأطفال ويتيح لهم فرصة التعرف إلى مواقف مختلفة(١٢) هذا النشاط فرصة ثمينة تعزز حب الكتاب عند الطفل .

سرد القصة من النشاطات المؤثرة في دفع الطفل ليهتم بالكتاب والقراءة(١٣) يظهر دور هذا النشاط بصورة فعالة في المرحلة المبكرة عندما يبدأ الطفل بالقراءة وحتى الصف السادس الابتدائي (السن التقديري من ٥ — ١٢) .

تراعي المشرفة على هذا النشاط الاختيار السليم للكتاب ، كما تراعي أصول هذا الفن الذي يتطلب دراية لنقل الكتاب إلى الطفل عن طريق السرد .

في هذا النشاط يبدأ الطفل في التعرف إلى الكلمات تدريجيا . فالطفل في بداياته المبكرة في المطالعة يكون محدودا فيما يرتبط باللغة المطبوعة . فيبرز سرد القصة كعنصر مشوق لجذبه إلى الكتاب . فهو لن يشعر أبدا أن الكتاب غريب عليه . كما أنه سيستمتع كثيرا بالرسومات المرافقة التي يعرضها السارد .

تلك كانت محاولة لعرض ما يتصل بكتاب الأطفال وترويجه . ومهما تكن دوافع المكتبات والمؤسسات المختلفة ، فإن الدولة هي المسؤولة المباشرة أو غير المباشرة عن كل هذا . فهي الراعية المسئولة عن الرعية .

مراجع

١ — Irving, Ann. Promoting voluntary reading for children and young people, Paris: Unesco, 1980 p. 11-12

٢ — The World of Learning 1986. 36th ed.- London: Europa, 1985 p.1369

٣ — ibid. p. 1341

٤ — Oxford Reading Tree.- Oxford: Oxford University press, 1986 p.2

٥ — ibid p.3

٦ — من إجابات المدير التنفيذي ردا على أسئلة حول «دار الفتى العربي» رقم الكتاب الوارد من بيروت ٨٢/١٣٧ تاريخ ١٩٨٢/٥/٤م .

٧ — Pellowski, Anne. Made to measure: children's books in developing countries.- Paris: Unesco, 1980 p. 89

٨ — HIll, ' Janet. Children are people: the librarian in the community.- London: Hamish Hamilton, 1973 p. 28-29.

٩ — ibid p.58

١٠ — Ray Colin. Trands in children's librarianship. Unesco bulletin for libraries vol. XXVII, no. 4 July-August 1974 p. 188-192.

١١ — Varga, Balaza. New trends in children's libraries in Hungary Unesco bulletin for libraries vol. XXI no. 1 Jan-Feb. 1967 p. 30-32

١٢ — انظر : مقدمة إلى دراما الطفل ، رحلة في كتاب مجلة الفيصل سنة ٧ عدد ٨٠ تشرين الثاني ١٩٨٣ ص ٨٣ — ٩٠ ، وانظر أيضا : أثر «نشاط الطفل التمثيلي» في التربية رسالة الخليج العربي سنة ٦ عدد ١٧، ١٩٨٦م ص ١٨٥ — ١٩٦ لكاتب السطور .

١٣ — انظر كتاب الأطفال .. وسرد القصة . الناشر العربي عدد ٢ ، ١٩٨٤م ص ٦٨ — ٧١ لكاتب السطور .

رَدٌّ على رَدّ

ديوان ابن قلاقس الإسكندري تحقيق سهام الفريح★

عبد العزيز بن ناصر المانع
أستاذ في قسم اللغة العربية ــ كلية الآداب
جامعة الملك سعود ــ الرياض

★ ابن قلاقس الإسكندري/ديوان ابن قلاقس الإسكندري الجزء الأول تحقيق سهام الفريح مراجعة محمود مكي .ــ الكويت : دار العروبة ، ١٩٨٢م .

كنتُ قد نشرت في الجزء الأول من المجلد الثامن والعشرين من مجلة معهد المخطوطات العربية تعليقاً يتضمن بعض الملاحظات اليسيرة على الجزء الأول من ديوان ابن قَلاقس الذي صَدَر بتحقيق الدكتورة سهام الفريح، وكان تحقيقهُ موضوعَ دَرَجتها للدكتوراه من جامعة القاهرة عام ١٩٧٩م . ويبدو أنَّ تلك الملاحظات اليَسيرة لم تَلْقَ قبولاً تاماً من الأخت المحققة الكريمة، فطالَعَتْنا في الجزء الأول من المجلد الثلاثين من المجلة المذكورة أعلاه «بملاحظاتها الموضوعية العلمية» التي تتبعت فيها بعض تلك النقدات اليسيرة التي لاحَظْتُهَا على تحقيقها . ولقد قرأتُ ما كَتَبَتْ ، واحتفَيْتُ بما دَوَّنَتْ في نقدها «العلمي» الذي جاء من مُنْطلقِ الحرصِ على وَضْع الحَقائق في نصابها ، كما تقول المحققة الكريمة في ختام ردها . وبما أن كلينا ، كما تقول أيضا ، طالب علم يسعى إلى معرفة الحقيقة ، ومن هذا البَاب لاغير ، فقد رأيتُ أن أقِفَ عند ملاحظاتها وأتَتَبَّعُها واحدةً واحدة ليرى القارىء الكريم ما قَصَدْتُه فيما كَتَبْتُ وما أرادَتْهُ فيما كَتَبَتْ .

أقول وبالله التّوفيق :

أولاً :

قضيَّةُ اسم الشّاعر ابن قَلاقس أهو «نصرٌ» أم «نصر الله» .

كانت المحققةُ الكريمة ، في مقدمة الدِّيوان المنشور ، قد قَرَّرَتْ أن اسمَهُ «نصر الله» ، وكنتُ ، فيما كتبتُ ، قد رجَّحْتُ إلى درجة شبه اليقين أن اسمَهُ «نصر» لا «نصر الله» ، وقدَّمتُ بين يَدَي ذلك أسباباً تؤيد ما ذهبتُ إليه ، منها أنَّ أقدَمَ نَصّ مخطوط من كُتُب ابن قَلاقس نَفْسِهِ ، وهو ترسُّلُهُ ، والذي نُسِخ بعد وفاته بخَمْسٍ وعشرين سنة فَقَط ، ينص نصاً واضحاً وصريحاً على أن اسمه «نصر» . وكذلك فإن العِمَاد الأصبهاني في خريدة القصر (١ :١٤٥) قد سَمَّاه «نصراً» . والعِمَادُ ينقلُ ، كما نَصَّ بصريح العبارة (١ : ١٤٦) من كتاب ابن قلاقس الآخر : الزَّهْر البَاسم .

وذكرتُ سبباً آخر وهو أنَّ ابن خَلَف الصَّقلي ، أحد أصدقائه في صِقِلِّية ، خاطَب ابنَ قلاقس بشعرٍ فقال :

مَا رَأَيْنَـــا وسَمِعْنَـــا ... فِي حَدِيثٍ وقَدِيـــم
كابْنِ عَبْـدِ اللهِ نَصْرٍ ... غُرَّةِ الدَّهْـرِ البَهِيـم

وقد أَوْرَدَتِ المحققة الكريمة هذه الأسبابَ الثلاثة في رَدِّها ودافَعَتْها بما تراه ، كما سنرى ، ثم تَمَسَّكَتْ بعد ذلك بأن اسمه «نصر الله» لا «نصر» . وقد احتجَّتْ بأن ما ورد في شعر ابن خَلَف هو نتيجة ضرورة شعريَّة . أمّا حُجَّتَاي الأخريَان فهما ، كما تقول : «معارضَتَان بأكثر منهما» وذَهبتْ فعدَّدَتْ ثلاثة مصادرَ وأربعَ نُسَخ من مخطوط الدِّيوان كلها نَصَّت على أن اسمه «نصر الله» ونسخة أخرى من نسخ المخطوط نصّت على أن اسمَهُ «نَصْر الدين» .

قلتُ : ولا غبار على ما وَرَد فيما ذَكَرَتْهُ من مصادر أو من نُسَخ المخطوط ولا إنكارَ له، فقد كنتُ أشرتُ إليه فيما كتَبْتُ وقلتُ : «لديَّ شبه يَقين بأنَّ **كلَّ** ما وَرَد في المصادر الأخرى من تسميته «نَصْر الله» هو من تَصْحيف وتَحْريف النُّسَّاخ» .

وإذا سلَّمنا ــ جدلاً ــ بأنَّ تسمِيَة ابن قلاقس «نصراً» في شعر صَديقه ابن خَلَف الأُمَوي الصِّقلي هومن باب الضَّرورة الشعرية ، فإن «معارضة» السَّبَبين الآخرين بأكْثَر منهُما ليس حجةً ، لأنَّ الأمر ليسَ أمرَ كَثرة أو قلَّة ، ولو كانت الكثرة تُغْني شيئاً لأغْنَتِ المسلمين يوم حُنَين كثرتُهُمْ . إنَّ المهم في قَضَايا العلم بخاصة هو عمليةُ انتقاء

المصادر التي يُرجع إليها عادةً ، فكتابان لابن قَلاقس نَفسهِ يَنُصّان على أن اسمَهُ «نصر» لا «نصر الله» هما سَبَبان قويان لترجيح ما ذَهَبْتُ إليه ، وبخاصة إذا عرفنا أنَّ أحدَهُمَا، وهو ترسُّله ، كُتِب عام ٥٩٢ أي بعد وَفاته بخَمْس وعشرين سنة فقط . وليس هذا فَحَسْب، بل يُضاف إليه عامل آخر قوي جداً وهو أن نسخة «التَّرسل» هذه نسخة كُتِبَتْ «للخزانة المَوْلوية .. المُفَضَّلية» وأظن أن المحققة الكريمة تعلمُ مدَى أهميَّة النُّسَخ الخَزائنية ونفاسَتِها وما كان يُطْلَبُ في الاحتفاء بها ، ويُبْذَلُ في الاعتناء بِنَسْخها ومُراجعتها وتَدْقيقها، لأنها تُكْتب غالبـاً لخِزانة عَالِم أو سُلْطان أو خليفة . فهل نتوقَّعُ في نُسْخة تُرفع لشَخْصيات كهذه أن يَقَع خطأ في أوْضَح الأمور فيها وهو اسْمُ مُؤلفها فَيُكتب «نَصْراً» بدلَ «نَصْر الله» ، وخاصة أن اسمه أوانَ كتابة ذلك المخطوط، وهو سنة ٥٩٢ ، لازال حاضراً في أذهان الناس ، دائراً على أَلْسِنتهم ، لأنهم لازالوا قَريبي العَهْد به وباسْمِهِ وبكُتُبه .

ويُضاف إلى ذلك أيضا أن المصدرَ الثالث الذي اعتمدتُ عليه وهو العمادُ الأصبهانيُّ يُعَدُّ أقدمَ من كل المصادر التي أوردَتْهَا المحققة الكريمة في احتجاجها ؛ إذ وُلِدَ العمادُ سنة ٥١٩هـ وتوفي سنة ٥٩٧هـ فهو مُعَاصر لابن قَلاقس إذ وُلد قَبْله وماتَ بعده . وأمَّا ما أشارَتْ إليه من وروده باسم «نصر الله» في نسخ المخطوط التي عدَّدَتْهَا فالرَّدُّ عليه يتضح من خلال المناقشة اللاحقة :

عند عرض المحققة الكريمة للحُجَج التي سُقْتُها تأييداً لما رأيتُهُ قالت :

إن الكاتب « ... ساق لدعواه ثلاث حجج أوجزها مع التزام الدقة» .

قلتُ : وأودُّ أن أُنبِّه المحققة الكريمة إلى أن الأمانة العلميَّة ـــ إذا أردنا كتابةَ نقد علمي ـــ تُحتم علينا «التثبت والتزام الدقة» لنصِلَ إلى الحقيقة التي هي هدفُنَا جميعا ، ولذلك فإني أسائِلُها عن عدد الحجج التي سقتها لتأييد دعوايَ أهي ثلاث أم أربع؟ إنهن أربع!

غير أن المحققة الكريمة عمدت إلى اختصار الحجة الرابعة ، وإلى إغفال ترقيمها ، وإلى إلحاقها ـــ على استحياء ـــ بالحجة الثالثة رغم عدم اتفاقهما أو تناسقهما ! أما نص حجتي الرابعة فهو :

« ٤ ـــ وأهم من هذا أن أقدَمَ نُسْخَة من نُسَخ ديوانه وأهمها هي نسخة (دبلن) ، والتي اعتمدَتْها المحققة الكريمة أساساً ، تنص نَصاً صريحاً على أن اسمَهُ «نَصْر» لا «نَصْر الله» وكذلك تنص نسخة باريس» .

لماذا حَاولت المحققة إيهام القارىء بأنَّ الحُجَجَ ثلاثٌ لا أَرْبع ؟ أَهَذا من سَبق القلم أيضاً ؟

إن كان ، فسَامَح الله الأقلامَ وأصحابَ الأقلام .

وإن لم يَكُن ، فلماذا لم تُنَاقش هذه الحُجَّة ولم تُدَافعها بما تَراه كما حاوَلَت في الحجج السابقة؟ رُبَّما لأنها لم تجد ما تُدَافع به فرأتْ أن الإيهام أيسرُ الطرق رغم ما فيه من تَدْليس على القارىء ومغالَطَةٍ للحَقيقة .

ورغم ذلك :

أَلَمْ يُلاحظ القارىء الكريم شدة مُدَافعة المحققة الكريمة في ردِّها على ما اقترحْتُهُ بل رجَّحْتُهُ من أن اسمَ الشَّاعر «نَصْر»؟

بل أَلَمْ يلاحظ القارىء الكريم قوة تَمسُّكِهَا بما أوردتْهُ في مُقَدمة تحقيقها للدِّيوان من أن اسمه «نصر الله»؟

إذا كانت المحققةُ قد بلغَتْ بها الثقةُ ـــ فيما ذَهَبْتُ إليه ـــ إلى هذا الحدّ فكيف تُفَسِّر للقارىء الكريم ما وردَ في بداية الديوان المطبوع بتحقيقها ، وبعد انتهاء مقدمتها ، من تَسْمِيَتِهِ نَصْراً؟

لنَسْتَمِعْ إلى ما تقولُ فاتحةُ الديوان المطبوع (ص ١١٣) : «ديوان الأديب البارع اللوذعي اللبيب أبي الفتوح **نصر** بن عبد الله بن مخلوف اللخمي المعروف بالبحتري رحمة الله عليه» .

كيف تَجْمَعُ المحققة الكريمة بين هذا التَّناقض؟

لماذا أوردت اسمَهُ في فاتحة الديوان «نَصْراً» ما دامت تنصُّ في المقدمة وتُصِرُّ في الرد على أن اسمه «نَصْر الله» ، وتدعم ذلك بالحُجَّة وبكثرة المَصادر وروايات مخطوطات الدِّيوان كما ذَكَرتْ في رَدِّها ؟

ستقول ، أو ربما تقول ، بأنَّ هذا هو ما وَرَد في نسخة المخطوط التي اعتَمَدَتْها أصلاً ، وهي نسخة دبلن . والمحققة هنا أمامَ أحد أمرين :

أ ـــ إمَّا أن يكونَ ما ورَدَ في أصل المخطوط صواباً فيكون إصْرارُها على ما أصرّت عليه في المقدمة وفي الرد من أنَّ اسمَهُ «نَصْر الله» خطأً لا مراءَ فيه .

ب ـــ وإمَّا أن يكون ما ورد في المقدمة من تسميته «نَصْر الله» صواباً وعليه فإن ما ورد في أصل المخطوط خطأٌ واضحٌ لا ريبَ فيه . وإذا كانَ ذلك كذلك فلماذا لم تتكرم المحققة الكريمة وتُبيِّن هذا الخطأَ في الحاشية وتُصحِّح أصلَ الديوان من نُسَخ المخطوط الأخرى ، ومن المصادر الأخرى التي احتجَّتْ بها والتي ذكَرتْ أنَّ اسْمَهُ «نَصْر الله» !

أقول : «لا زال لديَّ شبهُ يقين بأن كُلَّ ما ورَدَ في المَصادر من تسميتِهِ «نَصْر الله» هو من تصحيف النساخ وتحريفهم[1]» .

وفرق كبيرٌ بين اليَقين وشبه اليقين أيتها المحققة الكريمة .

ثانياً :

كنتُ لاحظتُ على المحققة الكريمة ، عند حديثها عن «عَبْقرية»

ابن قلاقس الشعرية ، وما قَرَّرَتْهُ ــ بعد تَجاوزِ نَدَّات الأقلام ــ من أن «تفتق» موهبته الشعرية كان بين سَنَوات ثلاث وعشرين وست وعشرين من عُمره . وكذلك ما قَرَّرَتْهُ من أنّ إحدى أُولى قصائِدِه قصيدة مَدَح بها الخليفة عبد المؤمن بن علي أحد خُلفاء المُوَحِّدين في المغرب .

قلت : وإذا كان حقاً قد نَظَم أوائلَ قَصائِدِه في هذه السن فهذا لا يُعَدُّ «تفتُّقاً» أو «عَبْقرية» بل يُعَدُّ عكس ذلك فهي سنٌ متقدِّمة . ثم هل يُعْقَل أن تكونَ إحدى أُولى قصائده في مُخَاطبة خَليفة ؟ ما أُرَجِّحه هو أن ابن قَلاقس بدأ في نَظْم الشِّعر في سن مُبَكرة جداً قبل تلك السن التي اقترَحَتْها المحققة . كما أرجح أن تكون له إرهاصات شعريةٌ طويلة جداً قبل أن يَسْمُوَ به طُموحه لمخاطبة خليفة .

قالت المحققة الكريمة في رَدِّها : « ... وأنكَر عليَّ أن أذهب إلى أن هذه السن التي نظم فيها الشاعر شعره ــ وهو بين ٢٣ ــ ٢٦ من العمر ــ هي «تفتق مبكر» ويرى العكس ، وهو موضع اجتهاد لا يؤول إلى مورد النص ، وليس هو من النقد العلمي في شيء سوى زيادة القال والقيل !» .

قلت : وإذا كانَ هذا النقدُ ليسَ من النقد العلمي في شيء فمناقَشَتُها للموضوع من أساسِهِ في مقدمة رسالتها «العلمية» ليس من العلم في شيء بل هو حَشْو لا قيمة له ! أمّا وقد وَرَد في المقدمة فلعل طرحَهُ للنقاش يدخل في باب البَحْث العلمي . والحكمُ متروك للقارىء الكريم .

ثالثاً :

كانت لي ملاحظةٌ على ما ارْتَأَتْهُ المحققة الكريمة حولَ «رَحَلات ابن قلاقس» وقد نقلتُ عنها ما نَصُّه : «قالت في صفحة ١٧ « ... فجميع القَصائد التي قالها وهو في صِقِلِّية مؤرخة في سنة ٥٦٣ وما بعدها» .

ثم علَّقتُ على ذلك فقلتُ :

«وهذا تقديرٌ صَحيح يؤيدهُ ما أُرِّخ من قصائده في ديوانِهِ وفي كتابَيْه : التَّرسُّل والزَّهْر ، وكذلك ما ورد في المَصَادر الأخرى كخريدة العماد» .

وقد جاءت المحققة الكريمة لتَرُدَّ على تلك الملاحظة فقالت : «ذكرتُ في كلامي على رَحَلات ابن قلاقس أن الأقوال اختلفت في تحديد تاريخ سفره إلى صقلية واليمن وقلت «إن جميع قصائده التي قالها في صقلية مؤرخة في سنة ٥٦٣ وما بعدها وأغفل الكاتب الكريم عبارة «وما بعدها» ليتخذ لنفسه تكأة فيما أحب أن ينسب إليّ افتئاتاً تناقضا بين هذا التاريخ وتاريخ قصيدة قالها الشاعر في أحد الصقليين في سنة ٥٦٤ فأين بقيت عبارة «وما بعدها» أي بعد سنة ٥٦٣ في كلامي ؟ فأين التناقض المزعوم ؟»

قلتُ : يبدو أنَّ هناك «سُوء فَهْم» ، وذلك لأني لم أتحدثْ إطلاقاً عن وجود تناقُض عند المحققة الكريمة خلال حديثها عن قصائد ابن قَلاقس في صِقِلِّية بين سَنَتَيْ ٥٦٣ ، ٥٦٤ لأنَّ ذلك هو ما شَهِدَتْ به قصائده المؤرخة وكتُبه وما أقَرَّتْهُ المصادر المُعْتَبرة .

نَعَمْ ، هناك تَناقضٌ وسيجيء الحديثُ عنه تفصيلاً ، وهذا الذي تَحَدَّثَتْ عنه المحققة ما هو إلّا مقدمة له وتَمْهيد . لكن ينبغي هنا أن أوضح لها الحقائق التالية :

أ ــ ينبغي أن تفهمَ أن «حديث التناقض» الذي أوردَهُ الكاتب لا يدور حولَ «تاريخ» قصائد ابن قلاقس في صِقِلِّية، ولكنه يدورُ حولَ «رحلات ابن قلاقس» بين صِقِلِّية والإسكندرية واليَمن ، وقد قلت ما نَصُّه : «لكن المحققةَ الكريمةَ ، **فيما له علاقةٌ برحلات ابن قَلاقس** ، تناقضُ نفسَها بنفسِها» ثم تحدثتُ بعد ذلك تفصيلاً عن ذلك التناقض .

فرق كبير بين ما قَصَدْتُهُ وبين ما فَهِمَتْهُ المحققة .

ب ــ لا أدْري كيف يقبلُ العقلُ أن أتَّهِمَها هنا بالتناقض ، وقد علقتُ على نَصِّها المُشَار إليه أعلاه فقلتُ : «وهذا تقديرٌ صحيح يؤيده ما أُرِّخ من قَصَائده» الخ؟ ليتها تعودُ لما كتبتُ وتقرأهُ بتأنٍّ وتؤدة .

جـ ــ زعَمَتِ المحققة بأن الكاتبَ أغفلَ عبارةَ «وما بَعْدَها» من نَصِّها لكي يتخذ لنفسه تكأة فيما أحب أن ينسب إليها ، افتئاتاً ، تناقضاً.

قلتُ : هل ، حقاً ، أغفَل الكاتبُ هذه العبارة فيما كتَبَ؟

إن عبارتها موجودةٌ ولْتُراجَعْ في نقدِ الكاتبِ المنشور . وليتَهَا تكون أكْثَر دقة وأمانة فيما تكتب ، وأن لا تقرر رأياً في ردودها إلا بعد تَثَبُّت ويقين، لأن النقول المحرَّفة باطلةٌ لا تُبْنى عليها أيةُ أحكام ، وذلك لأن ما بُني على بَاطل فهو باطلٌ كما يقول المناطقة والأصوليُّون .

رابعاً :

أمّا عن التناقض عند المحققة فقد كنتُ كتبتُ عنه ما نَصُّه : « ... لكنَّ المحققة الكريمة تُناقض نفسَها بنفسِها، فهي تنصُّ على أنه [أي ابن قَلاقس] عندما كانَ في صِقِلِّية ... مَدَح الحَسَن بن حَمُّود وهنَّأه بمولود في سنة ٥٦٤ هـ . ثم تُتَابع حديثَهَا بعد ذلك فتنُصُّ على أن ابن قَلاقس بعد عودتِهِ من صِقِلِّية أقامَ بالإسكندرية ثلاث سنين ثم عاوَدَهُ الحنينُ وركوبُ البحر فعزَمَ على الرحلة من جديد» .

ثم قلتُ : « .. ووجه التناقض يبدو أكثَر وضوحاً عندمَا تدخلُ

مباشرةً في الحَديث عن رحلته إلى اليمن، إذْ تقرر المحققة الكريمة [في صفحتي ١٧ ، ٢١ من مقدمتها] أنَّ ابن قَلاقس دخلَ عَدَن سنة ٥٦٥هـ» .

قلتُ وأقولُ : أليسَ هذا تناقُضاً؟

كيف يكون في صِقِلِّية عام ٥٦٤هـ ، ويقيمُ في الإسكندرية ثلاث سنوات بعد عودتِهِ من صِقِلِّية ويدخلُ عَدَن سنة ٥٦٥هـ؟

أينَ هي ، إذاً ، السنوات الثلاثُ التي أقامَها في الإسكندرية بعد عودته من صِقِلِّية عام ٥٦٤هـ إذا كان في اليمن عام ٥٦٥هـ ؟

ذلك ما حاوَلت المحققة الكريمة الإجابة عليه في رَدِّها : فلنَسْتَمِعْ إذاً إلى إجاباتها وحُجَجِها ونَرى مدى استقامة تلك الحُجَج والردود ، ومقدار صُمودها عند المناقشة .

أ ــ أنْكَرت المحققة أن تكونَ قد قررت أن يكون ابن قَلاقس قد نَظَم قصيدَتَهُ ، في مديح الحَسَن بن حَمُّود ، في صقلية ، وعَدَّت ذلك ادِّعاءً من الكاتب :

قالت : «لم أقل أن الشاعر نظم هذه القصيدة وهو في صقلية .. وإنما قلت وممن مدحهم من رجال صقلية الشيخ الفقيه ... وكذلك مدح السديد الحصري ... ومدح أيضا أحد أشقاء أبي القاسم في سنة ٥٦٤هـ» .

قلتُ : وهذا إنكار مَرْفوض !

فقد قَرَّرتِ المحققة في مقدمة دراسَتِها أن ابن قلاقس نَظَم هذه القصيدة وهو في صِقِلِّية !

كَيْف ؟

لقد حَدَّثَتْنا المحققة الكريمة في مقدمتها عن رحلة الشاعر إلى صقلية . منذ وصولِهِ إليها حتى رحيلِهِ منها، فجاء تسلسلُ الأحداث عندها كالتالي ، صفحة ١٩ ــ ٢٠ : « ... وسافر إلى هناك ... واتصل بالكثير من أهل صقلية ونظم فيهم قصائد المدح فأولهم الملك غليالم ملك صقلية .

وكذلك مدح القائد الصقلي غارات بن جوشن ...

وممن مدحهم في صقلية الفقيه ابن فاتح ...

وكذلك مدح السديد الحصري وهو أحد أغنياء المسلمين في صقلية ... ومدح أحد أشقاء أبي القاسم وهو الحسن بن حمود وهنأه بمولود في سنة ٥٦٤هـ ...

لكن القائد أبا القاسم كان أقرب من اتصل به الشاعر ومدحه بكثير من شعره ويقال إنه لما ركب البحر عازما على السفر من صقلية ردته الريح إليها ... ثم رحل من صقلية»

هكذا تسلسَلَتْ عندها أحداثُ رحلة ابن قَلاقس إلى صقلية من وصوله حتى مغادرتِهِ كما وردَ في مُقدمة تَحقيقها . ومن ذلك يتَّضح للقارىء الكريم أنَّ إنكارَهَا لا مكان له،وأنها ، بنفسها ، **قد قَرَّرَتْ** أن قصيدَته في تهنئة الحَسَن بن حمُّود بمولود قد نَظَمها الشاعر سنة ٥٦٤هـ وهو في صِقِلِّية .

وسواءٌ أنْكَرَت المحققة أو أقَرَّت أن الشاعر نَظم هذه القصيدة سنة ٥٦٤هـ داخلَ صِقِلِّية أو خارِجَهَا فليسَ ذلك محلَّ اعتبار، لأن ابن قَلاقس نفسه ينص نصاً واضحاً على نظمه لهذه القصيدة وهو في صِقِلِّية وذلك في كتابه «الزَّهْر البَاسم» ، صفحة ٤١ ، وهو كتابٌ يعدُّ بمثابة مُذَكرات شخصية عن رحلته إلى صقلية دوَّن فيه، بضمير المتكلم ، أخبارَه ورسائِلَهُ وقصائِدَهُ ، ومناسباتِ أغْلَبِها ، وقال عن القصيدة المَعْنِيَّة ما نَصُّه : « ... وقلتُ أيضاً أهنِّىء الفَقيهَ أبَا عَليّ حَسَن بن حَمُّود ... بمَولود ... غُرَّة شهْر رَبيع الآخر سنة ٥٦٤هـ» .

وليس هذا فحسب فقد وردت القصيدةُ والمناسبةُ في ديوان ابن قَلاقس ، نسخة دبلن ، الورقة ٨٥/أ ــ ٨٦/أ ، وهي النسخة التي اعتمدتْهَا المحققة الكريمة أصلاً عند نشرها للديوان .

ورغم إنكار المحققة كونَ قصيدة ابن قَلاقس في تهنئة ابن حمُّود بمولودِهِ قد نُظِمت وهو في صِقِلِّية فسيلاحظ القارىء الكريم أنها ــ بعد قليل ــ ستناقضُ نفسَهَا وتَسْتَشْهِدُ بتاريخ هذه القصيدة نَفْسِها على أنه آخر تاريخ **لإقامة الشاعر** في صقلية !

فَهَلْ من شك بعد هذا في تاريخ هذه القصيدة ومكانِ نَظْمِها ؟

ب ــ قالت : «ليس شرطاً أن الشاعر نظم هذه القصيدة إبان إقامته في صقلية» .

قلتُ : نعم ، هذا إذا لم يَقُمِ الدليلُ ، أما وهو قَائم فيسقطُ هذا الاحتمال . والردُّ على الفقرة السَّابقة يكفينا مؤونة الرَّد على هذه .

جـ ــ قالت : «إن الكاتب الكريم يقرر من غير بينة أن إقامة الشاعر في صقلية استغرقت شهور سنة ٥٦٤هـ كلها الإثني عشر إلى آخر يوم منها ليجعل السنة التي تلتها هي بدء رحلته منها إلى غيرها وذلك ليتوصل بهذا إلى حكمه علي بالتناقض وواضح أن ادّعاءه يحتاج إلى برهان يؤيده ويعضده وهو لا يملكه قطعاً» .

قلتُ : إن أي باحث هدفهُ وضع الحَقائق في نِصابها الصحيح ــ كما أوضَحَتِ المحققة الكريمة في ردها ــ ينبغي أن يكونَ متأنياً أميناً في اقتباس النصوص ، وهذا النصُّ أعلاه منقول حرفياً من ردِّها . ولا أدري كيف بَلَغتْ بالمحققة الجرأة أن تتقوّل على لساني ما لم أقُله ، إذْ لم أُقَرِّر ، بَيِّنَة أو بغير بينة ، أن ابن قلاقس أقامَ في صِقِلِّية «شهور سنة ٥٦٤هـ كلها الإثني عشر إلى آخر يوم منها» . كل ما قلته ، فيما له علاقة بالتواريخ ، هو وبالحرف الواحد : «وإذَا قَدَّرنا أن آخر مدحة له في صِقِلِّية كانت مؤرخة سنة ٥٦٤هـ ... » فهل

هذا الذي قلتُهُ هو ذاك الذي ذَكَرَتْهُ المحققة في رَدِّها ؟

ثم أين هي من الصَّواب ، وأين هي من النقد العلمي ، وأين هي من الدِّقة عندما تقول إن الكاتب قرر من غير بينة أن السنة التي تلت سنة ٥٦٤هـ [أي ٥٦٥هـ] هي بدء رحلة الشاعر من صقلية إلى غيرها .

ثم تقول : « ... وواضح أن ادّعاءه يحتاج إلى برهان يؤيده ويعضده ، وهو لا يملكه قطعا!»

قلتُ : ولم أقرِّر إطلاقا أن السنة التي تلت سنة ٥٦٤هـ هي بدء رحلة ابن قلاقس من صقلِّية أو من الإسكندرية أو من أي مكان أو إلى أي مكان . كما لم أتطرَّق ــ فيما كتبتُ ــ إطلاقا إلى الحديث عن عام ٥٦٥هـ ، وما حَدَث فيه للشاعر إلّا مقتبساً من مقدمتها ، وهذا ما قلتُهُ : « ... تُقرِّرُ المحققة الكريمة في صفحة ٢١ أن ابن قَلاقس دخلَ عَدَن في سنة ٥٦٥هـ ، وكانت أيضاً قد قَرَّرَتْ قبل ذلك في صفحة ١٧ أن قصائدَهُ في اليمن مؤرخةٌ في سنة ٥٦٥هـ وما بعدها ...»

قلتُ : وإذا كانت المحققة ــ في ردِّها ــ تحتاج إلى حُجَّة وبرهان في إثبات كون عام ٥٦٥هـ هوتاريخ رحلته إلى اليمن، فعليها الرجوع إلى ابن خلكان : الجزء الخامس ، صفحة ٣٨٨ (تحقيق الدكتور إحسان عباس) ، وإلى مقدمتها في الصفحتين المشار إليهما أعلاه .

وأودُّ هنا أن أُوضح للمحققة أن لا أحد ، فيما أعرفُ ، لا من الأوَّلين ولا من الآخرين ، قال بنفي إقامة ابن قَلاقس في الإسكندرية بعد عَوْدته من صِقِلِّية في عام ٥٦٤هـ . غير أن الخلاف هو في مقدار المدَّة التي أقامَهَا والتي حدَّدتها المحققة بثلاث سنوات ، وهو تَحْديد منقوضٌ بالعَقْل ، وبمنطوق النُّصوص كما سنَرى فيما يجيء من نقاش .

د ــ قالت : «إذا رجعنا إلى ديوان الشاعر نجده قد أرخ نظمه لهذه القصيدة في الحسن بن حمود بن الحجر وتهنئته بمولوده هو غرة شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ . يعني أن نظم القصيدة في نهاية الربع الأول من الأرباع الأربعة للسنة وبقيت من السنة تسعة أشهر فهل لدى الكاتب الكريم من دليل يسمح له بإسقاط هذه الأشهر التسعة من الحساب لتعتبر أول سنة ٥٦٥هـ بدء مغادرته صقلية . لا ... إنه لا يملكه»

قلتُ : واعتبار «أوَّل» سنة ٥٦٥هـ بدء مغادرته صِقِلِّية مردود عليه في الفقرة السابقة .

وقلتُ : كيف تحتج المحققة هنا بتاريخ قصيدة الشاعر في ابن حَمُّود وتهنئتِهِ بمولود عام ٥٦٤هـ على أنه آخر تاريخ لإقامته في صقلية؟

ألم تُنكر ، منذ قليل، كونَها قد قالت إن الشاعر نظم هذه القصيدة المؤرخة في سنة ٥٦٤ وهو في صِقِلِّية ؟

ألم تَقُلْ أيضا إنه «ليس شرطاً أن الشاعر نظم هذه القصيدة إبّان إقامته في صقلية » ؟

كيف تعتمد هنا على ما تشكك في ثبوته هناك ؟

عجيبٌ أمرُ هذا النَّقْد العلمي!

تَنْفي النص أو تشكك فيه عندما لا يخدم قضيتها ، لكنها تتمسك به وتفزعُ إليه عندما تظنُّ أنه ينقذها من موقف .

والمؤلمُ أن يكون ذلك التناقضُ في صفحتين متتاليتين من رَد المحققة الكريمة .

قلتُ : وليتها لم تَتَسرَّعْ في الجزم واستخدام لاءات النفي قبل التأكد من صحة المقطوع بنَفْيه .

وأنا أوافق المحققة الكريمة على أن ابن قَلاقس قال قَصيدته تلك في غرة شَهر رَبيع الآخر من سنة ٥٦٤هـ . وربما كان ذلك دليلاً ــ وهو ما تَهْدف إليه المحققة ــ على أنه غادر صِقِلِّية بعد ذلك التاريخ مباشرة ليُقيم في الإسكندرية بَقيَّة عام ٥٦٤هـ . وهي الشهور التسعة التي تُشير إليها في رَدِّها وتسعى جاهدة إلى تجميعها . ولكن ما رأيها إذا جئتُها بدليل ، أعرفُه وتجهلُهُ ، يدل دلالةً قاطعةً على أن ابن قَلاقس كان في صِقِلِّية حتى شهر رجب من عام ٥٦٤هـ؟ قال ابن قلاقس في الزَّهر البَاسم ، ص ٥٧ :

«وقلتُ في الحَضرة القَائِدَةِ أقْصَى ما وَجَبَ من الهناء بشهر رَجَب سنة أربع وستين وخمس مائة :

لذي الظلامة ...»

ثم قال بعد القَصيدة : «هذا آخرُ ما طَرَّزْتُهُ من شِعْري باسْمِه ، وكَسَوْتُهُ نُورَ وَسْمِهِ ...» الخ .

وبما أن المحققة الكريمة قد قَرَّرَتْ في مقدمة تَحقيقها للديوان أنها لم تَعْثُر على كتاب الزَّهر البَاسم ، لذلك فإن لها العذر في أن تَجْهل تاريخ هذه القَصيدة والتي تُعَدُّ آخرَ قصائدِهِ في مَمْدوحِهِ ، أبي القَاسم ، في صِقِلِّية . لكن المخزي في الأمر أن هذا الدليلَ موجودٌ بنصِّه في مخطوط الدِّيوان ، نسخة دبلن ، التي اعتمدتها المحققة أساساً لتحقيقها ، والقصيدة والمناسبةُ والتاريخُ في الورقة ٩٠١/ب .

قال في الديوان المخطوط :

«وقال يمدح القائد أبا القاسم ويهنيه بشهر رجب سنة ٥٦٤هـ» .

والعجيبُ أن المحققة في نشرتها للدِّيوان أغْفَلَتِ الشَّهر والسَّنة فجاءت مناسبة القصيدة في الديوان المطبوع ، ص ٢٩٥ ، هكذا :

«وقال يمدح القائد أبا القاسم ويهنئه»

لعلَّ ذلك ندَّة قلم أيضاً .

غير أن وجود تاريخ هذه القصيدة في نُسْخَة الديوان المَخْطوط وعَدَم وجودِه في نَشْرة المحققة المطبوعة، وجَهْل المحققة ــ في ردها ــ بما ذُكِرَ في المخطوط يثير في نفسي تساؤلاً غريباً حولَ عدم رَبْط المحققة في ردها بين المَطْبوع والمَخْطوط .

لعلَّ ذلك ندَّة ذهن ؟

لكن : مالَنا ولذَاكَ الآن .

أعودُ فأقول : لنقرأ ما كَتَبَتْهُ المحققة معددةً السنوات التي تزعمُ أن ابن قَلاقس أقامَهَا في الإسكندرية بعد عَوْدته من صِقِلِّية في عام ٥٦٤هـ :

قالت : «إذن فهذه تسعة أشهر تدخل في حساب السنوات الثلاث، يمكن القول إن الشاعر ارتحل من صقلية في أوائلها ، تضاف إليها سنة ٥٦٥ ، ٦٥٦ [هكذا ، ولعَلَّها تَقْصد سنة ٥٦٦هـ] وثلاثة شهور من سنة ٦٥٧هـ [هكذا أيضا ، ولعلَّها تَقْصد سنة ٥٦٧هـ] ثم تحرك منها حيث شاء»

قلت : ولْتَفْهَم المحققة الكريمة أن مصدرَ التّناقُض الذي نحن بصدَدِ مناقشته ليس في البَحْث عن طريقة لعَدّ ثلاث سَنَوات تبدأ من آخر إقامة لابن قَلاقس في صِقِلِّية وحتى تاريخ وفاته سنة ٥٦٧هـ .
إن مصدر التّناقض هو أن يكون كل هذه السنوات الثلاث مقيماً في الإسكندرية ــ كما تَزْعم ــ منذ «أوائل» عام ٥٦٤ هـ وحتى «أوائل» عام ٥٦٧ هـ في حين تُقَرِّر في مقدمتها ص ١٧ ، ٢١ أنه دَخَل عدن عام ٥٦٥هـ .

أين هي السنوات الثلاث إذاً؟

ثم :

كيفَ يكون ابن قَلاقس في الإسكندرية كلَّ عام ٥٦٥هـ ــ كما تزعم المحققة ــ وهذا ابن خلِّكان ، ج ٥ ص ٣٨٨ ، ينص على أنه كان في ذلك العام في اليَمن؟

وكيفَ يُقيم ابن قَلاقس في الإسكندرية كلَّ عام ٥٦٦هـ ــ كما تزعُمُ المحققة ــ ونحن نجده ينظم قصيدةً يُهَنِّئُ فيها ياسر بن بلال وَزير صَاحب عَدَن بمناسبة حُلول عام ٥٦٦هـ؟

والقصيدة ، بمقدمتها ومناسبتها ، تحتلُّ الصفحات ٢٠٣ ــ ٢٠٦ من الجزء الأول من نشرة المحققة للديوان .

وكيفَ يقيمُ ابن قَلاقس في الإسكندرية كلَّ عام ٥٦٦هـ ــ كما تزعُمُ المحققة ــ ونحن نجدهُ في اليمن يكتب رسالةً لمالك بن أبي السَّداد موجهةً إلى السَّيد عبد النَّبي بن مَهدي بتاريخ مُنْتَصف شهر جُمادَى الآخرة سنة ٥٦٦هـ؟

والرسالةُ ومناسَبَتُها موجودةٌ في كِتاب «ترسُّل ابن قلاقس» صفحتي ٦٧ ــ ٦٨ .

وكيفَ يقيمُ ابن قَلاقس ــ كما تزعمُ المحققة ــ كلَّ عام ٥٦٦هـ بالإسكندرية ونحن نجدهُ في اليمن يكتبُ رسالةً ــ وقد عَطبت تحته الجلبة بنخرة في اليمن ــ يُوَجِّهها إلى أبي بكْر العيدي في غرة رجب من سنة ٥٦٦هـ .

والرسالةُ ، بمناسبتها وتاريخها ، موجودةٌ في كتاب «تَرَسُّل ابن قَلاقس» بين الصفحات ٣٤ ــ ٤٠ .

وكيفَ يُقيم ابن قَلاقس ــ كما تزعمُ المحققة ــ كلَّ عام ٥٦٦هـ بالإسكندرية ونَحنُ نجدهُ في اليَمن يمدحُ ياسَر بن بلال وزير صاحب عَدن في مستهل شهر رَمَضان سنة ٥٦٦هـ؟

والقصيدةُ ، بمناسبتها وتاريخها ، تحتلُّ الصفحات بين ٢١٢ ــ ٢١٥ من نَشْرة المحققة الكريمة للديوان ، الجزء الأول .

وكيفَ يُقيم ابن قَلاقس في الإسكندرية ــ كما تزعُمُ المحققة ــ كلَّ سنة ٥٦٦هـ ونحنُ نجده ينظم قصيدةً يهَنِّئُ فيها ياسر بن بلال وزير صاحب عدن بعيد الفطر سنة ٥٦٦هـ؟

والقصيدة ، بمناسبتها وتاريخها ، موجودةٌ في الجزء الأول من نشرة المحققة للديوان، الصفحات ٢١٦ ــ ٢١٨ .

وكيفَ يقيمُ ابن قَلاقس في الإسكندرية ــ كما تزعم المحققة ــ كل سنة ٥٦٦هـ ونحنُ نجدهُ في اليَمن ينظم قصيدةً يمدَحُ بها ياسر بن بلال وزير صاحب عدن «ويذكر عودَهُ إليه بعد رَحليه عنه وما عَرَض من عَطب الجَلبة التي كانت ببحرة [بنخرة ؟] من جزيرة دَهْلك ويَصِف مقَامَهُ بحضرة مالك بن أبي السَّداد صاحب دَهْلك ، وذلك في يوم الجُمعة خامس ذي القَعْدة سنة ست وستين وخمسمائة بجزيرة النّاموس» ؟

والقصيدة ، بمناسبتها وتاريخها ، موجودةٌ في الجزء الأول من الديوان من نشرة المحققة ، الصفحات ٣٠٣ ــ ٣٠٧ .

تلك بعض القصائد والرسائل اليمنية التي شَهِدَتْ مقدماتُها بتواريخ نَظْمها أو كِتَابَتِها مُحَدَّداً فيها الشهر من عام ٥٦٦ هـ . وأود أن أحيلَ المحققة أيضاً إلى قصائدَ يمنية أخرى لابن قلاقس نُظمت عام ٥٦٦هـ وموجودة في الجزء الأول من نشرتها للديوان وهي قصائد تدلُّ دون شك على ارتباط الشاعر باليمن ومقَامِه به في ذلك العام لا بالإسكندرية :

وَرَدَتْ له قَصيدةٌ في مدح «السُّلطان المالك يحيى بن أبي السَّداد صاحب دَهْلك في سنة ست وستين وخمسمئة» وذلك في الصفحات ١٥٥ ــ ١٥٧ من الجزء الأول من نَشْرة المحققة للديوان .

وَوَرَدَتْ له قصيدةٌ يمنية ثانية يمدح فيها «الأميرين وَلَدَيْ الدَّاعي بِعَدَن عِمْران بن سَبأ وهي أول ما أَنْشَدَهُما بتاريخ سنة ست وستين وخمسمئة» .

والقصيدةُ في الصفحات ١٧٦ ــ ١٧٨ من الجزء الأول من نشرة المحققة للديوان .

ووردَتْ له قصيدةٌ يمنية ثالثة «يمدحهما ويذكُرُ ياسراً في سنة ست وستين وخمسمئة» .

والقصيدة في الصفحات ١٧٨ ــ ١٨٠ من الجزء الأول من نَشْرة المحققة للديوان .

ووَرَدَت له قصيدةٌ يمنية رابعة «يُوَدِّع فيها الشيخَ ياسر بن بلال ويذكُرُ قضية الزّعاع وما جرَى وذلك في سنة ست وستين وخمسمئة»

والقصيدة في الصفحات ٢٠٦ ــ ٢٠٩ من الجزء الأول من نشرة المحققة للديوان .

ووَرَدَتْ له قصيدةٌ يمنية خامسةٌ يمدح بها ياسر بن بلال سنةَ ست وستين وخمسمئة .

وهي في الصفحات ٢٠٩ ــ ٢١٢ من الجزء الأول من نَشْرة المحققة للديوان .

ووَرَدَتْ له قصيدةٌ يمنيةٌ سادسةٌ قالها «وهو بثغر دَهْلك وكتَبَ بها إلى الشيخ الأجل أبي الحَسَن علي بن أبي الكَتَائب يمدحُهُ ويذكر عطيه ببحرة [هكذا بالديوان ولعل الصواب : عطبه بنخرة] من جُزُر دَهْلك في سنة ست وستين وخمسمئة» .

والقصيدةُ في الصفحات ٢٥٠ ــ ٢٥٢ من الجزء الأول من نشرة المحققة للديوان .

هذا عن بعض قَصَائدِهِ ورَسَائلِهِ اليمنية في عام ٥٦٦هـ .

فماذا عن «أوائل» عام ٥٦٧هـ ؟

لقد مرَّ بنا ضمن قصائده المؤرخة قصيدة قالها في الخامس من ذي القَعْدة سنة ٥٦٦هـ يمدح بها ياسر بن بلال «ويذكر فيها عودَهُ إليه بعد رحيلِهِ عنه» بسَبَب اصطدامِ المَرْكب ، الذي كان يُقِلُّه ، عند جزيرة دَهْلك . وهذا دليلٌ قطعيٌّ على وُجود الشاعر في اليَمَن في تلك الفترة من عام ٥٦٦هـ ، ولا أجزمُ بعَدَم مغادرته اليمن بعد ذلك التاريخ ، ولكننا نجد الشاعر ينظم قصيدةً جديدةً في أواخر شهر صَفَر سنة ٥٦٧هـ يمدحُ فيها ياسرَ بن بلال. والقصيدة موجودةٌ في الجزء الأول من نشرة المحققة للديوان ، الصفحات ٣٠٧ ــ ٣١٠ .

كذلك نجدهُ في موضع يقال له «شعب» في اليَمن ليلة الأربعاء السابع من رمضان سنة ٥٦٧هـ ، ونلقاهُ وقد نَظَم قصيدةً يمدح فيها ياسر بن بلال . والقصيدة ، بمناسبتها وتاريخها ، موجودة بين الصفحات ١٥٧ ــ ١٦١ من الجزء الأول من نشرة المحققة للديوان . وحسب تقديرات المحققة وحسابَاتِها فهي ــ على ما أعتقد ــ لا تعارضُ في وجودِهِ في اليمن بعد «أوائل» سنة ٥٦٧هـ ، إذ يقعُ ذلك التاريخ بعد نهاية السنوات الثلاث مدار الحديث ، وقد ذكرتُ خبر تلك القصيدة ومناسبتها وتاريخها لتكون دليلاً آخر على استمرارية إقامته في اليمن عام ٥٦٧هـ . أستغرب ، بعدَ كُلّ هذه الأدلة ، والتي يفترض أن تعرفها المحققة من خلال تحقيقها للديوان ، أن تُدَافع عن «إقامة» ابن قلاقس في الإسكندرية ثلاث سنوات بين «أوائل» عام ٥٦٤هـ و «أوائل» عام ٥٦٧هـ كما تزعم ، وهو وقت نجده، في أغْلبِهِ مقيماً في اليَمن كما تدل على ذلك قصائدُهُ ورسائلُه السابقة .

أليس هذا تناقضاً ؟

تُسَارع المحققة الكريمة في الرد على ما ظاهرهُ التناقض ، وباطنه ــ في زَعْمها ــ عدمهُ ، فتقول : «إنه لا يلزم القول بأن إقامته في الإسكندرية [ثلاث سنين] تعني استمراره فيها فلم يبرحها إلى غيرها في أثناء تلك المدة ليعود إليها . فأين يقع التناقض المزعوم فيما قَرَّرته ؟!»

أرأيتُمْ قوةَ العارضَة؟

أرأيتُمْ أنَّ التناقض مَزعوم؟

بعدَ كلِّ تلك الأدلَّة الواضحة التي يُفْتَرض أن المحققة تعرفها خلال تحقيقها للديوان والتي تدلُّ ، دون ريب ، على «إقامة» ابن قلاقس في اليَمن لا في الإسكندرية معظمَ عَامَيْ ٥٦٦ ، ٥٦٧هـ تُصِرُّ المحققة على رأيها وتتمحَّلُ هذا التفسير لمعنى «الإقامة» الذي تَظُنُّ أنه مُخْرِجُها من التناقض .

قلت : ولاعبرة بهذا التفسير بل العبرة بما يقوله علماء اللغة؛ هذا ابن منظور في اللسان ، مادة قَوَم ، يقول : «وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ أَقَامَ بالمَكَانِ هُوَ بِمَعْنَى الثَّبَات» .

وهذا الفَيْروزأبَادي في القاموس ، مادة قَوَم ، يقول : «وَأَقَامَ بالمَكَانِ إقَامَةً ... دَامَ» .

وهذا الزَّبيدي في تَاج العَرُوس ، مادة قَوَم ، يقول : «وأقَامَ بالمَكَانِ إقَامَةً دَامَ ... وَلَبِثَ»

وإذا جَارَيْنا المحققة ــ جدلاً ــ فيما ذَهَبَتْ إليه فكيف تُجيب على هذا السؤال : على أي مَصْدرٍ اعتمدَتْ في تقرير ما قَرَّرَتْ حول «إقامة» ابن قلاقس كل هذه المدة في الإسكندرية بعد عَوْدته من صِقِلّية ؟ لماذا لا تحيلُ القارىء على النص الذي اعْتَمَدَتْ عليه وتُبَيِّنُ له أن إصرارَهَا موثَّق تشهدُ به وله المَصَادر؟

أكادُ أجزمُ أنها لا تَملك جواباً على هذا السؤال!

أخيراً أقول : إن إصْرَار المحققة على دَعْوى إقامة ابن قَلاقس في الإسكندرية ثلاث سنوات بين سَنَتَيْ ٥٦٤ و ٥٦٧هـ هي دَعْوى باطلة لا تَسْتند إلى دَليل .

خامساً :

من بين مَمْدوحي ابن قَلاقس في صِقِلِّية الذين وردَ لهم ذِكْر في الديوان نَجِدُ اسمَ «أبي الحَسَن ابن فَاتح الصِّقِلِّي» وقد أرادَتِ المحققةُ التعريفَ به في مُقدمتها فقالت : «وهو أحد رجال اللغة المعدودين والعلماء بها المبرزين» ، ثم أحالت القارىء على كتاب مُعْجَم الأدباء لياقوت الحَمَوي ، طبعة الدكتور رفاعي ، الجزء ١٣ : ص ص ١٨ ــ ١٩ .

وقد كنتُ ناقَشْتُ ، فيما كَتَبتُ حول هذا ، أمرين مختلفين :

أ ــ إحالَتَها القارىء على كتاب معجم الأدباء ، وقد ظَهَر لي ، بعد نقاش طويل ذكرتُهُ ، أن هذه الإحالة باطلة لا تصحُّ ، لأنَّ اسم «ابن فاتح» لم يَرِدْ إطلاقاً عند ياقوت في معجمه وإنما وردَتْ عنده ترجمةٌ «لأبي الحَسَن الصِّقِلِّي» وقد وضَّحْتُ للمحققة أن هذا « الصقلّي » قد توفي قبل ولادة ابن قلاقس ، ولذلك فمن غير المعقول أن يكون هذا المُتَرْجَمُ له عند ياقوت هو أبو الحَسَن «ابن فاتح» الصِّقِلِّي ؛ ممدوحُ ابن قَلاقس ، وذكرتُ لها تفصيلاً وتعليلاً طويلاً يؤيد ما ذهبتُ إليه وقلتُ : «ولست أدري ما الذي دفع المحققة الكريمة إلى أن تقرر بأن ابن فاتح الذي مَدَحهُ ابن قَلاقس هو أبو الحَسَن الصِّقِلِّي الذي ترجم له ياقوت؟ ألأنهما اتَّفَقَا في كُنْيَتَيْهِمَا ونِسْبَتِهِما إلى صِقِلية ؟!

عندي أنَّ هذا ليسَ ذاك على الإطلاق»

ب ــ ثم ذكرتُ لها أن لديَّ شبهة في أمر آخر هو اسم «ابن فاتح» وأنه ربما كان مصحفا عن «ابن أبي الفتح» وذكرتُ حجتي في تأييد ذلك ثم قلتُ : «ذلك رأيي **وهو موضعُ شك حتى يَظْهَر ما يُرَجحه»** .

ولننظُرْ كيف حاوَلَت المحققة الرد على هذين الأمرين بل الخلط بينهما . تقول : «وأخذ عليَّ أنني أحلت ذلك على ياقوت في معجم الأدباء ١٣/١٨ ــ ١٩ ... وقال بعد كلام [؟] : ما أرجحه أنه لا توجد [شخصية] صِقِلِّية لها هذه الكنية وأن ابن فاتح الذي ورد اسمه في الديوان وفي التَّرسل إنما هو من تَحْريف وتَصْحيف النُّساخ لاسم «أبي الحَسَن علي بن أبي الفتح الأموي» ... ولم يرد اسمه مرة واحدة باسم «ابن فاتح» بل باسم «ابن أبي الفتح» وهوموضع شك حتى يَظْهر ما يُرجحه» .

ثم تابَعَتِ المحققة بعد ذلك مباشرةً فقالتْ : «لا مَانع أن يكون الأمر ما ذكره أولاً بسبب الاتفاق في الكُنْيَتين والانتساب فقد يجوز أن يكون هذا غير ذاك إلى أن تقوم البينة القاطعة» .

قلتُ : وليسَ هناك حاجةٌ إلى انتظار قيام بَيِّنة قَاطعة على ما ورد ذكره «أولاً» وهو أمرُ الإحالة على ياقوت في معجمه وذلك لأنَّ البينة القاطعة قائمة ؛ فالإحالة إلى معجم الأدباء خطأ بيِّن، إذ كيف يكون «أبو الحَسَن الصِقِلّي» المُتَرْجَم له عند ياقوت والمتوفَّى قبل ولادة ابن قلاقس أحَد ممدوحيهِ في صِقِلِّية؟

لقد قصدتُ بعبارة « ... ذلك رأيي وهو مَوْضع شك حتى يَظْهَر ما يُرَجِّحه » الأمر الثاني لا الأول ؛ ذلك هو أمر الخلاف في تَصْحيف اسم ابن فاتح أو تَحْريفه .

ولنتوقَّف عند مناقَشَتِها لأمر هذا التَّصحيف والتَّحريف :

لو رَجَع القارىء الكريم إلى اقتباس المحققة مما كَتَبْتُ لاتضحَ له أن حُجَّتي في تأييد ما ارْتَأيْتُهُ في أمر هذا الشَّك قد حُذِفتْ ، ولذلك فإن المحققة تَرُدُّ على ما تريد هي الرد عليه ، وتغض الطرف عما عداه . فلنقارن بين اقتباسها وبين ما كَتَبْتُه :

قالت : «وقال بعد كلام ... ما أرَجِّحه هو أنه لا توجد [شخصية] صقلية لها هذه الكنية وأن «ابن فاتح» الذي ورد اسمه في الديوان وفي التّرسل إنما هو من تصحيف وتحريف النساخ أيضا لاسم «أبي الحسن علي بن أبي الفتح الأموي» ...ولم يرد اسمه مرة واحدة باسم ابن فاتح بل باسم ابن أبي الفتح» .

ليتنا نتأمَّل آخر هذا الاقتباس ونسأل هذا السؤال : ما الذي تفيده هذه العبارة المبتورة الواردة بعد النقط؟ عندي أنها لا تُفيد شيئاً على الإطلاق دونَ ربطها بالمحذوف المُسْتَبدل بالنُّقَط ، فهذا الجَزْم بعدم ورود «اسمه مرة واحدة» إلام يَعُود؟ وفي أي كتاب أو مَصدر لم يَرِدْ ذلك الاسم بتلك الصِّيغة بل بصيغة أخرى ؟ ذلك ما حَذَفَتْهُ المحققة الكريمة .

لقد كنتُ كَتَبْتُ ، مكانَ النُّقط الواردة في اقتباسها أعلاه بعد كلمة «الأموي» ، ما يلي : «وهو صَديق لابن قلاقس ودَارت بينهما مُراسلات استَغْرَقَتْ ما يقربُ من نصف كتاب ابن قلاقس المُؤلَّف عن صِقِلِّية : «الزَّهر الباسم والعَرْف النَّاسم في مديح الأجَلِّ أبي القَاسِم» ولم يَرِد اسمه مرة واحدة باسم ابن فَاتح بل باسم ابن أبي الفَتْح» . ذاك هو الشَّك ، وما حُذِف هو دليله ، وحُجَّتي فيه أني كنتُ أعتمدُ ما ورَدَ في كتاب لابن قلاقس نفسه ، لكن المحققة عَمِدَتْ إلى حَذْف ذلك عند اقتباسها!

ثم انتقلَتِ المحققة الكريمة فنَفَتْ شكّي في التَّصحيف وقالت بالجزْم بعدم وجوده بل تجاوَزَتْ ذلك وعدَّتْ ما أراهُ ضرباً من الوَهْم : « ... والمهم والأكثر وضوحا في الوهم هو ما ذَهَب إليه الكاتب الكريم من أن ابن فاتح هو من تحريف وتصحيف النساخ أيضاً ... ذلك أن ابن فاتح هو رجل آخر غير هذا وليس اسمه بالمحرف ولا المصحف وأين ابن أبي الفتح من ابن فاتح» .

وقد أيَّدَتْ مَقُولتها تلك بأمْرين : الأول : أن «ابن فاتح» فقيه

أديب وشاعر وكان من أصدقاء الشاعر وكانت بينهما مراسلات شعرية غير قليلة» .

الثاني : أن اسمَهُ قد ورد في الديوان في سبعة مواضع باسم «ابن فاتح» لا «ابن أبي الفتح» .

ثم بعد ذكر صفحات تلك المواضع السَّبعة في الديوان استفهَمَتْ : «فهل هذا كله «تحريف» و «تصحيف» من النساخ لاسم أبي الحسن علي بن أبي الفتح الأموي إلى آخر ما قرر الكاتب الكريم» .

قلتُ : إن كانت تَسْألني رأيي فالجوابُ : نَعَمْ . ولَدَيَّ شبهُ يَقين أن المحققة الكريمة ستقول بالجواب نَفْسِه لو تابَعَتِ المُناقشة :

أ ــ أمّا أن لا يكونَ هناك «تصحيف» ولا «تحريف» في الاسم فذلك ما لا ينبغي الجَزْم به ، وربَّما كانَ استخدام «لَعَلَّ» و «ربَّمَا» أكثر فائدة في مثل هذه المواطن من البحث العلمي . وعلى كل فإن أحداً لن يَتَّفق معها باستبعَاد إمكانية حصول «التحريف» أو «التصحيف» بين الاسمين؛ «ابن فَاتح» و «ابن أبي الفَتْح» إذ لو لم يكن بينهما سوى الاشتراكُ في الاشتقاق لكفى .

ب ــ أمَّا ما ذَكَرَتْهُ من كون ابن فَاتح فقيهاً شاعراً مُراسلاً لابن قلاقس فهذا أيضاً لا يمنع وقوعَ «التصحيف» و «التحريف» في الاسم . وابنُ أبي الفَتْح الأموي ذَكَرَهُ ابن قلاقس في كتاب الزهر الباسم ، صفحة ٢٤ ، ووصَفَهُ بالصفات نَفْسِها فقال :

«وأدخلُ ها هُنَا فيما جَرَى بَيْني وبَيْنَ الفَقِيهِ الشَّيخ النَّبيه أبي الحَسَن عليِّ بن أبي الفَتْح الأَموي ، حَدَقَة العِلْم النَّاظرة ، وحَديقَة الأدب النَّاضرة .»

ثم دخَلَ في مُراسلاتهما الشِّعرية والنثرية في صفحات استَغْرَقَتْ ما يَقرب من نصف الكتاب .

جـ ــ كذلك فإنَّ ورودَ تلك القصائد التي أشارَتْ إلى مَواطنها السبعة في الديوان، والمُوَجهة من ابن قلاقس إلى «ابن فاتح» ليس أيضاً حُجَّة على عَدَم وقوع «التصحيف» و «التحريف» ؛ فقد وَرَدَتْ هذه القصائد نفسُها في كتاب الزَّهر الباسم (باستثناء بيتين) موجهة إلى «أبي الحَسَن بن أبي الفتح الأموي» لا إلى «ابن فاتح» . (انظر : الزَّهر الباسم : الصفحات ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٥ ــ ٤٦ ، ٥٣ ــ ٥٥ ، ٥٥ ــ ٥٦) .

وهذه الصفحات من كتاب الزَّهر الباسم أو ما قبلها أو بعدها تحتوي أيضاً على القصائد الأخرى المُكمِّلة لها والمُوَجهة من أبي الحَسَن بن أبي الفتح الأموي إلى ابن قَلاقس .

وللمحققة أن تَدَّعي عكس ما أراهُ ، وهو أن «التَّصحيف» أو «التَّحريف» قد وقع في كتاب الزَّهر الباسم وليس في الديوان ولا في التَّرسل ، غير أن هذه الحجة مردودة لأننا لا نجد ، فيما بينَ أيدينا من مصادر ، مصدراً واحداً يُتَرجم لابن فَاتح في حين نَجِدُ أن العمادَ الأصبهانيَّ في خريدته تَرجم لابن أبي الفتح الاموي وليس لابن فاتح ، وذكر العمادُ صداقةَ ابن أبي الفَتْح لابن قَلاقس في صِقِلِّية كما ذكر قِطَعاً من مُرَاسلاتِهما الشعرية والنَّثرية . وتبدو المحققة وكأنَّ لديها من العلم ما ليس عندي وذلك حين تَجْزم وتقول في موطن مُدَافعتها لوجود «التَّصحيف» أو «التَّحريف» : « إنَّ «ابن فاتح» هو رجلٌ آخرُ غيرُ هذا وليس اسمه بالمحرف ولا المصحّف »

وسياق عبارة المحققة يدل على أنها تملك ترجمة لكليهما ؛ «لابن فاتح» «ولابن أبي الفَتْح» وليتها ، إذاً ، تدلُّنا على ترجمة للأول منهما تؤيد بها ما ذَهَبَتْ إليه غير تلك الترجمة «لأبي الحَسَن الصقلّي» المتوفَّى قبل ولادة ابن قَلاقس والتي أحالتنا عليها في كتاب معجم الأدباء كما ذُكر أعلاه .

وبعد : فعندي أن المحققة الكريمة تتعصَّب لرأيها هنا تَعَصُّباً شديداً ، وتُصِرُّ عليه إصراراً عنيفاً .

ولعل القارىء الكريم قد لاحظ معي شدة هذا التعصب وعنف هذا الإصرار في نفي وقوع التصحيف والتَّحريف في اسم «ابن فاتح» .

ولقد رأيتُ أن أبدأ الردَّ على رَدِّها بالمُجادلة بالدَّليل ، والمُقارعة بالحُجَّة ، والمُناقشة بالمَنْطق .

وأظن أن ما ورد في ما تقدم كافٍ لإقناعها بأن التَّحريف قد وقع في اسم ابن فاتح وأن الراجح هو كونُهُ ابن أبي الفَتْح .

أما إن أصرَّت على ما قَرَّرَتْهُ في رَدِّها بأن «ابن فاتح هو رجل آخر غير هذا وليس اسمه بالمحرف ولا المصحف» فما رأيها إذا قلتُ لها إن إصرارَهَا هو من باب التناقُض الفاضح والتَّعَصُّب الأعمى لأنها هي نَفْسُها تُوافقني بصريح العبارة في القَوْل بأنَّ «ابن فَاتح» هو«ابن أبي الفَتْح» ورأيُها هذا مطبوع منشور في الجزء الأول من الديوان الذي حَقَّقَتْهُ !

كيف ؟

لو رجعنا إلى الجزء الأول من الديوان ، بتحقيقها ، صفحة ٢٧٢ ، لوجَدْنَا أنَّ القصيدة **رقم ١١٣** قد جاءت مُقَدمتها كالتالي : «وقال أيضاً وكتَبَ بها إلى أبي الحَسَن علي ابن أبي الفَتْح بن خلف الأموي جواباً لما كتَبَ به إليه» .

وأسألُها : من هو أبو الحَسَن علي بن أبي الفَتْح بن خَلَف الأُمَوي ؟

لقد عرَّفَتِ المحققة به في الهامش رقم ١١٣ معتمدة على ترجمة العماد الأصبهاني التي مَرَّ ذِكْرُها ، والواردة في كتاب الخريدة ، ١ :

١٦٦ ــ ١٦٨ . وهي ترجمة كافيةٌ وافية .

ولو رجعْنا أيضاً إلى الجزء الأول من الديوان ، بتحقيقها ، صفحة ٢٧٢ ، لوجدنا أن القصيدة **رقم ١١٤** ، وهي التالية للقَصيدة السَّابقة ، قد جاءتْ مُقدمتها كالتالي : «وأجابَ الفقيه أبَا الحَسَن بن فَاتح عن قصيدة كتب بها إليه على الوزن أيضاً» .

وأسألُهَا أيضاً : من هو أبو الحَسَن بن فَاتح ؟

لقد عرَّفت المحققة به في الهامش رقم ١١٤ فقالت :

«يقصد به : علي بن أبي الفَتْح بن خَلَف الأموي» !

ألم أقل لها بأنها ستوافقني في النهاية بأن «ابن فَاتح» هو «ابن أبي الفَتح بن خَلَف الأموي»؟!

عجيبٌ جداً أن تتفق المحققة معي اتفاقاً تاماً عام ١٩٨٢م عند نَشْرها للديوان وتعارضني معارضة شديدة عام ١٩٨٦م عند طَرْحي شبهة وجود التَّصحيف أو التَّحريف في اسم «ابن فاتح» من غير أن تُقَدِّم تعليلاً مقنعاً لاعتراضِها يجعلها تَجزِم هذا الجزم الصارم بأن «ابن فَاتح رجل آخر غير هذا وليس اسمه بالمحرف ولا المصحف؟»

أهذا هو النقد العلمي الذي وَعَدَتْ به المحققة في فاتحة رَدِّها؟

أتركُ الحكم للقارىء الكريم .

سادساً :

عند حديث المحققة عن مَمدوحي ابن قلاقس في اليَمن ذَكَرَتْ أنه مَدَح «القاضي الأشرف بن الحُبَاب» و «الخليلَ بن عزام» . وقد كانت لي ملاحظتان على ما أوْرَدَتْهُ :

أ ــ لقد صَحَّحْتُ قراءة اسم الشخصية الثانية وقلتُ إن الصواب «ابن عَرَّام» .

وقد رَدَّتِ المحققة على ذلك فقالت : «إن الخطأ في مثل هذا التصحيف ــ إذا صح ــ سهل وأقول «إذا صح» لأنه يفتقر إلى التوثيق من مصادر تنص على أحدهما بصريح العبارة فأين هو؟»

قلتُ : وأنا أتفقُ مع المحققة بأن التصحيف هنا سهلٌ لأن الأمر ربما لا يعدو أن يكون مجرد تطبيع من الناشر . أمَّا وقد ادَّعت الشك في صحة التصحيح «لأنه يفتقر إلى التوثيق من مصادر تنص على أحدهما بصرِيح العبارة» فإليها التوثيق :

وَرَدَتْ له ترجمة عند العِمَاد الأصبهاني في خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ، الجزء الثاني، الصفحات ١٦٥ ــ ١٨٥ . والنشرة المشار إليها هي نشرة لجنة التأليف والتَّرجمة والنَّشر الصادرة بالقاهرة سنة ١٩٥١م ، والتي حقَّقَهَا الأساتذة أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس ، وهي تنص نصاً بيناً على أنه ابن عَرَّام ، بالرَّاء المهملة لا ابن عزام ، بالراء المعجمة . وربما ادَّعَتِ المحققة أن تصحيفاً وقع في عُنوان الترجمة في الخريدة ، ولذلك أنقلُ لها نصاً يؤكد ، بطريقة لا تَقْبَل الجدل ، عدم وجود تصحيف أو تحريف في العنوان : يقول العماد ، ٢ : ١٦٥ ــ ١٦٦ : « ... فلابن عَرَّام في مَيْدانِ النَّظْم عُرام، وبابْتِكَارِ المَعاني الحِسَان غَرَام ، و لَرَوِيَّتِهِ في إذكَاءِ نَارِ الذَّكاء ضِرَام ، والمُلوكُ باصطِنَاع أمثالِه يقالُ لهم كِرَام ، وكلُّ سِحْر وخَمْرِ سوَى مَنْسوج فِدَامه وَمَمْزوج مُدَامه حَرَام ...» .

لو كانت صحةُ الاسم هي «ابن عَزَّام» لا «ابن عَرَّام» فكيف يَتسق نَسَق السَّجع في ذلك النص ؟ أقصد الكلمات : عَرَّام ... عُرَام ... غَرام ... ضِرَام ... كِرَام ... حَرَام .

وإضافة إلى هذه الترجمة عند العماد ، وهذا النص المُقْتَبسُ منها ، فإني أحيلُ المحققة الكريمة أيضاً على كتاب الأدْفوي ، كمال الدين جعْفر بن ثَعْلب ، والمُسَمَّى : الطَّالع السَّعيد ، الجَامع لأسماء نُجَباء الصَّعيد ص ١٩٨ ، والكتاب من منشورات الدار المصرية للتأليف والترجمة، وصدر بتحقيق الأستاذ سعد محمد حسن ومراجعة الأستاذ الدكتور طه الحَاجري وصَدر في القاهرة سنة ١٩٦٦م . وستجدُ فيه ترجمة لابن عرَّام لا ابن عزَّام .

أقول : عسى أن يكون هذا التوثيق كافياً .

ب ــ أما الملاحظة الثانية فكانت حول عدِّها هاتين الشخصيتين من الشَّخصيات اليَمنية . وقد كنتُ نَبَّهْتُهَا ، فيما كَتَبْتُ ، إلى مُجَانبتها للصواب، ذلك لأن هاتين الشخصيتين مصريتان لا يمنيتان ، فالأشرفُ بن الحُبَاب ممن ذَكَرَهُمُ العِمَاد الأصبهاني في خَريدته ، قسم شعراء مصر ١ : ١٨٩ ــ ١٩٢ وكذلك ابن عرَّام كما فَصَّلْتُ آنفاً .

وقد حَاولتِ المحققة في ردها أن تُعَلِّل لذكرها للأشرف بن الحُبَاب وعَدِّها إيَّاه من الشخصيات اليَمنية فقالت : «ومن الجائز أن يكون هذا في اليمن إذ ذاك فمدحه ، وكم أمثاله بين ظهرانينا من رجالات الوطن العربي اليوم يحيون بيننا حياة طيبة في إقامة طويلة تكاد تجعلهم من مواليد بلدنا» .

قلتُ : وكأنَّ المحققة لم تقرأ ، أو تَجاهَلَتْ ، ما كَتَبْتُه وما احتَجَجْتُ به من استحالة كونِهِ في اليَمن أو كونِهِ يَمَنياً؟

لقد قلتُ مانصه : «فالأشرف بن الحُبَاب ليس يَمَنياً بل هو مصريٌ وممن عارضوا ابن قلاقس في رحلته إلى اليمن ولاموه عليها . هذا ابن قلاقس في تَرَسُّله يقول ، في رسالة طويلة ، وجَّهها إلى هذا القَاضي الأشرف : «كِتَابي أطَالَ الله بَقَاء سَيِّدِنا القَاضي ، وكَأنِّي به يقولُ : مَثَلُ هذا البائس في الاغْتِراب مَثَلُ الغُراب ... كان في سَفَري تِلْقَاء الملوكِ ما أرْدَفَ الغُرَّة بالتَّحجِيل ... ويَكْفي سَيِّدنا أنِّي وَطِئْتُ **من اليَمَن** عَتَبَةً صارَتْ مَرتبةً ... وذلك أنِّي نَزَلْتُ من الشَّيخ السَّعيد يَاسِر بن بلال ؛ مَلِكاً صِلاتُهُ كَصَلاتِهِ ...»

أيُعْقَلُ بعد هذا أن يكونَ الأشرف بن الحُبَاب يمنياً أو مُقيماً في اليَمن ؟

أمَّا ابنُ عزّام فقد غَفَلَتِ المحققة الكريمة عن التَّحجج ليمنيَّته أو إقامته في اليَمن . وحتى لا تعود فَتَحْتَجَّ له بمثل احتجاجها للأشرف ابن الحُباب أقول : إنه مصري كما مَرَّ ، وأمْرُ إقامته في اليمن مجزومٌ بعَدَمه ، فقد أقامَ في الصَّعيد ولم يُغادِرْها إلا ما قَلَّ . يقول العماد الأصبهاني في مقدمة تَرجمتِهِ له في الخَريدة ، قسم شعراء مصر (٢ : ١٦٥) : «شيخٌ من أهْلِ الأدب **مقيمٌ** بأسوان ...**هَجَرَ في لُزومِ وَطَنِهِ الرَّحلَ والقَلُوص**» .

سابعاً :

كنتُ ، فيما كتبتُ ، أخذتُ على المحققة الكريمة ، وهي تُقدِّم رسالة للدكتوراه بجامعة القاهرة ، عدمَ اطِّلاعها على كتاب هامّ مخطوطٍ من كُتُب ابن قلاقس هو «تَرسلة» المحفوظ في المكتبة التيمورية بدار الكتب بالقاهرة . وليس ذلك فَحَسْب، بل إنها عندما تحدَّثَتْ في مقدمتها عن «آثاره الفنية» وأرادت وصفَ «الترسُّل» عَمِدتْ إلى وصف نسخة ذلك المخطوط بما هو موصوف به في كتاب الأعلام للزِرِكْلي . وقد بيَّنتُ للمحققة بياناً واضحاً مفصلاً خطأ ما عَمِلَتْهُ ، وأن ما ورد عند المرحوم الزِرِكْلي هو وَصْفٌ لنسخة أخرى عنده وله ، غير نسخة التيمورية ، وقد عَدَّدْتُ لها أسباباً وفروقاً مقنعة لا تقبل الجدلَ، أهمها وجود النسختين التيمورية والزِرِكْليَّة معاً ، ولدي صورة لكل منهما .

وكنتُ قلتُ : «وهذا الوصف منها لهذا المخطوط قادني إلى استنتاج لا مراء فيه : وهو أن المحققة الكريمة وهي تُقدِّم رسالة علمية عن ابن قلاقس ، في جامعة القاهرة ، لم تطَّلع على مخطوط من تأليفه لا يبْعد مكانُه عنها بضعة كيلومترات . لقد حَدَّثَتْنا المحققة الكريمة في مَطْلع مقدمتها عما لاقَتْه من عناء ومشقَّة ، تشكر عليهما ، في سبيل الحصول على مصورة من نسخة الديوان المحفوظة في مكتبة (لينينجراد) ، لكنها حَسْبَ ما استنتجته ، لم تكلف نَفْسها أي جَهْد في سبيل الاطلاع على مخطوط «ترسُّل ابن قلاقس» المحفوظ في المكتبة التيمورية ... بالقاهرة خاصة وأن هذا الكتاب مهم جداً ، فهو يحوي أشعاراً كثيرة جداً ، إضافة إلى أن محتوى رسائله يُلقي ضوءاً على كثير من صِلاته وعلاقاتهِ برجال عَصْره» .

وقد وَصَفتِ المحققة الكريمة هذه الملاحظة بأنها سُخريةٌ بها وتنديدٌ ، ثم تَسَاءَلَتْ : «ولست أدري أيعد القراءُ هذا الضَّرب من الكلام له حظ من النقد العلمي؟» .

قلت : وأنا أتساءل معها أيضا!

وأضيف سؤالا آخر :

أيَعُدُّ القُرَّاء هذا الكلام ضرباً من «السُّخرية» و «التَّنْديد»؟

قلت : ولا أزالُ أُلِحُّ بأن عَدَم اطلاعها على مخطوط الترسُّل الموجود لديها في القاهرة هو ضَرْب من التَّقْصير ، ولا أشك في أن المحققة الكريمة تعرف ذلك جيدا ولذلك فإننا لا نَسْتغرب عندما نَجِدها تَعْتذر عن هذا التقصير فتقول : « ... والأمر في جملته ليس أمر قرب المكان أو بعده ، فرب مكان قريب منك يعسر عليك حصول ما تطلبه من مظانه وهذا ما حصل لي خلال المدة التي أقمتها في القاهرة واستغرقت مجهودي كله في طلب نسخ الديوان ... وفي نسخه ومقابلته وتحقيقه وضبطه وطبعه»

قلت : ولعل القارىء الكريم قد استخلص ما استخْلصتهُ وهو أن عُذرها في عدم الاطلاع على مخطوط التَّرسل الموجود في القاهرة يعود لأحد سببين :

أ ــ صُعوبة الاطِّلاع على المخطوطات الموجودة في دار الكُتُب بالقاهرة .

ب ــ انشغال المحققة الكريمة **كل الوقت** أثناء وُجُودها في القاهرة لدراسة الدكتوراه بحيث لم تَجِد فرصة تزور فيها دار الكتب المصرية وتَطَّلع على مخطوط الترسُّل وتَصِفُه لنا وصفاً صحيحاً ، إن لم تُرِدِ الاستفادة منه .

فأمَّا السببُ الأول فمرفوض ، إذْ لا توجد صعوبة تَقِف في سبيل الراغبين في الاطِّلاع على مخطوطات دار الكتب، فقد زُرْتُ الدار واطَّلعت على مخطوط «التَّرسُّل» بل وحصلتُ على نسخة منه على شريط (مايكروفيلم) .

وأمَّا السبب الثاني فأترك للقراء الكرام مسألة قبوله أو رفضه !

بقي أمرُ دعواها بأنّي قد نَدَّدْتُ بالزِرِكْلي يرحمهُ الله ! قالت : «ثم أخذ يندد بالزركلي رحمه الله» .

قلتُ : لا أشُكُّ أن هذا «سوء فهم» من المحققة الكريمة إذ لم أقُلْ كلمة قَدْح واحدة في الزِرِكْلي يرحمه الله، وما قلته موجود منشور مطبوع . لقد خَطَر في ذهني أن هذه العبارة هي من باب «الاستعداء» وأربأ بالمحققة الكريمة أن تكون أبوابُ النقد العلمي قد ضاقت بها لتلجأ إلى هذا الباب .

ثامناً :

بقي الرد على بعض قضايا كنتُ طرحتُها حول عدم صحةِ نسبةِ بعض الأشعار إلى ابن قَلاقس وسأتناولها واحدة واحدة :

١ ــ كنتُ أشرتُ إلى عدم صحة نسبة البيتين الآتيين إلى ابن قَلاقس والواردين في الجزء الأول من أصل الديوان ص ص ١٨٤ ، ١٨٥ :

بَلَدٌ أَعَارَتْهُ الحَمَامَةُ طَوْقَهَا ... وكَسَاهُ حُلَّةَ رِيشِهِ الطَّاوُوسُ

فكَأنَّما الأنْهَارُ منهُ سُلافَةٌ وكَأنَّ سَاحَاتِ الرِّياضِ كُؤُوسُ

والبيتان ، كما تقولُ المصادرُ ، وكما تقولُ حاشية المخطوط ، هما لابن اللَّبَّانة .

وقد احتَجَّت المحققة في رَدِّها احتجاجاً شديداً على مؤاخذتها في نسبة هذين البيتين — وأبياتٍ أخرى آتية — إلى ابن قلاقس ، فقالت :

«لقد جانب الكاتب الكريم الواقع ونسب إليّ ما ليس لي ولا مني ، وإنما ذلك ما ثبت في نُسَخ ديوان الشاعر كلها ... على أني كتبت في الحاشية هذا التعليق : «وردت في المختار وفي الخريدة ص ١٥٢ . ج . ورد في الهامش هذان البيتان لابن اللبانة في جملة قصيدة» ذكرها صاحب الخريدة على أنها لابن قلاقس ص ١٥٢» .

قلت : وإذا استبعدنا نَدَّات المطابع فإني أوضح الآتي :

١ — ورَدَ في حاشية المخطوط تعليقٌ واضح يشير إلى أن البيتين لابن اللبَّانة . والمحققة ، كما يدلُّ نصها أعلاه ، توافقني على هذا ، وإذا كانَ ذلك كذلك فلماذا لم تعُدْ عند تحقيقها ، إلى شعر ابن اللبانة وإلى المصادر الأخرى تَسْتَفتيها في مدى صحة ما وَرَد في حاشية المخطوط من نسبة البيتين إلى ابن اللَّبَّانة . وإذا صح أنهما له ، فمن غير المعقول إذاً أن يُنْسبا إلى ابن قلاقس حتى وإن وجدناهما فيما سَمَّيناه «أصل الديوان» اللهم إلّا إذا كان هذا «الأصل» بخَطِّ ابن قَلاقس نفسه — وهو قطعاً ليس بخطِّه بل جُمِع بعده . وحتى لو كان بِخَطِّه ووجدنا هذين البيتين في ديوانه وفي شعر ابن اللَّبانَّة ، والأخير سابق زمنيا ، فهما ليسا لابن قلاقس، وعندئذ ندخل في باب السرقات الأدبية وهذا موضوع آخر .

قلت : والبيتان في شعر ابن اللَّبَّانة وقد أحلْتُ المحققة على شعر الشاعر وذكرتُ لها الصفحةَ والمحققَ ومكانَ النشر وزمانَه، كما أحلتها إلى ابن سعيد في كتاب «المُغْرب في حُلَى المَغْرب» وذكرتُ لها أيضاً الصفحةَ والمحققَ ومكانَ النشر وزمانَه .

وقد نصَّ ابن سعيد على أن وفاة ابن اللَّبَّانة كانت في سنة ٥٠٧هـ ، أي قبل ولادة ابن قَلاقس بخمس وعشرين سنة .

هل يُعْقَل بعد هذا أن يكون البيتان لابن قَلاقس ؟

إنهما — والأبيات الآتية للمتنبّي والصَّابىء — من ضمن ما ضَمَّنَه ابن قَلاقس من شعرِ لغيره في نَثْره ، وكلُّ هذه الأبيات موجودة في كتَابَيْ التَّرسل والزَّهر البَاسم ضمن بعض رسائله .

إن وجود شعر في ديوان ابن قلاقس ليس له ، ومُنَبَّهٌ في حاشية المخطوط بأنه ليس له ، لا يُعْفي المحققة الكريمة من المشاركة في خطأ نسبة شعر إلى ابن قَلاقس وهو ليس له . وإلّا فما معنى التحقيق إذاً ؟ أهو يقف عند مهمة إفراغ المخطوط وطبعه وتسويقه ثم بعد ذلك نَتَبَرَّأ منه ومما وقع فيه من أخطاء بحجة أن هذا هو ما وجدناه في النص المَخْطوط ؟

أظن أن الأعراف العلمية تُلزِم المحققة باستخراج الشعر الذي يثبت لديها ، بما لا يَدَعُ مجالاً للشَّك ، بأنه ليس للشاعر ، أو مشكوك في نسبته إليه ، وإفراده في صفحات ملحقة بآخر الديوان حتى لا تَخْتلطَ الأشعارُ ونسبتُها بين الشعراء .

وعندي أيضا أن الخطأ ليس خطأ المحققة الكريمة لكنه خطأ جامع الديوان، فقد عَمِد — فيما وَصلتُ إليه — إلى جَمْع الأشعار التي وجَدَها في الترسل والزَّهر ، وبعضُها ، كما قلتُ ، مما ضَمَّنه ابن قلاقس في نَثره ، فجعلَهَا جامعُ الديوان من أشعار ابن قلاقس وأدخلَها في أصل الديوان .

ثم إن قولَ المحققة الكريمة بأن صاحبَ الخَريدة ذَكَر البيتين على أنهما لابن قَلاقس ليس صحيحاً، وإنما أوردَهُما العمادُ ضمن نَص نثري نَقَله — كما يقول — من كتاب الزَّهر الباسم لابن قَلاقس ، وعليه فهما مضمنان وليسا من شعره، وإلا فكيف نجدهما في شعر ابن اللَّبَّانة المتوفَّى قبل ولادة ابن قَلاقس؟

٢ — في صفحة ٢٠٦ من الجزء الأول من الديوان وردَ البيتان الآتيان منسوبين لابن قَلاقس ضمنَ قصيدة له يمدحُ بها ياسر بن بلال وزير صاحب عدن :

نِعَمُ اللهِ فيكَ لا تَسْأَلُ اللّـ ـهَ إليها نُعمَى سِوَى أنْ تَدُومَا

وَلَوَ انّي فَعَلْتُ كنتُ كَمَنْ يَسْـ أَلُهُ وهو قَائمٌ أن يَقُومَا

وقد وضحتُ للمحققة ، فيما كتبتُ ، أنهما ليسَا لابن قَلاقس بل هما لأبي تَمَّام وأحلتُها إلى ديوانه ٣ : ٢٣٠ ، كما أحلتها إلى كتاب التَّرسل لابن قَلاقس وقلتُ إنه ضَمَّنَهُما في كتابه هذا، في ختام رسالة بعثَ بها إلى ابن خُلَيف فقال : «فأمَّا أن أسْألَهُ في أنْ يُكْمِلَ أوصافَها فهي كما قَال حَبيب :

نعمة الله ...

وَلَوَ انّي ... »

وقد ردَّت المحققة على ملاحظتي تلك فقالت : «وأقولُ : إن هذا هو واقع الديوان في النسخ كلها أيضا فليس هو مني في شيء كالذي سبق في الفقرة الأولى» .

قلتُ : والرَّد على هذه الفقرة كالرد على مثيله في الفقرة الأولى .

وأُضيف : ولم تَذْكر المحققة في حاشية تحقيقها أية إشارة إلى أن البيتين لأبي تمام .

٣ — وتحدثتُ عن بيتين وردا في الديوان ، الجزء الأول ، صفحة ١ : ٢٦٤ ونُسبِا لابن قَلاقس وهما :

نِعَمُ اللهِ كالوُحُوشِ فما تَأْ لَفُ إلّا الأخَايِرَ النُّسَّاكَا

نَفَرتْها ذنوبُ قَوْمٍ وقد مَدَّ لها البِرُّ والتُّقى أشراكا

والبيتان ، كما ورد في حاشية المخطوط ، لأبي إسحاق الصَّابىء ، وقد أحلَتْ المحققة في ذلك إلى كتاب يَتيمة الدَّهر للثَّعالبي المتوفَّى سنة ٤٢٩هـ .

وقد رَدَّتِ المحققة فقالتْ : «وأنا لم أنسب هذين البيتين إلى الشاعر وإنما هما في أصول ديوانه فأثبتهما كما وردَا فيها وكتبتُ في الحاشية هذا التعليق : القطعة لم ترد في المختار وذكر (ج) في الهامش «هذان البيتان لأبي إسحاق الصاوي» لعله الصابي»

قلتُ : والردُّ على الفقرة الأولى كَافٍ في الرَّد على هذه .

ثم تابَعَتِ المحققة الردَّ فقالت : «قال : والبيتان لأبي إسحاق الصَّابي ، وقد أوردهما الثَّعالبي برواية تَخْتلف قليلاً ثم زاد : وقد أوردهُما ابن قَلاقس في كتابه الزَّهر البَاسم يقول : فلمَّا أمْكَنَ الطَّوافُ [لَمْ] يحسُنْ دونَهُ الانصِرَاف ... فرأيتُ ذلك الجَمال الذي يُرُوقُ النَّاظر ... والعَفَاف الذي يَسْتَدْعي نَغَم النِّعم بِقَوْلِ نَعَم : نِعَمُ الله ...
نَفَرتها ...

.... وبعد إيراده هذا النص من الزهر الباسم قال : «لارَيْبَ عندي أنَّهُما من جُمْلَة ما ضمَّنه من شِعْر غيرِهِ وليسَا من شعره» وأقول (والكلام للمحققة) إن النص الذي أورده من الزهر الباسم لم يَرد فيه ذكر لأبي إسحاق الصابي عند إيراد هذين البيتين له فما وجه الاستدلال بالغائب؟»

قلت : لم أكُنْ أعتقد أن هذا يحتاج إلى شرح حتى قرأتُ ردَّ المحققة الكريمة، ذلك لأن التَّرتيب التاريخي لهذين المَصْدرين «اليتيمة» أولاً و «الزَّهر» ثانياً وذِكْرُ البيتين فيهما معاً يجيبُ على كل تَساؤل . ذلك لأن الثَّعالبي تُوفي قبل مائة عام من ولادة ابن قَلاقس، وقد نَسبَ البيتين عنده في يَتيمتِه إلى الصَّابىء نصاً . ثم وَرَدا بعد أكثر من مائة عام في الزَّهر البَاسم ضمن قطعة نَثْرية لابن قَلاقس ، فلابد إذاً أن يكونا مُضَمنين في الزهر وليسا له، لأن الثَّعالبي ، تاريخياً ، حُجَّةٌ على ابن قَلاقس ولو نَسَبهما الأخير لنفسهِ ، وهو لم يَفْعَل ، لدَخَلَ ذلك في باب السرقات الأدبية أيضاً .

٤ ــ كنتُ ذكرتُ ، فيما كتبتُ ، ورودَ البيت الآتي ، في الجزء الأول من الديوان ، صفحة ٢٨٠ منسوباً لابن قَلاقس وهو :

رُبَّ أَمْرٍ أتاكَ لا تَحْمَدُ الفعَّالَ فيهِ وتَحْمَدُ الأَفْعَالا

وقد نَبَّهتُ المحققة الكريمة إلى أن البيتَ للمتنبِّي وهو في ديوانه ٣ : ١٣٨ ، وفي الزَّهر ٣٣ مضمنا في قطعة نثرية كما بَيَّنتُ لها أنها قد أهملت في صفحة ٢٨٠ من الديوان ملاحظةً هامةً وردَتْ في حاشية المخطوط نَبَّه فيها المُعَلِّق إلى أن هذا البيت للمتنبِّي .

وقد رَدَّت المحققة على أمر نسبة البيت للمُتنبِّي فاحتَجَّتْ بمثل ما احتجَّت به في رَدِّها على الملاحظات السابقة فقالت : «لم أقل هذا وإنما هو نص نسخ الديوان»

قلتُ : ويُجاب على هذا بمثل الإجابة الواردة في الفقرة الأولى .

قلت : أمّا أمر إهمالها التعليق الوارد على هذا البيت في حاشية المخطوط ، فقد احتجَّت المحققة بحجة لطيفة تقول فيها : « ... أسلفتُ (ص ٨٩) [من المقدمة] نسبة هذا البيت إلى المتنبي استنادا إلى نسخة دبلن التي ذكرها ونصه : يقول مصححا النسبة (البيت للمتنبي) الورقة ٨٤ ففيمَ إثارة هذا الغبار؟»

قلتُ : ولَمْ أُثِرْ غباراً ولا أنوي أن أثير غباراً .

لكن أقول : أرأيتم محققاً ، أو محققةً ، يَرِدُ عنده ، أو عندها ، البيت من الشعر في الجزء الأول من الديوان وفي الصفحة ٢٨٠ منه ، ويكون التعليق على هذا البيت موجوداً في صفحة ٨٩ من المقدمة ؟ ثم مع ذلك يلام القارىء أو النَّاقد إن هو لاحظ غيابَ تعليقٍ ، موجودٍ أمامَ البيت في المخطوط ، من مكانه؟ لا ، بل ويُتَّهَمُ بإثارة الغُبَار!

وحتى لو كان هذا التعليق موجودا في مكانه في صفحة ٢٨٠ من الديوان المطبوع فإن البيت الواردَ في أصل الديوان والمنسوب لابن قَلاقس ليس له ، ولا يصح أن يكون له ، لأننا نجدُهُ في ديوان المُتَنبي كما أشرت إلى ذلك أعلاه .

وكنتُ ، فيما كتبتُ ، سألتُ المحققة الكريمة سؤالاً واضحاً لم تُجبْ عنه فقد قلتُ: «لكنها رغم نسبتِها البيت لابن قلاقس وجَعْله في صُلب ديوانه فهي لم تُعْطِهِ رقماً وقد أعطَتْ كلَّ القَصَائد والمقطوعات والأبيات المفردة أرقاماً . لماذا ؟»

لازال السؤال يعيد نَفْسَه ويبحثُ عن جواب : لماذا خَصَّت المحققة هذا البيت وحدَهُ بهذا الإهمال ولم تُعْطِهِ رقماً؟

٥ ــ كنتُ أيضاً أشرتُ إلى ورود البيتين الآتيين ضمن أصْل ديوان ابن قَلاقس ، ١ : ٢٩٨ ، منسوبين له وهُما :

تَنْشُرُ أَثْوَابُنَا مَدَائِحَهُ بِأَلْسُنٍ مَالَهُنَّ أَفْوَاهُ
إذَا مَرَرْنَا عَلَى الأَصَمِّ بِهَا أَغْنَتْهُ عن مِسْمَعَيْهِ عَيْنَاهُ

وقلت للمحققة : إن البيتين للمتنبي وأحلْتُها على ديوانه ٤ : ٢٦٤ ، وعلى التَّرسل ٣٧.

وقد علَّقَتِ المحققة في حاشية الديوان على البيتين فقالت : «وتوجد عبارة في الحاشية تقول (هذا البيتان ... من جملة قطعة) ولم يتضح المكتوب بعد البيتان»

وقد بَيَّنْتُ لها ــ فيما كتبتُ ــ أن العبارة واضحةٌ وأن نصَّ حاشية المخطوط هي «هذان البَيْتان للمتنَبي من جملة قصيدة» .

وقد علَّقَتِ المحققة في ردها على هذه الملاحظة فقالت :

«كما لم أنسب البيتين كذلك إلى ابن قلاقس وإنما أثبت رواية الديوان .. ثم سقت الذي كتب في المخطوطة بصورته أداء للأمانة العلمية كما هي» .

قلت : ويُرَدُّ على صَدْر هذه العبارة بما رُدَّ به على ما وَرَد في الفقرة الأولى من الفقرات السابقة . أمَّا عَجُزها فلعَلَّ في تَوْضيح قراءة العبارة لها وإثبات أن البيتين للمتنبي ، كما وَرَد في ديوانه ، ما يُقْنِعُها بصحة نسبة البيتين له لا لابن قلاقس .

وبعد ، فهذه ملاحظات أخرى يَسيرة أجبْتُ بها على رَدِّ المحققة وقصدتُ بها ومنها بيان الحقيقة كما أراها لا غير .

وأخيراً ، وليس آخراً ، فإني لازلت آمل أن أجد مزيداً من الوقت لإعادة قراءة الديوان قراءةً متأنية ، وخاصة بعد أن يَخْرج الجزء الثاني الذي لا يزال ، كما علمت ، تحت الطبع ، بعد ذلك سأعود للكتابة، وسيكون لنا لقاء علمي آخر إن شاء الله .

والله وحده الهَادي والمُوفق، وله وحده الكَمال .

الهوامش

* نشر الكاتب نقداً للديوان في الجزء الأول من المجلد الثامن والعشرين من مجلة معهد المخطوطات العربية التي تصدر في الكويت الصفحات ٣٥٣ ـ ٣٦٦ . ثم ردت محققة الديوان الدكتورة سهام الفريح على ذلك النقد في الجزء الأول من المجلد الثلاثين الصفحات ٣٨١ ـ ٣٩٠ . وهذا رد على الرد.

(١) كنت كتبتُ : «من تصحيف وتحريف النسّاخ» وقد صَحَّحَتني المحققة الكريمة فلها الشكر الجزيل على ذلك .

الشعر الجاهلي لمحمد عبد المطلب

عبد الجليل هنوش

مصطفى ، محمد عبد المطلب/الشعر الجاهلي .ـ بيروت : دار الأندلس ، ١٩٨٤م

يقترن السطو في أمة من الأمم بفساد الحياة الأدبية والثقافية فيها ، إذ ليس في النهاية إلا مظهراً من مظاهر ذلك الفساد . ولا يميل إلى السرقة والسطو إلا النفوس الضعيفة ، أما النفوس الأبيّة المعتزة فإنها تستهجن ذلك العمل وتنبو عنه ولاترضاه . ويذكر الأستاذ محمود محمد شاكر في مقدمته القيّمة لكتابه « المتنبي » أن أول من بعج سبيل السطو وبسط أفانينه أمام الجيل المعاصر طه حسين بأسلوبه الذي سار عليه في السطو على آراء المستشرقين ونقلها إلى اللسان العربي دون إشارة إلى أصحابها وأربابها ، كما كان فعله المفضوح في الكتاب الذي سماه « في الشعر الجاهلي » .

وسوف نعرض هنا لكتاب صدر عن دار الأندلس ببيروت سنة ١٩٨٤م في حلة قشيبة ، يحمل عنواناً عريضاً هو « اتجاهات النقد الأدبي في القرنين السادس والسابع الهجريين » ذكر صاحبه وهو الدكتور محمد عبد المطلب مصطفىٰ ، أن كتابه كان في أصله رسالة علمية حصل بها على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى . ويقع الكتاب في حدود مائتي صفحة .

وقد ظهر لي أثناء قراءة الكتاب أنه من كتب السطو والإغارة ، فهو كتاب سداه ولحمته من كلام الآخرين . ولو كان الأمر يتعلّق بكتاب عادي قذفت به المطبعة إلى السوق لهان ! لكن الأمر ـــ للأسف ـــ يتعلّق برسالة علمية ، بل بأعلى رسالة علمية يأخذ بها صاحبها شهادة دكتوراه .. وهذه هي الكائنة ! (الكائنة بمعنىٰ داهية) ، ولست أدري ـــ في هذا الزمن الغريب ـــ كيف يموت الضمير العلمي إلى حد أن يتقمم شخص آراء الناس ويجمعها في كتاب تناقشه لجنة علمية ـــ يفترض فيها الإلمام والخبرة والعلم ـــ فتجيزه ، دون أن يتنبه أحد إلى أن الرسالة التي يجيزونها ليست إلا سلخاً لكتب مطبوعة من زمان بعيد، يعرفها كل شادٍ متعلم، فضلا عن الراسخ المتخصص .

وينبغي أن أنبه بادىء ذي بدء إلى أنني لست أريد الإساءة إلى صاحب الكتاب ، فليس ذلك من شأني ، إذ لا يهمني اسمه ـــ وليس بيني وبينه شيء ـــ وإنما تهمني الظاهرة في حد ذاتها ، التي يعلم الكثيرون أنها استشرت في كثير من الأمصار ، وإن الذي يحزّ في القلب حقاً أن يكون لها مكان في جامعات العلم ومعاهده . فليس يهمني الشخص إذن ، وإنما يهمني أمر العلم الذي أُهدِرَتْ قيمه وذُبِحَتْ كرامته في مذابح الشهرة والتجارة . فالعلم ـــ علم الله ـــ أعزُّ علينا من الأشخاص ، وفي نظرنا أن من يطعن في العلم كمن يطعن في الدين سواء بسواء ، فكما يجب النهوض لردع الطاعن في الدين يجب القيام لكبت المستهين بالعلم وقيمه ، وليست السرقة والسطو إلا مظهراً من مظاهر الإساءة للعلم وأهله .

ولن أتتبع هنا الكتاب إلا بقدر ما يسمح به المقام ، كما أنني لن أستقصي سرقاته كلها لأن ذلك يطول ، ولكن حسبي أن أنبه إلى أن أهم الكتب التي سطا عليها الرجل أربعة : **أولها** : كتاب الدكتور شوقي ضيف « البلاغة تطور وتاريخ » (سأعتمد هنا على الطبعة الرابعة ـــ دار المعارف) ، **وثانيها** : كتاب الدكتور محمد زغلول سلام « تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى العاشر الهجري » (طبعة دار المعارف) ، **وثالثها** : كتاب الدكتور عبده عبد العزيز قلقيلة « النقد الأدبي في العصر المملوكي » (الطبعة الأولى ـــ مكتبة الأنجلو مصرية ١٩٧٢م) ، **ورابعها** : كتاب الدكتور منصور عبد الرحمن « اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري » (مكتبة الأنجلو مصرية ١٩٧٧م) .

فهو يذكر الكتب الثلاثة الأولى بين مراجعه ، ولكنه عندما ينقل عنها نقلا يكون في كثير من الأحيان حرفياً يعفي نفسه من الإشارة إليها ، أو قد ينقل عدة فقرات ولايشير إلا إلى فقرة واحدة حتى يخفي سطوه . أما الكتاب الرابع فإنه لا يذكره إطلاقا ، مع أنه نقل عنه صفحات برمتها ، وستأتي التفاصيل .

أقلُّ هذه الكتب نصيباً من الأخذ هو كتاب « البلاغة تطور وتاريخ » فقد نقل عنه أربع مرات(ولست أحصي إحصاء دقيقا) ، **أولها** : عند حديثه عن كتاب الرازي « نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» والذي يشغل من كتاب عبد المطلب (من ص ٤٢ إلى ٤٤) يأخذه بالحرف عن كتاب شوقي ضيف في فقرات موزعة على الصفحات (٢٧٥ ـــ ٢٧٦ ـــ ٢٧٧ ـــ ٢٧٨ ـــ ٢٧٩ ـــ

٢٨٦) . ولا يشير إلا إلى فقرة واحدة أخذها من ص ٢٨٥ قال إنها في كتاب شوقي ضيف ، وتلك طريقة يسلكها في كل الكتاب لإخفاء السطو والسرقة . وأكثر من ذلك أنه يحاول أن يدَّعِي أنه يأخذ عن كتاب « نهاية الإيجاز » للرازي ، فعندما ذكر كلام الرازي عن المحاسن التي تنشأ بسبب الكتابة ، أشار في الهامش إلى أنه في « نهاية الإيجاز ص ٧٥» وهو خطأ ، وإنما ذلك في ص ٢٢ ، وكذلك حديث الرازي عن شروط الفصاحة أشار أنه في ص (١٥١) وهو خطأ ، وإنما هو في ص ٣٥ .

والموضع الثاني : عند حديثه عن كتاب التبيان للزملكاني (ص ٥٧ ــ ٥٨) فقد نقل الفقرتين الأوليين من كلامه عن شوقي ضيف دون إشارة (انظر شوقي ضيف ٣١٤) أما **الموضع الثالث** : فلدى كلامه عن كتاب « المصباح » لبدر الدين بن مالك (ص ٦٧ ــ ٦٩) أخذ الفقرات الثلاث الأولى عن شوقي ضيف (٣١٥ ــ ٣١٦) .

وفي **الموضع الرابع** : يأخذ عن شوقي ضيف كلامه عن « الأقصى القريب » للتنوخي (عبد المطلب ٧٧ ــ ٧٨ = شوقي ضيف ٣١٧ ــ ٣١٨) .

ويأتي بعد كتاب الدكتور شوقي ضيف كتاب الدكتور زغلول سلام ، فقد أخذ عنه كثيراً دون إشارة فيما يناهز ستة عشر موضعاً (ولست أحصي بدقة) .

ــ **الموضع الأول** : عند حديثه عن «الذخيرة» لابن بسام (ص ٣٣ ــ ٣٨) نقله نقلا حرفيا عن كتاب زغلول سلام (ص (٦١ ــ ٦٣ ــ ٦٤ ــ ٦٥ ــ ٦٧ ــ ٦٨ ــ ٦٩ ــ ٧١ ــ ٧٢ ــ ٧٣ ــ ٧٤) ، ومقارنة بسيطة بين هذه الصفحات التي ذكرتها وصفحات كتاب **عبد المطلب** تبين السطو والإغارة ، ولست أريد الإطالة بسرد النماذج . وفي هذا الموضع لا يشير إطلاقا إلى كتاب زغلول سلام ، وإنما يشير في الهوامش إلى كتاب الذخيرةوهي الإشارات نفسها التي أخذها عن زغلول . وأنا أظن أن عبد المطلب لم يطَّلِع على الذخيرة وإنما رآها من بعيد ، إذ ليس من ديدن المتسرع الذي يجمع الأفكار من أقرب سبيل أن يرجع إلى كتاب ضخم ككتاب الذخيرة ، ولذلك فقد اكتفى بما نقله عن الدكتور زغلول ، ودليلي على ذلك أننا لن نرى بعد (ص ٣٨) من الكتاب أي ذكر لكتاب الذخيرة مما يدل على أنه لم يطَّلِع عليه .

ــ **الموضع الثاني** : عند حديثه عن كتاب ابن الدهان « المآخذ الكندية من المعاني الطائية » (ص ٣٨ ــ ٣٩) ينقل حرفيا عن الدكتور زغلول (تاريخ النقد ص ١٦٤ ــ ١٦٥) .

ــ **الموضع الثالث** : عند حديثه عن كتاب أسامة بن منقذ « البديع في نقد الشعر » (عبد المطلب ٣٩ ــ ٣٠) سلخه من كتاب زغلول صفحات (٣٢٠ ــ ٣٢١ ــ ٣٢٣ ــ ٣٢٤ ــ ٣٢٥) وفي هذه المرة يشير إلى أنه أخذ عن زغلول (ص ٣٢٣ فما بعدها) لكنه أغفل ذكر ماقبلها .

واختصاراً أشير بإيجاز إلى المواضع الأخرى :

ــ عبد المطلب (٤٦ ــ ٤٨) عن زغلول (٣٣٨ ــ ٣٤١) .
ــ عبد المطلب (٤٨ ــ ٥٢) عن زغلول (٨٢ ــ ٩٢) .
ــ عبد المطلب (٥٢ ــ ٥٥) عن زغلول (٢٦٤ ــ ٢٧٢) .
ــ عبد المطلب (٥٥ ــ ٥٧) عن زغلول (١٦٦ ــ ١٧٦) .
ــ عبد المطلب (٦٤ ــ ٦٥) عن زغلول (١٩٤ ــ ٢٠٧) .
ــ عبد المطلب (٦٦ ــ ٦٧) عن زغلول (٨٠ ــ ٨١) .
ــ عبد المطلب (٦٩ ــ ٧١) فقرات عن زغلول (٢٧٥ ــ ٢٧٦)
ــ عبد المطلب (٧١ ــ ٧٣) فقرات عن زغلول (٣٠٦ ــ ٣١٢)
ــ عبد المطلب (٧٧) فقرة في أول الصفحة عن زغلول (٢٨٩).
ــ عبد المطلب (٧٧ ــ ٧٨) عن زغلول (٢٤٧ ــ ٢٤٨ .

هذا حظ الدكتور زغلول سلام من هذا الكتاب ، أما حظ الكتابين الباقيين فهو أكثر . فكتاب الدكتور قلقيلة « دراسة للنقد الأدبي في العصر المملوكي » وكتاب عبد المطلب جزء من العصر المملوكي ، إذ يدخل فيه القرن السابع على الأقل .

والمواضع التي سطا عليها من كتاب قلقيلة لن أحصيها وإنما سأمثل لها :

١ ــ (عبد المطلب ٥٨ ــ ٥٩) أخذه عن الدكتور قلقيلة دون إشارة (كتاب قلقيلة ص ٥٠) ولنقارن : يقول عبد المطلب : « ومن هذا العرض السريع لكتاب ابن الزملكاني نلحظ أن النقد عنده كان محدوداً وغير مباشر ، ومن أهم النقط **التي عالجها** في هذا المجال :

(١) مقياس جودة الاستعارة .

(٢) نصرة المعنى على اللفظ .

(٣) الدعوة إلى التركيب البديعي وقد سماه التخييل .

والملاحظ عند الرجل أنه أدخل علم الصرف في البديع ، حيث جعل الاشتقاق نوعاً منه وكسر الحاجز بينه وبين البلاغة ، وهذا خطأ واضح ، فإن التغاير بوجه من وجوه الاشتقاق هو تغاير بأصل الوضع وليس للأديب فيه أي فضل» . قارن هذا الكلام بقول الدكتور قلقيلة ثم احكم ، يقول : « أما النقد الأدبي فيه (يقصد كتاب

الزملكاني) فمحدود وغير مباشر وقد عالجناه في النقاط الآتية :

١) مقياس جودة الاستعارة .
٢) نصرة المعنى على اللفظ .
٣) التأثرية .
٤) الدعوة إلى ما يمكن تسميته بالتركيب البديعي وقد دعاه هو التخييل .

(...) وابن الزملكاني بهذا قد أدخل علم الصرف في البديع وكسر الحواجز بينه وبين البلاغة ، وهذا خطأ لأنه إذا تغاير اللفظان بوجه من الاشتقاق فإنما هو التغاير الحتمي بأصل الوضع وليس للأديب فيه أي فضل » (ص ٥٠) فافصل — أنت أيها القارىء — بين الكلامين ، ثم ترحَّم على روح الضمير العلمي . ولن أجوز هذا الوضع دون أن أنبه إلى خطأ آخر ، وهو أن عبد المطلب هنا يشير إلى كتاب «التبيان» للزملكاني فيقول في الهامش : (انظر التبيان ص ٤٦ ، ص ١٤٧ ...) وهذه الأرقام منقولة طبعا عن قلقيلة لأن هذا الأخير اعتمد على التبيان المطبوع ، وقد بحثت عن إشاراته الأخرى إلى «التبيان» فوجدته يشير إليه في ص ٨٩ و ص ٩٦ فقط ، وفي هذه الصفحات يذكر نسخة من التبيان مخطوطة ، فهو يقول في الهوامش (التبيان ورقة ٥ ...) ، وإذا بحثنا في فهرس المصادر نجده يذكر أنه اعتمد على نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٣٩٥ بلاغة . وهذا خلط واضح ، ففي الموضع الذي نقل فيه عن قلقيلة يشير إلى «التبيان» المطبوع لأن قلقيلة اعتمد النسخة المطبوعة ، وفي أماكن أخرى يذكر النسخة المخطوطة ، ولست أدري لماذا يعتمد على المخطوطة — إن كان قد اعتمدها فعلا — والكتاب محقق مطبوع، حققه الدكتور/ أحمد مطلوب وخديجة الحديثي ، وطبع سنة ١٩٦٤م أي قبل أن يكتب عبد المطلب بحثه بأزيد من عشر سنين ، فلماذا لم يعتمد هذه النسخة المطبوعة التي اعتمد المحققان في تحقيقه على عدة نسخ خطية ، منها نسخة دار الكتب رقم ٣٩٥ بلاغة ، وهذه النسخة — للعلم — متأخرة كُتِبَتْ سنة ١٣٢٨هـ ، وفي دار الكتب نسخة أخرى أقدم منها وأدق كُتِبَتْ سنة ٧٢٢هـ ، فلماذا لم يعتمد عليها الباحث إذا كان يريد الرجوع للكتاب في أصله؟!

٢ — (عبد المطلب ٥٩ — ٦٠) أخذه دون إشارة عن كتاب قلقيلة (ص ٥٢ — ٥٣ — ٥٤ — ٥٥) .

٣ — (عبد المطلب ٦١) كل كلامه عن كتاب عبد الوهاب الخزرجي « معيار النظار في علوم الأشعار » أخذه دون إشارة عن قلقيلة (ص ٥٦ — ٥٧) ، وكتاب الخزرجي هذا مخطوط ، وعدم إشارة عبد المطلب إلى نقله عن قلقيلة توحي أنه اطلع عليه ، لكنني أزعم أنه لم يطَّلِع عليه ولا رآه ، وهاك دليلي على ذلك :

— ينقل عبد المطلب في ص ١٢٤ و ص ١٢٨ من كتابه كلاما ينسبه إلى الدكتور قلقيلة ، وبالرجوع إلى كتاب هذا الأخير ص ٣٨٨ و ص ٢٨٣ رأيت أن الكلام الذي نسبه لقلقيلة هو كلام الخزرجي نقله قلقيلة عن كتاب الخزرجي المخطوط . ولما كان عبد المطلب لا يستطيع أن يكلف نفسه عناء الرجوع إلى مخطوط فقد اكتفى بالنقل عن قلقيلة .

٤ — عبد المطلب (٦١ — ٦٤) كله مسروق عن كتاب قلقيلة (٥٨ — ٥٩ — ٦٠ — ٦١ — ٦٢) ومرة أخرى دون أدنى إشارة ، وفي هذا الموضع يقسِّم الدكتور قلقيلة النقد الوارد في كتاب « الفلك الدائر على المثل السائر » لأبن أبي الحديد إلى : نقد موضوعي صائب وإلى نقد غير صائب ، فسطا عبد المطلب على هذا التقسيم وادعاه لنفسه ، وأثبت نفس كلام الدكتور قلقيلة .

٥ — عبد المطلب(٦٥ — ٦٦) أخذ القضايا النقدية التي عرض لها حازم القرطاجني في كتابه عن قلقيلة ((٦٦ — ٦٨) ، إذ لم يستطع هو أن يستخرجها أو أن يستنبط غيرها ، إذ المفروض فيه — وقد جاء بعد كتاب الدكتور قلقيلة بسنوات — أن يحاول تجاوزه لا أن يقف عنده ثم لا يقف إلا أسوأ وقوف ، وهو وقوف السارق المختلس .

٦ — عبد المطلب (٦٩ — ٧٠) ينقل فقرات برمتها عن قلقيلة (٧٣ — ٧٦ — ٧٧) دون إشارة كما هو دِيدنه .

٧ — عبد المطلب (٧١ — ٧٣) ينقل فقرات بكاملها عن قلقيلة في الحديث عن كتاب « جواهر الكنز » ، انظر قلقيلة صفحات (٨٢ — ٨٣ — ٨٤) .

٨ — عبد المطلب (٧٤) يقول : « لأن البلاغة **في رأينا** امتداد لتلك الملاحظات النقدية الأولى التي نشأت في الأدب العربي ثم تبلورت واتخذت شكل القوانين والقواعد ، ولذا نجد عند القزويني — برغم كونه رجلا بلاغيا — نظرات نقدية في المعاني والبيان والبديع ... » .

اقرأ هذا الكلام وتأمل قوله (في رأينا) ثم اقرأ قول

الدكتور قلقيلة : « ولما كان حقل البلاغة غير بعيد عن حقل النقد بل هو امتداد له ، من حيث أن القواعد البلاغية كانت في الأصل مقاييس نقدية على هيئة ملاحظات أبداها النقاد على الأعمال الأدبية ، ثم تبلورت واتخذت شكل القوانين والقواعد ، أقول : لما كان الأمر كذلك فإننا نجد عند القزويني في جهوده البلاغية كثيراً من النظرات النقدية منها ما يتخلل كلامه في المعاني والبيان والبديع ... » (ص ٨٦) وأرجو القارىء — مرة أخرى — أن يفصل ين الكلامين .

٩ — عبد المطلب (٧٤ — ٧٦) كلامه عن « الطراز » أخذه عن قلقيلة (٨٨ — ٨٩ — ٩٠ — ٩١ — ٩٢ — ٩٣) دون إشارة .

١٠ — فصل الشكل والمضمون (٩٥ — ١٠٦) مأخوذ برمته عن كتاب الدكتور قلقيلة (ص ٣٢٩ — ٣٤٩) .

ويكفي هذا عن كتاب الدكتور قلقيلة ، أما الكتاب الرابع وهو كتاب الدكتور منصور عبد الرحمٰن « اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري) ، فلتشابه العنوان ، أخذ عنه المنهج العام في الدراسة ، ثم أخذ عنه صفحات دون إشارة إلى ذلك ، بل إنه يغفل ذكر هذا الكتاب ، فلم يذكره ضمن مراجعه إخفاء للسطو .

فماذا عن منصور عبد الرحمٰن ؟

— تحت عنوان (الاتجاه اللغوي في نقد القرنين السادس والسابع الهجريين) ينقل عبد المطلب حرفياً عن كتاب الدكتور منصور عبد الرحمن ، ولنضرب مثلا :

يقول عبد المطلب ص ٨١ « ولانقصد بهذا الاتجاه اللغوي في النقد الأدبي ما عُرِفَ عن بعض اللغويين والنحاة من نظرتهم للنص من حيث الإفادة اللغوية ، وما في النص من صحة وخطأ ، أو الوقوف عند النص للتنقيب على لفظ ، أو البحث فيه عن مدىٰ مطابقته للقواعد المقررة ليتخذوا منه شاهدا يضيفونه إلى ما في ذخيرتهم من الشواهد التي ورثوها عن أئمتهم السابقين لهم ، أو يحاولون إخضاعَهُ لقواعدهم ليستنتجوا منه دليلاً على رأي قد ارتأوه يثير إعجابهم ويهز عقولهم بما فيه من قضايا نحوية وكلمات تتصل بتلك القضايا ، دون ملاحظة ما لهذه الكلمات من أثر في الفن الأدبي .

لا نرمي إلى شيء من ذلك في هذا الحديث ، لأنه ليس من النقد في شيء ، وإنما نهدف إلى شيء آخر غير ذلك أبعد وأعمق وأشمل في الفن الأدبي ، ونعني به تناول الفن الأدبي من حيث الصياغة الفنية له ، والتي يفصح بها الأديب عما يجيش في نفسه من مشاعر وانفعالات ، وما يتصل بذلك من خصائص جمالية للأسلوب .

إن اللغة لا تقتصر وظيفتها على التعبير عن الفكر فحسب ، وإنما لها إلى جانب هذه الوظيفة خصائص جمالية ، هذه الخصائص التي تعكس على اللغة قيمتها الفنية ، والتي ترتفع كي تكون مظهرا من مظاهر الجمال كبقية الفنون .

فاللغة يمكن أن تؤدي وظيفتين رئيسيتين ، قد تكون أداة للتعبير عن الحقائق والقضايا الموضوعية ، وفي هذه الحالة يكون هدفها مجرد توصيل الأفكار ونقلها .. وقد تكون ذات وظيفة عاطفية بصفة أساسية ، أي أن وظيفتها حينئذ هي التعبير عن العواطف والانفعالات وإثارة المشاعر والتأثير في السلوك الإنساني ، والواقع أن هذين الجانبين موجودان في معظم الأساليب ولكن بنسب متفاوتة ... »

قارن أيها القارىء الكريم هذا الكلام بالأصل الذي نقل عنه دون إشارة ، يقول الدكتور منصور عبد الرحمٰن تحت عنوان « الاتجاه اللغوي في نقد القرن الخامس » : « ولا نقصد من الاتجاه اللغوي في النقد الأدبي ما عُرِفَ عن بعض اللغويين والنحاة من نظرتهم إلى النص الأدبي من حيث الإفادة اللغوية ، ومدى مطابقته للصناعة النحوية ، والوقوف أمام النص للتنقيب عن لفظ أو البحث فيه عن مدىٰ مطابقته لقواعدهم المقررة ، ليتخذوا منه شاهداً يضيفونه إلى ما في ذخيرتهم من الشواهد التي ورثوها عن أئمتهم السابقين لهم ، أو يحاولون إخضاعه لقواعدهم ليستنتجوا منه دليلاً على رأي قد ارتأوه ...

لا نقصد هذا من حديثنا عن لغة الأدب ، لأنه ليس من النقد في شيء ، ولكننا نقصد به ما هو أبعد وأعمق وأشمل في الفن الأدبي ونعني به تناول الفن الأدبي من حيث الصياغة الفنية له التي يُفصِحُ بها الأديب عما يجيش في نفسه من العواطف والانفعالات ، وما يتصل بذلك من خصائص جمالية للأسلوب .

ذلك أن اللغة لا تقتصر وظيفتها على التعبير عن الفكو فحسب ، وإنما لها إلى جانب هذه الوظيفة خصائص جمالية ، هذه الخصائص تعكس على اللغة قيمتها الفنية ، والتي ترتفع بها كي تكون مظهراً من مظاهر الجمال كبقية الفنون .

فاللغة يمكن أن تؤدي وظيفتين رئيسيتين .... (إلى قوله) ولكن بنسب متفاوتة . » (عبد الرحمن منصور ص ٩٧ — ٩٨) .

فتأمل هذا السطو الجريء ، ولا يتوقف عند هذا ، وإنما يتابع السرقة والسطو . انظر (عبد المطلب ٨١ — ٨٢ — ٨٣ — ٨٤) و (منصور عبد الرحمن ٩٨ — ٩٩ — ١٠٠ — ١٠١ — ١٠٢ — ١٠٣) .

في ص ١٠٢ يقول منصور عبد الرحمن : « والكلمة هي الوحدة الأساسية التي يتكون منها التعبير ، ولقد كانت الكلمة موضع اهتمام علماء اللغة والأدب كل على حسب مجال درسه وبحثه ، تناولوها من حيث وظيفتها ومعناها وأصواتها وجرسها واشتقاقاتها وإيحاءاتها ودلالاتها ومكانتها في السياق . وللكلمة سحرها وتأثيرها في النفس الإنسانية لِما لها من قوة خفية غامضة ، هذه القوة التي جعلت الإنسان يهابها ... وللكلمة في جمال الأدب ودرسه مكانة خاصة وإيحاءات ودلالات تخرج بها عن كونها مجرد وحدة لغوية إلى ما هو أبعد أثراً وأقوى دلالة . إن للكلمة المفردة قيمتها في الشعر ، وتكون أهميتها ومنزلتها بقدر إحسان الشاعر في اختيارها ووضعها في العبارة » .

سطا عبد المطلب على هذه الفقرة فصارت عنده كما يأتي :

« وقد درس نقاد القرنين السادس والسابع الكلمة بحسبانها الوحدةالأساسية التي يتكون منها التعبير ، كانت الكلمة موضع اهتمامهم فدرسوها من حيث أداء وظيفتها ومعناها وأصواتها وجرسها وتصريفها واشتقاقها وإيحاءاتها ودلالاتها ومكانتها في السياق ، ورأوا أن للكلمة سحرها وتأثيرها في النفس الإنسانية لِما لها من قوة كامنة فيها ، كما رأوا أن للكلمة مكانة خاصة بما تحويه من إيحاءات ودلالات تخرج عن كونها مجرد وحدة لغوية إلى ما هو أهم وأبعد من ذلك . كما رأوا أن للكلمة دورها في الشعر ، وتكون أهميتها ومنزلتها بقدر إحسان الشاعر في اختيارها ووضعها في العبارة » (ص ٨٣)

تأمل هذا النص فإنه أسلوب نادر طريف في علم السطو !!

ينقل عن منصور عبد الرحمن مبحث نقد الأسلوب برمته (انظر منصور ص ١٨٩ ـــ ١٩٠ ـــ ١٩٦ ـــ ١٩٩ ـــ ٢٠٠ ـــ ٢٠١ ـــ ٢١٦ ـــ ٢١٧) وعبد المطلب (١٢٤ ـــ ١٢٥ ـــ ١٢٩ ـــ ١٣٠ ـــ ١٣٦ ـــ ١٤٨) ومن الطريف أن أذكر هنا صورة من صور السطو :

يقول منصور عبد الرحمن (ص١٩٩ ـــ ٢٠٠) : « وقد اضطرب مفهوم الطبع والتثقيف والصنعة والتكلف عند نقاد العرب ، وربما لم يتحدد مفهوم هذه المصطلحات إلا عند نقاد القرن الخامس » .

نقلها عبد المطلب فقال (ص ١٣٠) : « ولقد اضطرب مفهوم الطبع والصنعة عند كثير من النقاد ، وسوف نجد أن هذا المفهوم لم يأخذ طابعه الواضح ومفهومه المحدد إلا عند نقاد القرنين السادس والسابع » .

ثم قارن ما سأسرده من صفحات ، فقد نقلها عبد المطلب بالحرف :

(منصور عبد الرحمن ص ٩ ـــ ١٠ ـــ ١١ ـــ ١٢ ـــ ١٣ ـــ ١٤ ـــ ١٥ ـــ ١٦ ـــ ١٨ ـــ ١٩ ـــ ٢١ ـــ ٢٢ ـــ ٢٣ ـــ ٢٤ ـــ ٢٥ ـــ ٢٧)

(عبد المطلب ص ١٠ ـــ ١١ ـــ ١٢ ـــ ١٣ ـــ ١٤ ـــ ١٥ ـــ ١٦ ـــ ١٧ ـــ ١٨ ـــ ١٩ ـــ ٢٣)

تأمـل هذا كله وافهم سبب إغفال عبد المطلب لكتاب منصور عبد الرحمن وعدم ذكره له ضمن مراجعه .

وإذا عرفت أن كتاب عبد الرحمن منصور « اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس » كان في أصله رسالة ماجستير ، علمت مقدار التفاهة التي سقط فيها عبد المطلب عندما سطا ـــ وهو يكتب رسالة دكتوراه ـــ على كتاب أُعِدَّ أصلا لرسالة ماجستير .

وفرق آخر في الشكل بينهما ، وهو أن كتاب منصور عبد الرحمن يقع في خمسمائة صفحة ، بينما لا يتجاوز كتاب عبد المطلب مائتي صفحة مع أنه يتصدى لقرنين كاملين !!

وأتوقف عند هذا الحد ، وقد دَلَلْتُ على مواضع السطو بالصفحات ليراجعها من شاء التثبت من ذلك ، ولا أدعي أني أحصيتها ، وحسبي أني نبهت إلى أهمها .

ولست أدري ما الذي دفع الرجل إلى نشر كتابه وهو يعلم من نفسه ماذكرناه ، ولا أدري ما الذي دعاه إلى طبعه في مؤسسة لبنانية لينتشر في طول الأرض وعرضها ، فقد كان حسبه وقد نجح في خداع اللجنة المناقشة أن يستر كتابه ويخفيه عن الأعين ، لكنه لم يفعل ... ولعن الله السرعة !

وبعد ، فهذا ضرب من ضروب فساد حياتنا الأدبية والفكرية بوجه عام ، نَبَّهْتُ إليه لعل الله يصلح أحوالنا ، ولعل ناشئة الأدب وطلاب العلم يعتمدون على أنفسهم ويمتحنون جهودهم ولا يتهافتون على ألقاب لا تنفي عن صاحبها جهلاً ولاتثبت له علماً ، وكثيراً ما تكون « ألقاب مملكة في غير موضعها » .

والله أسأل أن يصلح الأحوال ، ونعوذ بالله من الغرور والخذلان.

شعر مَعْن بن أَوْس المُزَنيّ
تحقيق عمر القطان

محمد بن سليمان السديس
أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية
كلية الآداب ــ جامعة الملك سعود

شعر معن بن أوس المزني، تحقيق عمر محمد سليمان القطان ــ جدة: دار العلم للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

صدر عام ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م كتاب (شعر معن بن أوس المزني) وهو، كما يوحي اسمه يضم أشعار ذلك الشاعر الحكيم الذي عاش في الفترة الإسلامية المبكرة وفترة العصر الأموي. وتتميز أشعاره بالرقة والسلاسة، فيسهل جريانها على الألسن مع عمقٍ في المعنى، فهي من سهل الشعر وممتنعه.

والكتاب جمعه وحققه ونشره ــ كما ورد على غلافه ــ عمر محمد سليمان القطان، وطُبِعَ في دار العلم للطباعة والنشر بجدة.

وقد سبق أن تولى أحد المستشرقين الألمان وهو بول شفارتز Paul Schwarz (١٨٦٧ ــ ١٩٣٨م) جمع شعر معن، ونشره في ليبزج عام ١٩٠٣م، كما نشر كمال مصطفى عام ١٩٢٧م كتاباً حوى كثيراً من شعره بعنوان (معن بن أوس. حياته. شعره. أخباره) طُبِعَ في القاهرة. وقام حديثاً (عام ١٩٧٧م) كلٌ من نوري حمودي القيسي وحاتم صالح الضامن بتحقيق الديوان ونشره في بغداد (مطبعة دار الجاحظ)، وقد جاء عملهما متقناً، ولا يبدو أن المؤلف الكريم اطلع عليه، ولعله لو فعل لأفاد منه أو لتوقف عن العمل في هذا المشروع، إذ إن فيما صنعاه ما يخدم شعر معنٍ خدمة كافية، وإذا وازنا بين العملين وجدنا عمل القطان هو الأدنى استقصاءً واستيفاءً للمادة، فالقصيدة الأولى ــ على سبيل المثال ــ في عمل القيسيّ والضامن التي مطلعها:

عفا وخلا ممن عَهِدتُ به خُمُّ ... وشاقك بالمسحاء من سَرَفٍ رسْمُ

والتي تتألف من أربعة وخمسين بيتاً، نلفيها مبتورة في عمله (ص ص ٩٣ ــ ٩٩) قد بُدِئت من نحو منتصفها من البيت الحادي والعشرين في عمل الأستاذين وهو قوله:

وذي رحمٍ قلَّمتُ أظفار ضِغْنِهِ ... بِحِلْمي عنه وهو ليس له حلم

والمقطوعة الخامسة في عمل الأستاذين ــ ص ــ ٦٤ لم يتضمنها عمل الأستاذ القطان وهي البيتان:

تولّى معشرٌ منهم ضعافٌ ... وقام بها الغطاريف الكبار
سيحملها الطِّوال من آل قُرْطٍ ... إذا ما عُرِّدَ السُّودُ القصار

والقصيدة الحادية عشرة في عمل الأستاذين ــ ص ص ٧٦ ــ ٨٢ ــ ومطلعها:

قفا ياخليليَّ المَطيَّ المُفرَّدا ... على الطلل البالي الذي قد تأبدا

وعدد أبياتها خمسة وأربعون بيتاً نجدها عند القطان ــ ص ص ٢٨ ــ ٣٦ ــ تسعة وثلاثين وحسب.

والمقطوعة الخامسة عشرة في عمل الأستاذين ــ ص ص ٨٧ ــ ٨٨ ــ ومطلعها:

باتت قلوصي بالحجاز مُناخةً ... إذا سمعت صوت المهرّج راعها

وعدد أبياتها ثمانية، من فوائت عمل الأستاذ القطان.

والمقطوعة التاسعة عشرة في عمل الأستاذين ــ ص ٩٢ ــ مؤلفة من ثلاثة أبيات يثبت منها الأخ القطان بيتاً مفرداً ــ ص ٤٢ ــ.

والمقطوعة العشرون ــ ص ص ٩٣ ــ ٩٤ ــ خمسة عشر بيتاً يثبت منها ثلاثة عشر ــ ص ص ٧١ ــ ٧٤.

ومع ذلك يقول الأستاذ القطان إنه اعتمد في جمعه على ما يلي:

١ ــ مطبوعة السيد كمال مصطفى المذكورة، واتخذها أصلاً.

٢ ــ كتب الأدب ومجموعات الشعر والحماسة ..الخ.

كما ذكر أنه أمضى في عمله هذا ثلاث سنوات جمع فيها أشعاراً ليست في طبعة كمال. وأنه (تأكد من صحة النصوص وضبطها) وصحح (ما كان فيها من تصحيف أو تحريف ظاهر ...) ــ انظر ص ٨ من المجموع ــ وقال عن المجموعة إنها (محققة تحقيقاً دقيقاً ومشروحة شرحاً وافياً ..!!) ــ الموضع نفسه ــ.

ويَسْعد القارىء بهذه التقريظات التي يسخو بها الجامع على عمله آملاً أن يوافق العملُ القولَ ليحظى بنصٍ سالمٍ من شتى المشوهات والمكدرات فهل تحقق أمله؟

على الرغم من عدم شغف كاتب هذه السطور بالقسوة على

المحقق الفاضل إلا أنه لا يملك سوى الإجابة بالنفي آسفاً ، فبتصفح العمل وجدناه حافلاً بالأخطاء من كل ضربٍ ، كما وجدنا العمل بعيداً عما ادعاه صاحبه من إتقانٍ وضبط والتزام بالمنهج العلمي في التحقيق ، وهوبعبارة أخرى ، قصَّر عن أن يضيف إلى الديوان شيئاً ، فلم يعتمد على مخطوطات غير محققة ، بل ولم يستقص — كما اتضح من الموازنة السابقة — ما ورد من شعرِ معنٍ فيما بين أيدينا من أمهات كتب الأدب . وكتاب كمال مصطفى مرجع حديث (مطبوع سنة ١٩٢٧م كما ذكرنا) غير موثق ولا خير يرجى من الاعتماد عليه .

وقبل أن نلج الكتاب ونشرع في تقليب عددٍ من أوائل صحفه ونُلِمَّ بما تبين لنا فيها من هفواتٍ وهناتٍ نود الإشارة إلى :

١ — من مبادىء التحقيق الأولي أن يذكر المحقق عند الإشارة الأولى للمصدر الذي يستقي منه المعلومات اسم المؤلف تامًّاً ، ثم اسم الكتاب ، فالجزء (إن كان متعدد الأجزاء) ، ومكان النشر وتاريخه ، ثم رقم الصفحة أو الصفحات ، أو على نحو آخر يؤدي الغرض وإن اختلف بعض الشيء عن هذا النهج ، ولا مانع بعد ذلك أن يكتفي باسم الكتاب ورقم الصفحة ، أو اسم الكتاب واسم مؤلفه ورقم الصفحة إن كان في مصادره كتابان متطابقان في الاسم .

والمحقق لم يصنع من ذلك شيئاً ، وها هو مثلاً في المقدمة (ص ٩) يشير إلى (تاريخ الأدب العربي) ثم الجزء ثم الصفحة ، فأي تاريخ للأدب العربي يعني ؟ ففي مسرد مصادره وحده مصدران بهذا الاسم — انظر ص ١٤٨ — .

كما يشير في ص ٩ نفسها إلى (المستشرقون) ورقم الجزء والصفحات ، فلا يذكر اسم المؤلف . ونلتمسه في ثبت المصادر في آخر الكتاب فنكتشف أنه قد غفل عن أن يذكره هناك أيضاً .

٢ — سرد المحقق بعد المقدمة (في حاشية ص ١٥) ستة مصادر مع أرقام أجزائها وصفحاتها .. هكذا ، وكان عليه الإشارة عند كل (معلومة) برقمٍ ، ثم تكرار الرقم قبل المصدر الذي استقى منه تلك (المعلومة) كما هو مألوف جدًاً ومعروف .

٣ — اعتمد المحقق على ٨٤ مصدراً ومرجعاً في جمع الشعر أشار إليها في حواشي صفحات المجموع ، لكنه في ثبت المصادر سرد ٢٩٢ مصدراً ومرجعاً مع عدم إشارته ولو مرةً إلى أي من الـ (٢٠٨) مصادر الأخرى .

٤ — يعتمد المحقق أحياناً على مراجع حديثة لا تعد حجة . انظر مثلاً اعتماده على مجلة (المورد) في تحديد موقع (العذيب) — حاشية ص ٢٥ — ، وفي اعتماده على كتاب كمال مصطفى كما أشرنا .

٥ — في حين خرَّج بعض القصائد ، نسي الالتزام بمنهجه وأهمل قصائد أخرى ، أو اكتفى بتخريج بعض أبياتها (انظر القصيدة الأولى ص ص ١٦ — ١٨ حيث خرَّج البيتين ١١ و ١٢ في حاشية ص ١٨ دون سواهما ، وأيضاً القصيدة الرابعة ص ٢١ ، والتاسعة ص ص ٢٨ — ٣٦ ، والثانية عشرة ص ٤١ ، والثامنة عشرة ص ص ٤٦ — ٤٧ ، والرابعة والعشرين ص ٥٣ ، والسادسة والعشرين ص ٥٥ — ٥٨ ، والسابعة والعشرين ص ٥٨ — ٧٠ ، والبيت المفرد ذا الرقم ٣٦ ص ٨٧ ، والقصيدة التاسعة والثلاثين ص ص ١٠١ — ١٠٥ ، والأربعين ص ص ١٠٦ — ١٠٧ ، والحادية والأربعين ص ص ١٠٨ — ١٠٩ ، والثانية والأربعين ص ١٠ — ١١٢).

كما لم يلتزم المحقق بالتخريج في موضع واحد ، فتارة يذكر التخريج عند بداية القصيدة ، ويذكره تارةً في آخرها .

٦ — في ثبت المصادر يذكر المحقق الاسم الكامل للمؤلف ، وهذا حسن ، لكنه كان يكتفي بذكر ألقاب بعض المؤلفين مثل (الأخفش الأصغر ص ١٤٥ — الأنباري والزوزني والتبريزي ص ١٥٣ — القلقشندي والجهشياري والثعالبي ص ١٥٦ — الزجاجي وابن الأثير والرماني والشنتريني ص ١٥٧ — الزمخشري ص ١٥٨ — الجرجاني وابن خلكان والثعالبي ص ١٥٩) !

٧ — حفل الكتاب بالأغاليط النحوية والإملائية والأسلوبية وأخطاء الطباعة ، مما جعله محتاجاً إلى إعادة النظر فيه إعادة فاحصة ، وتصحيح هذه الأخطاء الكثيرة إن أريد له أن ينفع بدلاً من أن يُرْبِك ويشوه شعر ذلك الشاعر الرصين .

ومن الأخطاء التي تكررت كثيرا جدّاً في كل صفحات الكتاب تقريباً أخطاء في الهمز منشؤها عدم التمييز بين همزة الوصل وهمزة القطع والخلط بينهما . ولسنا بحاجة إلى عدّ تلك الحالات ، بل نكتفي في الجدول الصغير أدناه بما ورد من ذلك في الصفحات الخمس الأولى من المجموع :

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
٥	٧	اساسا	أساساً
	١٤	إزداد	ازداد
	١٥	اكثر	أكثر
	١٨	الى	إلى
٦	٤	الاصيل	الأصيل
	٤	اقدمه	أقدمه
	٢٢	الى	إلى
	٢٢	اليه	إليه
	٢٤	الفاظ	ألفاظ
٧	١٣	الأعتياد	الاعتياد
	١٤	أكتفيت	اكتفيت
٨	٩	اطرافه	أطرافه
	١٣	ابيات	أبيات
		ابياتهم	أبياتها
٩	١	اثنى	أثنى
	٢	الاسلام	الإسلام
	٣	لارجو	لأرجو

تلك هي الملاحظات العامة ...

وفيما يلي نتصفح الكتاب ونشير إلى أبرز ما لاحظناه في صفحاته الستين الأولى فقط،يمنعنا من عدم المضي حتى آخر الكتاب ومن التتبع المستقصي عدم الرغبة في الاستئثار بالحيِّز ، وتحاشي إسآم القارىء ، وفي ذلك مؤشرٌ كافٍ لما هو عليه المجموع من حال :

— ص ٥ : ورد (ولما كان الأساس الأول للتأليف في موضوع ما أن يكون قريب (هكذا!) إلى النفس) .

— ص ٦ : ورد : (وعدد أوراقها ست عشرة صفحة) !

وورد (لعلي اسماعيل بن القاسم القالي) والصواب : لعلي بن إسماعيل ..

وورد (في سنة ٣٣٠ إلى سنة ٣٥٦) والأدق : في الفترة من سنة ٣٣٠ إلى سنة ٣٥٦ .

وورد(وقد يكون العنوان شطر من القصيدة) بعدم نصب (شطر) مع أنه خبر (يكون) .

— ص ٧ : ورد (واكتفيت في ذلك على المصادر ...) والصوب — كما لا يخفى — (بالمصادر) ، وورد (المعجات) أي (المعجمات) وهو خطأ مطبعي .

— ص ٨ : ورد (وأبيات مفردة عدد أبياتهم) ! .

وورد البيت :

إذا شُنْتُه وصل القرابة سامني قطيعتها تلك السفاهة والظلم

بكسر الكاف في (تلك)

— ص ٩ : ورد (شيء) بياءين ، و (ألبيان والتبيُّن) بياء واحدة مشددة في الكلمة الأخيرة ، وصوابها لا يكاد يخفى على أحد .

— ص ١٠ : ورد في أول الأسطر (بن) وصوابها كما لا يكاد يخفى أيضاً على أحد (ابن) . وتكرر ذلك في ص — ١٥ وحاشية ص ١٩ .

— ص ١٢ : ورد ضمن تعداد أودية مزينة (رَئْم) هكذا براءٍ مفتوحة تتبعها همزة ساكنة على نبرة، وذلك ممتنع إملائياً ، كما لا يكاد يخفى على أحد أيضاً،إذ جاءت الهمزة ساكنة متوسطة بعد فتح ، ثم ميم . والصواب : رِئْم (وانظر مثلاً معجم البلدان ١٤/٣) .

— ص ١٤ : ورد (يروى أن معن) بدون نصب (معن) مع أنه علم منصرف وقع اسماً لأنَّ .

— ص ١٦ : ورد (ودُني حزابي الطَّوِيِّ فَيَثْقُب) ، والصواب : (ودوني ..) .

— ص ١٧ : ورد (وهو مما تتشائم به) هكذا ، والمقصود : وهو مما تتشاءم به العرب .

ووردت (ليلى) مرتين بفتحة على الألف ، كاوردت مرة ثالثة بفتحة على الياء !!

ووردت (الأشاحيج) بتسكين الهمزة وهي مفتوحة .

ووردت (الريح) بفتح الراء المشددة .

— ص ١٨ : ورد :

فقل لعبيدٍ وابْن وهبٍ ابن قابسٍ ألا تأمران الركب أن يتقربوا

بفتح نون (ابن) الأخيرة ، والصواب ، لاريب ، كسرها .

وورد (أبى النومُ أنا كلنا يتصبب) بكسر الألف من (أبى) وهو ، كما معلوم ، متعذر ، وبرفع (النوم) وحقه النصب .

وورد (منيتي) بكسر الياء الأخيرة (ضمير المتكلم) .

وورد :

متى تأتهم ترفع بناتي برِنَّـةٍ وتصدحُ بنَوْحٍ يفرع النوحُ أرنب

وفيه أخطاءٌ ثلاثة : كسرت الراء من (رنة) والصواب فتحها ، ورفع الفعل (تصدح) وحقه الجزم لعطفه على جواب الشرط (ترفع) ، ورفعت (النوح) وحقها النصب .

وورد في حاشية الصفحة :

عجّت نساء بني زبيد عجّةً كعجيج نسوتنـا غداة الأرنب

ورفع (الأرنب) المضاف إليه .

— ص ١٩ : ورد :

يَدُبُّ ضِباب الغش تحت ضلوعه لأهل الندى من قومه بالعقارب

والصواب :
(تَدِبُّ ضباب الغش ...) فالضِّباب جمع . وانظر أيضاً البيت على هذا النحو الصحيح في الحيوان للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ٦٦/٦ .

وورد في الحاشية : (أبو محمد الأعرابي) ولعله يعني (أبا عبد الله محمد بن زياد بن الأعرابي الراوية الشهير) ، وانظر في كنيته مثلاً المزهر للسيوطي ٤١٩/٢ .

وورد في الحاشية أيضاً :

ناسيتهم بغضاؤهم وتركتهم وهم إذا ذكر الصديق أعادي

والصواب ، كما لا يخفى ، : ناسيتهم بغضاءهم ...

وورد البيت الذي قبله :

وذوي ضِبابٍ مظهرين عداوةً قرحى القلوب معاودي الأفناد

والكلمة الأخيرة غامضة . (ولم يذكر المحقق مصدره ليعود القارىء إليها ويتحقق منها ، ولم أجد البيت في ديوانه صنعة القيسي والضامن) .

ـــ ص ٢٠ : ورد في الحاشية : (جون : أبيض صافياً) والأولى : أبيض صافٍ . وورد بعده (أي عليه جداراً يمسك الماء بين الديار) ، والصواب : ـــ كما لا يخفى ـــ (أي عليه جدار) بالرفع على الابتداء .

وورد بعده (الحَوِي : المالك) ، والصواب : (الحاوي ..).

ـــ ص ٢٢ : جاء البيت :

تراعي الريف دانيةً عليها ظلال أُنْفٍ مختلط النبات

وفيه (أُنْف) بضم الهمزة وتسكين النون وكسر الفاء المنونة ، والصواب : ظلال أَنَّفَ ـــ بفتح الهمزة والنون والفاء المضعفة ، وبذلك يستقيم الوزن . وانظر مثلاً الأغاني ط دار الكتب ٦٤/١٢ .

وورد في الحاشية قول النابغة الجعدي :

وظل لنسوة النعمان منا على سفوان يومُ أُرونانِي

وحق (يوم) التنوين ـــ كما لا يخفى ـــ ، وانظر ديوانه ص ١٦٣ .

ـــ ص ٢٣ : ورد في الحاشية قول أبي دؤاد الإيادي :

إن تبتذِل تبتذلْ من جندلٍ خرسٍ صلابةً ذاتَ أسدار لها عَنَقة

وقد رفع الفعل الثاني المجزوم لكونه جواب الشرط . ورفعت (ذات) وحقها النصب . وراجع ـــ إن شئت ـــ اللسان (ع ب د) .

كما جاء قول قيس بن عيزارة الهذلي:

وحُبِسْن في هزم الضريع فكلها حدباءُ باديةُ الضلوع حرود

فنصبت كل من (حدباء) و (بادية) وحقهما الرفع ، فهما خبران لكل .

ـــ ص ٢٤ : ورد (أَرَبَّت عليه رادَّة حضرمية) والصواب : (رادَةٌ) بتخفيف الدال ، انظر مثلاً الأغاني ٦٣/١٢ ؛ وهي السحابة التى ترود وتجول .

وورد في الحاشية لطفيل الغنوي :

أُفَدِّيه بالأمِّ الحَصانِ وقد حَبَتْ من الوَتِدات لي حبالُ مُعَبِّرِ

ورواية الديوان (تحقيق محمد عبد القادر أحمد ، ١٩٦٨م ، ص ١٠١) :

أُفَدِّي بأُمِّيَ الحَصانِ وقد بدت ...

ـــ ص ٢٥ : ورد :

إذا هي حلت كربلاء فلعلعاً فَجَوْزَ العذيب دونها فالنوابحا

ورواية معجم البلدان (٥٤/٥) :

فجوز العليب دونها والنوائحا

ولم يشر المحقق إلى هذه الرواية .

كما ورد البيت الذي يليه :

وبانت نواها من نواك وطاوعت مع الشانئين الشامتات الكواشحا

ورواية المعجم أيضاً (مع الشامتين ..) ، وكذلك لم يشر إلى ذلك !

وورد في الحاشية قول الشماخ بن ضرار الذبياني :

فمرت على عين العذيب وعينها كوقب الصفا جِلْسِيُّها قد تغورا

فحرفت (كوقب) : كواقب . راجع ديوانه (ت صلاح الدين الهادي ، القاهرة ، ١٩٧٧م) ص ١٤١ . كما أن رواية البيت في الديوان وهو الذي اعتمد عليه المحقق :

وأضحت على ماء العذيب ...

ولا يشير المحقق إلى ذلك!

ـــ ص ٢٦ : صحفت (عُذَافِرة) ، وهي الناقة الصَّلبة القوية في قول معن :

عُذَافِرةٌ ضبطاء تخدي كأنها فَنِيقٌ غدا يحمي السَّوامَ السوارحا

فجاءت بالغين المعجمة ، وتكرر ذلك في الحاشية عند شرح معناها . وفي قول كعب بن زهير :

عُذَافِرَةٌ تختال بالرَّحل حُرَّةٌ تُباري قلاصاً كالنعام الجوافل

وفي بيت معن المشار إليه ضم أول الفعل (تخدي) ، وحقه الفتح، وراجع مثلاً اللسان (ض ب ط) .

ـــ ص ٢٧ : ورد :

رأيت رجالاً يكرهون بناتِهِم وفيهن ـ لا تُكْذَبْ ـ نساءٌ صوالحُ

بنصب التاء من (بناتهم) بالفتحة وحقها النصب بالكسرة ، كما هو معلوم .

وفي حاشية هذه الصفحة ورد : (وروى البغدادي في خزانته أن أبي عبيد البكري) !!!

كما ورد فيها قول حسان بن الغدير :

لأي زمانٍ يَخْبَأ المَرْءَ نَفْعَهُ غداً بل غَدٌ للموت غادٍ ورائح

فصحفت (يَخْبَأ) ، وجرت (غدٌ) غلطاً .

— ص ٢٩ : ورد قول معن :

فلم يَغْنَ من حَيّي ومن حَيّ صحبتي بها من يناصي الشمس عزّاً وسؤددا

فحذفت ياء المتكلم من (حيّي) . وتكرر ذلك في قول معن بعد ذلك (ص ٣٠)

فساروا فأما جُلّ حَيّي ففرّعوا جميعاً ، وأما حيُّ دَعْدٍ فَصَعَّدا

— ص ٣٣ : في قول معن :

أرى ما ترى دعدٌ غمامة صَيّفٍ من العِزّ تُكسى الشرعبيّ المعضَّدا

لم تنون (دعد) ، وجاءت (تكسى) بألف لا كرسيّ لها ، وجرت (الشرعبي) وحقها النصب .

وفي قوله بعد ذلك :

وإن هي قامت في نساءٍ حسبتها قناةً أقيمت في قناً قد تأودا

نصبت (نساء) ، وهذا من أخطاء الطبع التي لم تصحح .

— ص ٣٤ : في قول معن :

وإني أرى كل ابن أنثى مؤجلاً ولم تضرب الآجال إلا لتنفدا

نصبت (ابن) !

— ص ٣٥ : في قوله :

وأعرض عن مولاي وهو يعينني ولا أجهل العتبى ولا أعجل العدا

فُتحت همزة (أعرض) المضمومة .

— ص ٣٨ : تكرر قوله :

فلا تجمعي بذلي وودي ونصرتي وأن تجعلي فوقي لسانكِ مِبْردا

مع وروده في القصيدة الدالية التي سبقت على الصفحات ٢٨ — ٣٦ (راجع ص ٣٥ البيت رقم ٣٤) .

— ص ٣٩ : في قوله :

عراقيَّةً تحتــلُّ غَوْلاً فَعَسْعَساً محل العراق دارها ما تباعده

حرفت (تحتل): تحتلي ، وضمت (محل) وحقها النصب .

— ص ٤٠ : في قوله :

فذات الحَمَاطِ خرجها فطلولها فبطن البقيــع قاعــه فمرائــده

حرفت (الحماط) فضمت حاؤها وضعفت ميمها . وتكرر هذا الخطأ في بيت ذي الرمة الذي استشهد به المحقق في حاشية الصفحة وهو :

فلما لحقنا بالحدوج وقد علت حماط وحرباء الفـلا متشاوس

انظر في الأول معجم البلدان(٩١/٥) ، وفي الثاني ديوان ذي الرمة (ت . عبد القدوس أبو صالح ، دمشق ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م ، ١١٢٤/٢) .

وقد أورد ياقوت صدر البيت الأول : (فذات الحماط خرجها فطلوعها) وتغافل المحقق عن الإشارة إلى تلك الصيغة .

— ص ٤١ : ورد في حاشيتها البيتان التاليان للمحرّق المزني مخاطبا خاله معن بن أوس :

ووالله ما أدبرتُ ما هبت الصبا إلى يوم نلقى الله ما قلت أقبل

فخذ كل مالٍ كنت أنت احتويته عليّ وإن اسطعت ضري فافعل

وقد حرفت (أدبرت) فسكنت تاؤها وهي مبنية على الضم (تاء المتكلم) ، وكسرت الباء المشددة المفتوحة في (هبت) والصاد المشددة المفتوحة في (الصبا) . ووردت (استطعت) بدلاً من (اسطعت) فانكسر وزن عجز البيت الثاني .

— ص ٤٢ : ورد قول معن :

فعربة أكلت أشحى ، ومدفعه أكناف أشحى ، ولم تعقل بأقيادِ

فزيدت ياءٌ إشباعاً لكسرة الدال في (أقياد) ، والصواب ما أثبتناه ، (وانظر مثلاً اللسان : شحا) .

— ص ٤٣ : ورد قوله :

تساقط أولاد التَّنَوُّطِ بالضحـى بحيث يُناصي مَنْبَرَ بُحْرَةَ مُخْيِرِ

ففتح الواو المشددة . وقد أورد صاحب اللسان صيغتين لضبط هذه الكلمة هما (التُّنَوِّط) بفتح التاء والنون وضم الواو المشددة ، و (التَّنَوِّط) بفتح التاء النون وكسر الواو المشددة .

وفي الصفحة نفسها أورد المحقق قول أبي جرول الجشمي :

تقطع أعناق التَّنَوُّط بالضحــى وتفرس في الظلماء أفعى الأجارع

فحرف في ضبط الكلمة نفسها تحريفاً ثالثاً فأوردها (التِّنُّوط) بكسر التاء والنون وتشديدهما ! كما حرّف (أعناق) فجاءت (أعلاق) . وراجع البيت في اللسان مثلاً (ن و ط) .

— ص ٤٥ : ورد قوله :

وكن آمناً وانعق بتيسك إنه له أعْتُزٌ ينزو عليها أو بشر

وقد قطعت همزة الوصل في (انعق) .

وفي أول سطر من الحاشية ورد (نزاء) بضم الهمزة ، والصواب (نزاءٍ) بفتحها وتنوينها .

— ص ٤٧ ورد (أمسُوا) بضم السين ، والصواب كما لايخفى، فتحها .

وفي الحاشية ورد (وإنَّى متى أهبط ... البيت) بفتح النون والصواب : وإنِّي متى أهبط ... وبعد ذلك ورد قول الراعي :

كدخــان مرتجل بأعلى تلعــةٍ غرثــان ضرّم عرفجــاً مبلــولا

فنونت (دخان) .

— ص ٤٩ : في قول معن :

وقالوا : رجال فاستمعت لقيلهم أبينوا لمن مالٌ بأخْوَسَ ضائع

فلم تصرف (مال) وحقها الصرف .

وفي البيت الذي يليه ورد (ومنيتَ) بفتح التاء ، والصواب ضمها مبنيةً .

وفي الحاشية قطعت همزة (اشتريته) !

ــ ص ٥٤ : ورد قوله :

فإن لها جارين لن يغدرا بها ربيب النبي وابن خير الخلائق

انظر مثلاً ديوان الأدب للفارابي ٧٣/٢ ، وقد حذفت الفاء من أوله فانكسر وزنه .

وورد (النبي) بثلاث ياءات .

ــ ص ٥٥ : (حاشية) في قول الشماخ :

وجاءت سُلَيْمٌ قَضُّها بِقَضيضها تمسح حولي بالبقيع سِبالَها

فتحت السين من (سبالها) ، وحقها الكسر .

ــ ص ٥٦ : ورد قول معن :

فإنكم وترك بني أبيكم وأسرتكم تجرون الحبالا

وقد سكنت ميم الجمع الأولى وحقها التحريك بالضم ليستقيم الوزن ، وضمت (أسرتكم) وحقها الجر على العطف على (بني) .

ــ ص ٥٧ : ورد قوله :

تُحَفُّ المُتْرَعاتِ إذا شتونا إذا النكباء عاقبت الشمالا

وقد حرفت (تُحَفُّ) فجاءت : (تحف) ، وضمت (المترعات) ، وقطعت همزة (ال) في (الشمالا) !

وفي حاشية الصفحة ورد البيت :

بكفك صارمٌ وعليك زَغْفٌ كماء الرَّجع ينسجه الشَّمُول

فصحفت عين (زغف) فجاءت بالعين المهملة . والزَّغف : الدرع المحكمة ، وقيل : الواسعة الطويلة . وقيل : الصغيرة الحَلَقِ ، وقيل : الدقيقة الحسنة السلاسل ، انظر مثلاً اللسان (ز غ ف) . وقطعت همزة (ال) في (الشمول) أيضاً .

ــ ص ٥٨ : ورد في الحاشية قول امرىء القيس :

إني بحبلك واصل حبلي وبريش نبلك رائشٌ نبلي

فلم تنون (رائش) وحقها التنوين .

ــ ص ٥٩ : ورد في الحاشية البيت :

لها بَشَرٌ صافٍ وَوَجْهٌ مُقَسَّمٌ وغُرٌّ ثناياها لم تُفَلَّل أشورُها

فصحفت (تُفَلَّلْ) فجاءت بتسكين الفاء وعدم تضعيف اللام الأولى (عين الكلمة) .

ــ ص ٦٠ : ورد قول معن :

ورد قيان الحي حين تحملوا لِبَيْنِهِمُ أُدْماً مُخَيَّسَةً بزلا

وقد صحفت (لِبَيْنِهِمُ) ففتحت فيها النون وسكنت الهاء .

وفي الحاشية ورد قول النابغة :

والأُدْم قد خيست فُتُلاً مرافقها مشدودة برحال الحيرة الجدد

ففتحت فاء (فُتلا) تصحيفاً .

وورد قوله :

مقذوفةٌ بِدَخيس النحض بازلها له صريفٌ صريف القَعْوِ بالمَسَدِ

فحذفت (صريف) الأولى خطأً والصواب إثباتها ، وبدونها يختل الوزن .

وراجع ديوان النابغة ، تحقيق شكري فيصل (دمشق ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م) ص ٦ .

ــ ص ٦١ : ورد قول معن :

رفعن غداة البين خزّاً وبُمْنَةً وأكسية الديباج مُبْطَّنَةً حُمْلاً

ففتحت التاء المربوطة في (أكسية) ، وفتحت الباء في (مبطنة) ، وضعفت الطاء مما كسر عجز البيت !

وورد بعده البيت :

على كل فتلاءِ الذراعين جسرةٍ تُبِرُّ على الحاذين مُطَّرِداً جثلا

ففتح (فتلاء) أو عدها ممنوعة من الصرف فجرها بالفتحة وذلك خطأ لأنها ههنا مضافة ، كما لا يخفى .

ووردت (جسرة) في البيت مرفوعة !!

ونضع اليراعة هنا ، ففي ما ذكرناه ما يكفي ليؤكد أيما تأكيد الحاجة إلى إعادة النظر في العمل إعادة تامة ، مع أنّا لم نكد نصل إلى منتصف الكتاب بعد . سائلين الله تعالى أن يعين المحقق على تلافي ما ورد من أخطاء وعثرات ، وهو سبحانه وحده المتنزه عن الزلل ، وهو المستعان ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

العوامل المائة ... تحقيق البدراوي زهران
تحقيق ، أم تحريف وتلفيق ؟!

بهاء الدين عبد الوهاب عبد الرحمن

العوامل المائة النحوية في أصول علم العربية للجرجاني شرح خالد الأزهري ، تحقيق البدراوي زهران ــ القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٣م ، ٣٩٢ ص .

من أعظم المخاطر التي تهدد إحياء التراث أنه أصبح ملكاً مشاعاً ، ومورداً عاماً ، يرده الناس كافة ، ويدلي فيه بدلوه من شاء وكيف شاء ، فلارقيب ولا حسيب ، يتناوله بالتحقيق الجاهل كما يتناوله العالم ، وفي السوق ــ أعني سوق الكتاب ــ يستوي النتاجان ، فلا يفرق أحد بين تحقيق وتحقيق ، ولا يميز بين الغث والسمين ، فحسبهم أن الكتاب محقق ، ويزداد اطمئنانهم إذا كان اسم المحقق مسبوقاً بحرف الدال الذي قد يخفي وراءه جهلا ماحقاً .

وإلى أن يصبح تحقيق التراث تحت إشراف مؤسسات علمية موثوقة سنبقى بين الحين والآخر نطلق الآهات حسرة كلما رأينا عملاً مزيّفا باسم التحقيق .

كانت هذه مقدمة لابد منها قبل أن أعرض لكم هذا الكتاب ..

عنوان الكتاب : العوامل المائة النحوية في أصول علم العربية للجرجاني م ٤٧١ هـ ، شرح الشيخ خالد الأزهري الجرجاوي م ٩٠٥ هـ .

تحقيق وتقديم وتعليق : الدكتور البدراوي زهران .

نشر دار المعارف بمصر ــ الطبعة الأولى ١٩٨٣م .

يقع الكتاب في ٣٩٢ صفحة من القطع العادي .

وسأعرض محتوى الكتاب قبل أن أعلق عليه .

التصدير :

١ ــ استغرق التصدير حوالي اثنتي عشرة صفحة من ص ٣ ــ ١٥ .
تحدث فيه المحقق عن أصالة الفكر اللغوي عند عبد القاهر وخروجه بتفسير جديد لنظرية العامل ومراحل هذا التفسير الثلاث : مرحلة عوامل عتيق ، ومرحلة كتاب الجمل ومرحلة العوامل الجديدة ، وشرح كل مرحلة من هذه المراحل .

٢ ــ **المقدمة** : وشغلت حوالى ثلاث عشرة صفحة من ص ١٧ ــ ٣٠ .
وفيها تحدث عن كتاب العوامل المائة وشروحه وقيمة الكتاب وأهميته مع أهمية شرحه كما تحدث عن العوامل المائة في ثوبه الجديد ــ على زعمه ــ وما توصل إليه عبد القاهر من نظرة جديدة فيما يتعلق بالعامل وعلاقته بنظرية البناء اللغوي ، وعدم تنبه الذين جاءوا بعد عبد القاهر لهذا التطور العظيم ومنهم الشيخ خالد الأزهري الذي لم يهتم بالعوامل الجديدة .

٣ ــ **منهج عبد القاهر** في كتابه العوامل المائة في ثوبه الجديد وحكمنا عليه : تحت هذا العنوان تحدث المحقق في ثلاث عشرة صفحة عن كتاب العوامل المائة في ثوبه الأول ــ عوامل عتيق، والجمل ، وأورد رسماً تخطيطياً لتقسيم عبد القاهر للعوامل في ثوبها العتيق والجديد وعقد مقارنة بينهما مبيناً التطور الذي حدث لدى عبد القاهر وجوانب من المؤاخذات عليه .

٤ ــ **عبد القاهر وعلم العربية** : استغرق هذا المبحث ست صفحات تحدث فيه عن عبد القاهر وشيوخه وتلامذته وبلده .

٥ ــ **الشيخ خالد الأزهري** : شغل هذا المبحث سبع صفحات، تحدث فيه المحقق عن الشيخ خالد ، اسمه ولقبه ومولده ونشأته وشيوخه وتلامذته ومصنفاته .

٦ ــ **منهج التحقيق وخطة النشر** : وتضمن وصف النسخة المحققة وجاءت بعد ذلك صور لصفحات من المخطوطة «شرح العوامل » ثم ذكر وصفاً لنسختين من العوامل المائة للجرجاني مع صور صفحات منهما ثم إيراداً لمتن العوامل المائة «عوامل عتيق» وبعد ذلك أورد صورة تمثل صفحة العنوان للعوامل المائة «العوامل الجديدة» ومن الصورة يتبين أن النسخة مطبوعة بالمطبعة العامرة سنة ١٣١٧ وكانت من

مقررات وزارة المعارف المدرسية . ثم أتى بعد ذلك بمتن العوامل الجديدة كما يحلو له تسميتها .. ثم نجد مرة أخرى صوراً لصفحات من مخطوطة شرح العوامل ، وهي الصور نفسها التي أثبتها في بداية الفصل المعنون بـ «منهج التحقيق وخطة النشر» .

بعد ذلك يبدأ تحقيق نص هذه النسخة الوحيدة من شرح العوامل للشيخ خالد الأزهري .

٧ ــ **خاتمة الدراسة والتحقيق** : وفيها أعطى ملخصاً عما سبق أن قرره في المقدمة من تطور لم يتنبه إليه أحد في فكر عبد القاهر اللغوي ونظرته إلى العامل .

٨ ــ **الفهارس الفنية** : وتضمنت فهرساً للآيات والأحاديث وشواهد الشعر ثم ثبتاً بمراجع الكتاب وأخيراً فهرساً للمحتوى .

بعد هذا العرض السريع لمحتوى الكتاب أعود لأناقش المحقق في القضايا التي أثارها .

إن القضية الأساس التي بنيت عليها جميع نتائج المحقق واكتشافاته الفريدة لمايسميه بتطور الفكر اللغوي عند عبد القاهر هي ما ادعى من أن الإمام عبد القاهر قد ألف كتابين باسم العوامل المائة، عَنْوَنَ الأول بـ (عوامل عتيق) تمييزاً بينه وبين ما سماه المحقق بالعوامل في ثوبها الجديد .

ولقد أخذتني الدهشة وتملكني العجب عندما قرأت في التصدير قول المحقق :

« المهم أن عبد القاهر نتيجة إعمال فكره في كل هذا خرج بتفسير جديد لنظرية العامل ، ومر هذا التفسير بمراحل : المرحلة الأولى ــ **مرحلة عوامل عتيق** : وفيها جعل العوامل مائة ... ــ وبعد أن حظيت بالقبول لدى الدارسين ، وشرحت من غير واحد، وشرحها هو مطوراً لفكرته في كتابه الجمل، **وتلك هي المرحلة الثانية** ... ثم عاد وطور فكرة العامل بعد أن تفاعل فكره مع قضية الإعجاز ... وهداه فكره إلى أن الإعجاز في البناء اللغوي ... فطور نظرية العوامل المائة من فكرتها السابقة إلى فكرة تتلاءم مع ما انتهى إليه أخيراً ، **وتلك هي المرحلة الثالثة** حيث جعل العوامل المائة تأثير وحدات اللغة بعضها في بعض ، فقسمها بين مؤثر ومتأثر ، فهناك مؤثرات لغوية وهناك متأثرات ، وأثر وهو الحركة الإعرابية ، وأول ما تلاحظه في هذه المرحلة أنه قسَّم العوامل المائة ثلاثة أبواب : **الباب الأول** : في العامل والباب **الثاني** في المعمول والباب **الثالث** في العمل أو الإعراب» [ص ٥ ــ ١٢] .

وفي الهامش (ص ٥) نجد تعليقاً على عبارة (عوامل عتيق) يقول : هكذا عَنْوَنَ ــ أي عبد القاهر ــ لكتابه العوامل في مرحلته الأولى ، ولابد أنه أضاف (عتيق) بعد أن ذاع بين الناس واشتهر أمره ، ثم خرج عليهم بتفسير آخر محدث للعوامل منبثق عن السابق ، فسمى السابق (عوامل عتيق) .

نعم لقد استغربت هذا الهراء ــ ويحق لي تسميته هراء ــ كيف لا وأنا أجد أمامي قولاً منسوباً إلى الإمام عبد القاهر بدون دليل ؟ وهو مع ذلك لا يمكن أن يصدر عن إمام جليل بمنزلة الإمام عبد القاهر ، كيف يمكن تصديق أن عبد القاهر سمى كتابه الأول (عوامل عتيق) إن هذا التسمية لايمكن أن تصدر إلا من أعجمي حديث العهد بتعلم العربية ، والذي يحز في النفس ويؤلمها أن ناسب هذا القول لعبد القاهر أستاذ متخصص في دراسة مؤلفاته النحوية والبلاغية !! .

لقد رأى سيادة المحقق هذه العبارة مكتوبة على مخطوطين من مخطوطات العوامل المائة فظن أن المؤلف نفسه قد كتبها بيده ، ولو ذهبنا نطبق مثل هذا المنهج في تحقيق التراث إذاً لأخرجنا للناس مع النفائس خزعبلات كثيرة ، كان على المحقق أن يعلم أنه ليس كل ما وجد مكتوباً على المخطوطة لابد أن يكون من وضع المؤلف صاحب الكتاب ،وبخاصة تلك التعليقات التي نجدها في بداية المخطوطات وآخرها فإنها من عمل النساخ والمتملكين .

ثم إني قلت لنفسي دعني أرى ما سماه بعوامل عتيق والعوامل المائة في الثوب الجديد ، فبدأت بقراءة متن العوامل المائة «عوامل عتيق !» فوجدتها مطابقة لما أعرفه عن هذا الكتاب ، فما هي العوامل الجديدة ؟! .

وانتقلت إلى قراءة المتن الآخر ، وما إن قرأت بضعة أسطر حتى أدركت أن المحقق قد وقع في غلط أفحش من الأول ، فالكتاب الذي أقرؤه ليس لعبد القاهر ، إنه كتاب العوامل الذي ألفه محمد بن بيرعلي البيركوي أحد علماء الأتراك في القرن العاشر الهجري ، ولد ببالكسر سنة ٩٢٦هـ ، وتوفي سنة ٩٨١هـ ومن تصانيفه «آداب البيركوي ــ إظهار الأسرار في النحو ــ امتحان الأذكياء في شرح لب الألباب للبيضاوي في النحو أيضاً ــ العوامل في النحو ــ تحفة المسترشدين في بيان فرق المسلمين»[1] .

وقد كتبت نسبة المؤلف كما يلفظها الأتراك أنفسهم ، وفي المراجع تكتب البركوى. وكنت أعرف الفرق بين عوامل عبد القاهر وعوامل البيركوى . فإلى عهد قريب كان لدي مخطوط مجموع يضم الكافية وإظهار الأسرار ، وعوامل البيركوي (أصبح الآن في مؤسسة الملك فيصل الخيرية) ، ولكن كيف يقع مثل هذا الأستاذ المتخصص في مؤلفات عبد القاهر في خطأ جسيم كهذا فينسب

كتاباً مؤلفاً في القرن العاشر من قبل أعجمي لا يحسن التعبير بالعربية جيداً إلى الإمام عبد القاهر إمام البلاغيين وشيخ النحاة غير مدافع ؟ ولو وقع مثل هذا الخطأ من جاهل مثل جامع مجموع مهمات المتون لما كتبنا عنه شيئاً أما أن يقع من أستاذ متخصص في أعمال عبد القاهر فذلك ما يستحق النكير . والنسخة التي اعتمد عليها المحقق من عوامل البيركوي مطبوعة وعليها كتابة بالتركية وليس فيها ما يشير من قريب ولا من بعيد إلى عبد القاهر ، فكيف يجوز لنا أن ننسبها إليه؟ ألمجرد أن اسم الكتاب مشابه لما أطلقه عبد القاهر على كتابه ؟ .

لو رجع الأستاذ المحقق إلى بعض فهارس المخطوطات لما وقع في هذا الخطأ فعلى سبيل المثال هناك أربع نسخ مخطوطة من عوامل البيركوي في المكتبة الظاهرية بدمشق وتسع نسخ من العوامل المائة لعبد القاهر ، وقد أثبتت الأستاذة أسماء الحمصي معدة الفهرس عبارات من بداية كل من الكتابين .

فعوامل عبد القاهر أوله بعد البسملة « العوامل في النحو على ما ألفه الشيخ الإمام الفاضل عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني — سقى الله ثراه وجعل الجنة مثواه — مائة عامل .. » .

وعوامل البيركوي أوله بعد البسملة والحمدلة والصلاة على الرسول ﷺ « فاعلم أنه لابد لكل طالب علم معرفة الإعراب من معرفة مائة شيء ، ستون منها تسمى عاملاً ، وثلاثون منها تسمى معمولاً ، وعشرة منها تسمى عملاً وإعراباً »[٢] .

ولكن لنفرض أن مثل هذه الفهارس لم تتوافر للأستاذ المحقق ليطلع عليها فهل يحق له أن ينسب هذا الكتاب لعبد القاهر ؟ ألم يقرأ جيداً عوامل البيركوي هذا ؟

إن قراءة هذا الكتاب مرة واحدة كفيلة بنفي نسبته إلى إمام البلاغيين ، فلنلق نظرة على الأمثلة النحوية التي أوردها البيركوي في كتابه :

١ — مثال الاستثناء المنقطع : المعصية مبعدة عن الجنة إلا الطاعة مقربة منها .

٢ — مثال (أنى) الشرطية : أنى تذنب يعلمك الله .

٣ — مثال التأكيد اللفظي : اطلب الإخلاص الإخلاص .

٤ — مثال نصب المضارع وجزمه : نحب أن نشفع ولم نحرم .

٥ — مثال رفع المضارع المعتل الآخر ونصبه وجزمه : ندعو الله أن يعفو عنا ولم يرمنا في النار .

٦ — مثال رفع المضارع بثبوت النون وجزمه بحذف النون : الأولياء والعلماء يشفعان يوم القيامة ، فنرجو أن يشفعا لنا ولم يعرضا عنا .

هل هذا أسلوب عبد القاهر وبيانه وبلاغته ؟

لقد قال أستاذنا المحقق عن مثل هذه الأمثلة: إنها « بعدت عن الشواهد التقليدية واهتمت بالاتجاه التعليمي وتلخيص فكرة العوامل تلخيصاً يهتم بجوهر النظرية .. » ص ١٣ .

وهنا أود أن أقول للأستاذ المحقق ولغيره ممن يتحدث عن نظرية العامل إن فكرة العامل هي هي لم تتغير من عهد سيبويه إلى عصرنا الحاضر عند من يفهم النحو فهما صحيحاً ، فعبد القاهر لم يطور فكرة العامل لا في كتابه العوامل المائة ولا في كتابه الجمل ، كما أن البيركوي أيضاً لم يأت بشيء جديد في هذا المجال فكل ما فعله عبد القاهر في كتاب العوامل المائة أنه حصرها بشكل يسهل حفظها ، أما في كتاب (الجمل) فإنه يعد أول نحوي يؤلف مصنفاً يحتوي على جميع أبواب النحو من خلال فكرة العامل ، وتقسيمه للعوامل ثلاثة أقسام — الأفعال العاملة والحروف العاملة ، والأسماء العاملة ، مأخوذ من ابن السراج في أصوله .

ثم أتى السكاكي فغير قليلاً في طريقة التأليف حيث قسم القسم النحوي من مفتاحه ثلاثة أقسام : قسم للقابل وهو المعرب أو المعمول ، وقسم للفاعل أو العامل وقسم للأثر أو الإعراب أي العمل .

ثم جاء الاسفراييني فألف كتاباً على أربعة أقسام الأول في الإعراب والثاني في المعرب والثالث في العامل والرابع في المقتضى للإعراب .

فالبيركوي هذا لم يأت بشيء جديد ولا يستحق كتابه الذي نسبه المحقق لعبد القاهر كل هذا الاهتمام الذي أبداه المحقق فقد ظن أن الكتاب لعبد القاهر فذهب يكيل له المدح كيلاً ، وهذه آفة من آفات العلم ، فكثيراً ما نعرف الحق بالرجال مع أن الحق يقتضي أن نعرف الرجال بالحق .

وأود أن أذكر الأستاذ المحقق أنه ورد في عوامل البيركوي مصطلح نائب الفاعل وهذا المصطلح لم يستعمله عبد القاهر في كتبه النحوية على الإطلاق ، وينقل لنا الشيخ خالد الأزهري عن أبي حيان أن أول من استخدم مصطلح نائب الفاعل هو ابن مالك المتوفى في القرن السابع الهجري ، فبينه وبين عبد القاهر قرنان من الزمان[٣] .

وكان النحاة قبل ابن مالك يستعملون مصطلح (مفعول ما لم يسم فاعله) بدلاً من (نائب الفاعل) .

وبناء على هذا الخطأ في نسبة كتاب البيركوي لعبد القاهر تتابعت سلسلة أخطائه ، قال في ص ١٢ : « فهذا التقسيم الأخير للعوامل المائة تقسيم محدث عنده نتيجة لفهم جديد مخالف تماماً في

جوهره للتقسيم السابق في كتابه العوامل المائة الذي سماه (عوامل عتيق».

والحق أن البيركوي لم يقسم العوامل تقسيماً جديداً فكتابه لا يتناول العوامل فقط وإنما يتناول ثلاثة أشياء .. العوامل ، والمعمولات ، والعمل ، فالتسمية عنده من باب إطلاق اسم الجزء على الكل .

ويستغرب المحقق ممن جاء بعد عبد القاهر ولم يتنبه إلى هذا الإبداع الذي جاء به في العوامل الجديدة ! ومن ضمنهم الشيخ خالد الأزهري الذي لم يشرح العوامل الجديدة وإنما شرح (عوامل عتيق!) [ص ١٢ ، ١٣]

يا سبحان الله ! وأنّى للشيخ خالد الأزهري أن يشرح ما سماه بالعوامل الجديدة مع أن مؤلف هذا الكتاب ولد بعد وفاة الشيخ خالد رحمه الله !

ومن المضحكات بعد ذلك قوله عن عبد القاهر : « ويجب ألا يغيب عن بالنا أنه لم يكن في مقدوره أن يلغي العوامل المائة القديمة ، وذلك لسعة انتشارها ، فأطلق عليها اسم (عوامل عتيق) في مقابل العوامل في ثوبها الحديث .. وفي ظني أنه لو استطاع أن يجمع (عوامل عتيق) ويلغيها نهائيا لصنع ، ولكن أنّى له ، وقد تناقلته أيدي الطلاب وانتشر في أكثر من موطن » [ص ١٣] .

أما عن التحقيق — أعني تحقيق النص — فقد وضع المحقق عنوان « منهج التحقيق وخطة النشر » ولكننا مع ذلك نبحث عن هذا المنهج وعن هذه الخطة فلا نجد غير وصف للمخطوطات .

ولقد قال المحقق في المقدمة : « الكتاب الذي أقدمه اليوم في حقيقته كتابان محققان معاً ، كتاب العوامل المائة لعبد القاهر الجرجاني في صورتيه القديمة والحديثة ، والثاني شرح له (شرح العوامل المائة) للعلامة الشيخ خالد الأزهري » (ص ١٧) .

ولكننا لا نجد أي تحقيق فيما يتعلق بكتاب العوامل : فمتن كتاب العوامل المائة لعبد القاهر « عوامل عتيق كما يسميها المحقق » يبدأ في الصفحة ٩٩ وينتهي في ص ١٠٧ وفي هذه الصفحات التسع لا نجد غير ستة هوامش تمثل تعليقات بعض المتملكين على المتن أثبتها المحقق على ما هي عليه ، ففي الصفحة ٩٩ نجد على عبارة المتن التي تتحدث عن معاني حرف الجر الباء فتقول « والرابع للمقابلة نحو : بعث هذا بهذا » نجد على كلمة (بعث) رقم (١) وعلى كلمة (بهذا) رقم (٢) وفي الهامش نجد بعد الرقم (١) هذا الكلام : فعل وفاعل — هذه بالمتن ولكن رأينا أن يكون مكانها هنا فهي بخط مخالف لما في المتن .

وبعد الرقم (٢) نجد هذا الكلام : محل مجرور . هذا بهذا اسم من أسماء الإشارة محل منصوب مفعول بعث .

وكلمة (بعث) في المتن والهامش مكتوبة بالثاء المثلثة فلا أدري أهو خطأ مطبعي أم أن المحقق لم يفرق بين بَعَث و بِعْتُ ؟ .

ثم ما فائدة إثبات مثل هذه التعليقات ذات التعابير الخاطئة . ولا يختلف عن هذين التعليقين التعليقات الأربعة الباقية .

فالمحقق لم يفعل شيئاً سوى أن أفرغ النص الموجود في المخطوطة على ما هو عليه بأخطائه الموجودة في المتن وفي الهوامش ، حتى الآيات القرآنية لم يحددها مع أن الشواهد القرآنية في كل الكتاب لا تتجاوز ست عشرة آية .

ومن الأخطاء التي وردت في النص دون أن يشير إليها المحقق ما جاء في ص ١٠٢ ثم تكرر كثيراً بعد ذلك قول المصنف « النوع الثاني من ثلاثة عشر نوعاً ، حروف تنصب الاسم وترفع الخبر » .

فقد قسم عبد القاهر العوامل اللفظية السماعية ثلاثة عشر نوعاً ذكر النوع الأول وهو حروف الجر ، وعند الانتقال إلى ذكر النوع الثاني ، نجد العبارة السابقة ووجه الخطأ فيها أنه لابد أن يقال: النوع الثاني من الثلاثة عشر نوعاً ، فـ (الـ) العهدية هنا واجبة الدخول حتى ترتبط العبارة بما قبلها . وهذا الخطأ من النساخ بلا شك .

وفي ص ١٠١ نجد سطرين مكررين يفصل بينهما سطران وهو قول المصنف : « والعاشر (مذ) والحادي عشر (منذ) وهما لابتداء الغاية في الزمان ، فقد تكرر هذا السطر بعد سطرين وسقط بدلاً منه سطر آخر يتحدث عن (حتى) أكمّله للمحقق من مخطوطة العوامل التي حصلت على صورة منها من المتحف البريطاني (ولا يوجد عليها عبارة : عوامل عتيق) والسطر الساقط هو قول المصنف «والثاني عشر (حتى) ولها معنيان ...»

وأما تحقيق المتن الثاني وأعني به عوامل البيركوي التي يسميها المحقق العوامل الجديدة فإنه عبارة عن مقابلة بين قسم العامل من هذا الكتاب وبين كتاب العوامل لعبد القاهر .

ويذكر المحقق في ص ١١٧ الهامش رقم (١) أنه اعتمد على نسخ مخطوطة كثيرة لكتاب العوامل في التحقيق مع أنه لم يثبت فرقاً واحداً فيما بينها في تحقيق المتن الأول وليس من المعقول أن يتطابق هذا العدد من النسخ تطابقاً كاملاً ، وبخاصة أن كتاب العوامل لعبد القاهر قد دخله غير قليل من الزيادة على مر الزمان وذلك بسبب انتشاره الواسع وتداوله بين المبتدئين الذين لم يكونوا أحياناً قادرين على التمييز بين عبارة المتن المتداخلة مع الشروح وبين عبارة الشروح نفسها في أثناء عملية النسخ .

ونشير هنا إلى أنه حدث تداخل بين مبحث العطف والتأكيد في ص ١٢٦ — ١٢٧ فليتنبه إليه المحقق .

أما ما يتعلق بتحقيق نص شرح العوامل للشيخ خالد الأزهري فإن عمل المحقق لم يتعد تحديد الآيات وبعض الشواهد الشعرية ، فلم يوثق الآراء بتعيين مصادرها ولم يترجم للأعلام الواردة في المتن ، كما لم يخرج الأحاديث الشريفة .

وربما مر المحقق بشاهد شعري دون أن يتنبه إليه كما جاء في السطر الأخير من ص ١٦٤ : « ليت لي بهم قوماً » فهذا جزء من بيت لقريط بن أنيف أحد شعراء بلعنبر يقول فيه :

فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا
شنوا الإغارة فرساناً وركبانا

وهذا البيت من قصيدة مشهور مطلعها :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي
بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

وكذلك لم يتنبه إلى قول الشاعر : وبلدة ليس بها أنيس ص ١٨٢ ، وكذلك قول الشاعر : يا ليت أيام الصبا رواجعا (ص ٢١٨) .

كما قد يمر المحقق ببعض الآيات دون أن يشير إلى أرقامها في سورها كما جاء في السطر الثاني من ص ١٧١ ، وقد يكمل الشاهد الشعري دون أن يحيل إلى المرجع الذي أخذ منه مثلما فعل في الهامش رقم (٤) ص ١٧١ ، والهامش رقم (٣) ص ١٨١ ، والهامش رقم (١) ص ٢١٥ ، والهامش (١) ص ٢٢١ ، وغير ذلك كثير .

وقد يأتي المؤلف بمثال فيظن المحقق أنه جزء من آية كما جاء في ص ١٧٥ الهامش (٧) على ما جاء به المؤلف من مقال عن لام الملكية : الملك لله ، فعلق المحقق : صحتها : الملك يومئذ لله (سورة الحج آية ٥٦) .

وكذلك في ص ٢٠٩ هامش رقم (٥) ، فالمذكور في المتن : أما إن الساعة لآتية ، مثال عن حرف التنبيه (أما) علق عليها المحقق على أنها الآية ٥٩ من سورة غافر .

وبعدُ .. فهذا تحقيق أستاذ متخصص يحمل لقباً علمياً عالياً أفليس هذا أمراً مؤسفاً ؟

بقي أن أشير إلى أن الأستاذ المحقق مؤلف كتاب باسم « عبد القاهر الجرجاني المُفْتَنُّ في العربية ونحوها » وعلى الرغم من أنني لم أطلع على هذا الكتاب اللهم إلا تلك النتف والإشارات التي وردت في مقدمة كتابه الذي بين أيدينا ، على الرغم من ذلك فإني على يقين من أنه افتن — بفتح التاء وتشديد النون — في التأليف والوصول إلى النتائج أيما افتنان ، كما افتن في تحقيقه لشرح العوامل المائة ، ويقال : افتنَّ فلان في القول ، أي : سلك به طرقاً شتى ، وجاء فيه بأفانين عجيبة .

وفي الخاتمة ..أدعو الدار الناشرة إلى إيقاف توزيع هذا الكتاب ، وسحب مايمكن سحبه من الأسواق لتصحيح ما فيه من تزييف لا أشك أنه حدث جهلاً لا عمداً . **والله أسأل أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلاً ، ويرزقنا اجتنابه .**

الهوامش

١ — هدية العارفين ٢/٢٥٢، كشف الظنون ١/١١٧ .

٢ — فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (قسم النحو) ص ٣٦٠ — ٣٦٦ ، وينظر أيضاً (فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد ج ٣ /٣٢٨ — ٣٢٩) .

٣ — (التصريح ١/٢٨٦) .

٤ — (شرح الحماسة للتبريزي ١/٩ ، ١٢ — خزانة الأدب للبغدادي ٣/٣٣٤) .

العرض والتحليل

أدب المقالة الصحفية ... وملاحظات

علي جواد الطاهر
أستاذ متقاعد ـ كلية الآداب
جامعة بغداد

أدب المقالة الصحفية في مصر ـ تأليف الدكتور عبد اللطيف حمزة ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار الفكر ، مطبعة الاعتماد ، تاريخ المقدمة فبراير ١٩٥٠م ـ مادته الأساس : رفاعة الطهطاوي . عبد الله أبو السعود . محمد أنسي .

(١) ص ٢٧ « أهرعوا (يقصد السوريين) إليها (أي إلى مصر) في عهد محمد علي ... »

المناسب أن يستعمل « هُرِعوا إليها » بضم الهاء وكسر الراء ، يقصد أسرعوا ، وإن كان الأصل في الاستعمال يفيد الاضطراب مع السرعة . أما أهرعوا فهي ـ كما يجب ـ بضم الأول وكسر الثالث « أُهرِعوا » وهم مُهرَعون بضم الميم وفتح الراء ، فمعناها أُرعِدوا (بضم الأول وفتح الثالث) من غضب أو خوف أو ضعف .

(٢)ص ٩٠ ـ عن رسالة الغفران :

«ياحبذا جبل الريان من جبل وحبذا ساكن الريان من كانا
وحبذا نغمات من يمانية تأتيك من قبل الريان أحيانا»

لم يرد البيتان في رسالة الغفران بتحقيق عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) وإنما ورد ص ٢٥٠ مطلع قصيدة جرير التي منها هذان البيتان ؛ والمطلع هو : «بان الخليط ولو طووعت مابانا ..» وصحيح « نغمات » الواردة في رواية « أدب المقالة الصحفية » : نفحات ـ ولعله من الخطأ المطبعي .

(٣) ص ٢١٨ « والعجيب أن مقاليد الصحافة الشعبية انتقلت بعد ذلك [من أيدي السوريين] إلى أيدي اللبنانيين . فاستأثروا بها مدة طويلة ، وامتدت آثارهم فيها إلى خارج بلادهم ، فوجدناهم ينهضون بالصحافة الشعبية في مصر وأوروبا وأمريكا ؛ ومن صحفهم في فرنسا على وجه التمثيل :

.... صحيفة « مصر القاهرة » لأديب إسحاق ؛ وهي الصحيفة التي نشرها هذا الرجل في باريس منذ سنة ١٨٧٩م ...»

لا بد أن يعني قوله « ومن صحفهم » : ومن صحف السوريين ، لأن أديب إسحاق سوري دمشقي انتقل من دمشق إلى بيروت ثم إلى مصر ثم إلى فرنسا ... ؛ وإلّا وقع الخطأ في تصور أديب إسحاق لبنانيا .

(٤) ص ٢٢٠ « ومن المجلات التي نعمت بها بيروت ... مجلة « الجنان » للمعلم بطرس البستاني سنة ١٨٧٠م » .

ص ٢٣٣ « في عام ١٨٨٠م أصدر .. مجلة « الجنان » ... »

الصحيح أن المعلم بطرس البستاني أصدر « الجنان » « ابتداءً من أول كانون الثاني ١٨٧٠م » ـ ينظر يوسف أسعد داغر ، مصادر الدراسة الأدبية ج ٢ ص ١٨٢ . والأمر معروف .

(٥) قال المؤلف وهو يقابل بين الصحافتين المصرية والسورية ...ص ٢٤١ « ... لا بدافع الوطنية أو العصبية القومية »

المؤلف يكتب سنة ١٩٥٠م ويعد التعصب لمصر تعصباً « قومياً » يريد الإقليمية ، وإذا كانت القومية في مصر تعني الإقليمية (المصرية) في أول الأمر فليس ذلك بمقبول عام ١٩٥٠م !

(٦) في كلام المؤلف علي محمد أنسي وما كتبه في جريدة « روضة الأخبار » التي صدرت سنة ١٨٧٥م نقل له نصاً ترجم به للكاتب الفرنسي لوساج ، جاء فيه ما ينفع الباحث عن جذور المصطلحات الحديثة التي وردت أصولها من أوروبا ،وكيف استعملناها أول الأمر ومن ذلك ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣

« قطع تياترية أي تخليعات لعبية .. وباكورة تصنيفاته ، القطعة الكوميدية ، أي اللعبة التخليعية .. وقد أجرى اللعب بها وتصويرها بالتياتر ... وهي عبارة عن لعبة تخليعية مضحكة جداً ... ونشر أيضاً ... القصة المسماة « العفريت الأعرج » ... وألف في سنة ١٧٠٨م اللعبة المسماة « تاركاريت » ، وهي لعبة نفيسة ، وتخليعة رئيسة ، استهزأ فيها على المزارعين المستأجرين

للأراضي الزراعية من أصحاب الأملاك الأرضية .. ولم يلعب بها في الملاعب التياترية إلا من بعد معارضة شديدة، وممانعة عتيدة. ثم تم له الاشتهار عند جميع الناس ...

وكان قد حصل بينه وبين طائفة من اللاعبين بالملاعب الفرنساوية ، فصار يشتغل بتأليف الألعاب ، لطوائف اللاعبين .. سواق . ومكث على تلك الحال أكثر من عشرين سنة ... حتى كتب لهم عدة قطع كثيرة ، من تخليعات صغيرة، ومراقص مضحكة غير كثيرة ، تناولتها يد النسيان الآن ، ولكنها لم يزل أكثرها مسطوراً في ضمن مجموع الألعاب ، المسمى باسم « تياترو الأسواق » ، الذي كان هو الطابع له بنفسه ... إن أبدع ما ألفه ، وأصنع ما صنعه المعلم « لوساج » ... هو قصة « جيل بلاس » اشتهر هذا التأليف غاية الاشتهار ... حتى طبع زهاء ألوف الطبعات » .

أ ـــ وإذا أردنا أن نقابل قديم المصطلح بما صار إليه حديثا رأينا : قطع = مسرحيات ، تياترية = مسرحية ، اللعبة التخليعية = المسرحية الهزلية (الكوميدية) ، اللعب = التمثيل ، التياترو = المسرح ، القصة = الرواية (القصة الطويلة) ، اللعبة = المسرحية (التمثيلية) ، ولم يلعب بها في الملاعب التياترية = ولم تمثل في المسارح التمثيلية ، من اللاعبين بالملاعب = من الممثلين في المسارح ، الألعاب = المسرحيات ، طوائف اللاعبين = فرق الممثلين ، قطع = مسرحيات ..

ب ـــ قوله « ممانعة عتيدة » يريد شديدة ، قوية ، « عنيدة » والاستعمال غير صحيح ولكنه كان في زمانه ـــ وربما منذ زمانه ـــ حاصلا ، وإلّا فالعتيد : المعد ، الحاضر ، الجاهز ...

جـ ـــ جيل بلاس رواية قصصية وليست قطعة مسرحية .

(٧) « إني أردت « بأدب المقالة الصحفية » التحدث عن « فن تحرير المقال الصحفي » ، كما أردت أن أؤرخ للمراحل التي مرَّ بها هذا الفن في عصور مختلفة ، وذلك منذ ظهرت الصحافة في مصر في أوائل القرن الماضي » .

الكتاب مهم جداً في بابه، وهو « ابتكار » في منهجه وقصده ، قصده في التخصص بالجانب الأدبي بعد أن سبقه ـــ وقد نص على ذلك ـــ الدكتور إبراهيم عبده إلى تأليف كتاب في تاريخ الصحافة المصرية .

ومنهجه في الحديث « المسهب » عن « أعلام » المقالة الصحفية مؤيداً بأمثلة من مقالاتهم توضح السمات الأساس لديهم ، وتبين التطور الذي جرى مع الزمن .

إنه بهذا يصلح أن يتخذ قدوة في الأقطار العربية الأخرى ، خصوصاً بعد أن ألفت تلك الأقطار (مثل العراق والسعودية ...) في تاريخ صحافتها .

ولنلاحظ أن الجزء الأول تحدث عن « المدرسة الأولى » ممثلة برفاعة رافع الطهطاوي في « الوقائع المصرية ، وروضة المدارس » ؛ وعبد الله أبو السعود في جريدة « وادي النيل » ومحمد أنسي في جريدة « روضة الأخبار » .

وإذا كان قد تحدث في أول الجزء عن « نشأة الصحافة في مصر » فلم يفته الإلماح إلى الصحافة السورية (ـــ اللبنانية) والإشارة إلى أثرها في الصحافة المصرية ـــ في آخر الجزء .

ثم ختم الجزء بخصائص المقالة الصحفية (الأولى) وهي : السجع ، هبوط الأسلوب ، شيوع الألفاظ الأعجمية .

(٨) « وفي رأينا أن كلمة « التحرير » تعني أمرين دائماً هما التفكير والتعبير » وهذا قول « يصطاده » من يؤرخ للكلمات ، فيرى ما آلت إليه كلمة « تحرير » القديمة متأثرة بالواقع الحديث .

وعاد في الخاتمة يتحدث عن مدلول « المقالة الصحفية » وفرّقها عن المقالة الأدبية فقال (ص ٢١١ ـــ ٢١٧) : « المقالة الصحفية ... ليست في الحقيقة أكثر من فكرة من الأفكار، يتصيدها الكاتب الصحفي أو يتلقفها من البيئة المحيطة به . ومتى انفعل الكاتب الصحفي بفكرة ما ، أحس في نفسه حاجةملحة إلى الكتابة . وفي هاتين المرحلتين ، وهما مرحلة التصيد أو التلقف ، ومرحلة الانفعال والتأثر ، يشترك الصحفي والأديب ، ثم يفترق الرجلان بعد ذلك . أما الأديب فيترك العنان لخياله وشعوره ، كما يترك العنان لقلمه يكتب ما يشاء ، ويتبعه في ثورته كما يشاء (...) إن الفرق سيظل قائما (...) ومصدر الفرق بينهما هو الوقت الذي يتاح للأديب ولا يتاح للكاتب الصحفي ...

ملاحظة : أعيد طبع الجزء الأول ـــ لجنة النشر للجامعيين، دار الفكر العربي ، المطبعة العالمية . تاريخ المقدمة ١٩٥٨ ، ٢٢٢ ص + ١ .

أدب المقالة الصحفية في مصر ـــ تأليف الدكتور عبد اللطيف حمزة ـــ الجزء الثاني، الطبعة الثانية. ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي ، القاهرة ، مطبعة الاعتماد ١٩٥٧ ـــ مادته ، المدرسة الثانية : أديب إسحاق ومحمد عبده وعبد الله النديم .

(١) ص ٢٥ « ومصدر الجمال في أسلوب إسحق أشياء كثيرة ، منها سرعة الانفعال عند هذا الشاب، مما يجعل أسلوبه إلى طبيعة الشعر أدنى منه إلى طبيعة النثر؛ ومنها تلوين الكلام عنده بالمحسنات اللفظية والمعنوية مع قدرة ظاهرة على هذا التلوين في غير تكلف ممقوت ولا صناعة مرذولة (...) وباختصار نرى أن أسلوب أديب

إسحق يلذ الأديب أكثر من الصحفي ، وربما كان الأمر على عكس ذلك بالقياس إلى أسلوب الشيخ محمد عبده » .

أ ـ يُلح الدكتور حمزة على إبعاد المقال الصحفي عن السمة الأدبية أو إبعاد السمة الأدبية عن المقال الصحفي . وهو سيعود لينتهي من توضيح إلحاحه هذا في نهاية الكتاب (الفصل العاشر) فيقول ص ١٩٤ : « إن المقالة الصحفية لا يمكن أن تكون موضوعاً إنشائياً (...) إنما المقالة الصحفية عبارة عن فكرة تلقفها الكاتب من البيئة المحيطة به ، وتأثر بها ، ثم عبَّر عن ذلك بطريقة حظها من النظام قليل .. » وأحال على كتابه « مستقبل الصحافة في مصر » وينتهي إلى أن الأعلام الثلاثة الذين كانوا خطوة في المقال عموما لم يبلغوا بالمقال الصحفي الدرجة المطلوبة لأنهم : لأديب ، وخطيب ، ومصلح ..

ب ـ أراد أن يجرد النثر من انفعال الكاتب وهذا لا يصح على إطلاقه وإذا أريد إلى النثر الفني ، ولكنه يصح على خصوصه عندما يراد إلى المقال الصحفي كما يتمثله الدكتور حمزة .

جـ ـ قال إن أسلوب « أديب » أدنى إلى طبيعة الشعر . وذلك ممكن ، ولكن الأمكن أنه أدنى إلى طبيعة الخطابة .

(٢) ص ١٨٥ « ودع النَّديم قراءه بقوله في نهاية الكلمة ... :

أودعكم والله يعلم أنني أحب لقاكم والخلود إليكمو
وما عن قلبي كان الرحيل وإنما وداع تبدَّى والسلام عليكمو

أ ـ كان المناسب بالنديم أن يستعمل كلمة « الإخلاد » ثم تعديل الوزن بما يناسب .

ب ـ في « قلبي » خطأ مطبعي والصحيح . قلىً .

دكتور عبد اللطيف حمزة ـ أدب المقالة الصحفية في مصر ، الجزء الثالث ، إبراهيم المويلحي صاحب مصباح الشرق ، الطبعة الأولى ، ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي ، لجنة الجامعيين لنشر العلم ، مطبعة الاعتماد د . ت (تاريخ المقدمة ٨ يوليو ١٩٥١م) ـ ١٩١ + ١ ص .

١ ـ ص ٧ « إن إبراهيم (...) كان كاتب الأمير [إسماعيل] (...) ومن أجل هذا أصدر إبراهيم عدداً كبيراً من الجرائد فى أوروبا . وكلها على نفقة إسماعيل ، ومن وحيه ، ولخدمته . ولكننا مع الأسف الشديد لم نظفر بعد بواحدة من تلك الصحف المصرية التي ظهرت في البلاد الأوروبية . ولعل بعضها يوجد الآن في بعض نواحي لبنان . ونحن نأمل أن نحظى بها في يوم من الأيام ..»

أ ـ هذا مثل على ما ضاع، والضائع في مصر وغيرها ، حتى في العصر الحديث ، عهد الصحافة ، كثير .

ب ـ ويفترض أن تكون لنا به عبرة ، فنجدَّ في البحث عن الضائع ، ونسعى لحفظ مايمكن تداركه ... يفترض فقط !

جـ ـ ترى هل بقيت الحال إزاء هذه الجرائد الضائعة كما كانت عند تأليف « أدب المقالة .. » هذا ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟

٢ ـ ص ١١ « المِشعل .. » ـ بكسر الميم .. وتكررت في الصفحة نفسها .

في القاموس المحيط « وكمِقعد القنديل وكمِنبر المصفاة » ومقعد مفتوح الميم ومنبر مكسورها ، وهذا يعني أن المشعل مفتوح اللام .

وفي لسان العرب : والمَشعلة ـ بفتح الميم ـ واحدة المشاعل .

٣ ـ جاء ص ٣٠ في خلاصة أمر المويلحي (١٨٤٤ ـ ١٩٠٦م) « أسلوبه في الكتابة أدبياً أكثر منه صحفيا» ـ والمؤلف يصر ـ كما رأينا ـ على إبعاد السمة الأدبية عن المقالة الصحفية .

٤ ـ يصر المصريون على كتابة جرجي زيدان : جورجي زيدان ينظر هامش ص ٤٣ ، ٤٩ .

٥ ـ يهم من يؤرخ للدولة العثمانية وعهد السلطان عبد الحميد خصوصاً أن يعلم أن المويلحي كتب في ذلك « مقالات » مهمة عنوانها « ماهنالك » ثم جمعها في كتاب جعل عنوانه « ماهنالك » ربما لم تبق منه إلّا نسخة واحدة محفوظة بدار الكتب المصرية . يلخص الدكتور حمزة هذا الكتاب ص ص ١٢٠ ـ ١٤٩ .

ويذكر أنه صدرت أخيراً حلقة أولى من سلسلة « كتاب المركز العربي » هكذا : إبرهيم المويلحي ـ ماهنالك من أسرار بلاط السلطان عبد الحميد . دراسة تاريخية أحمد حسين الطماوي ، تقديم د . على شلش . كانت الطبعة الأولى سنة ١٨٩٦م .

٦ ـ ويهم من يؤرخ للقصة العربية الحديثة أن يقرأ الفصل الرابع « القصة في جريدة مصباح الشرق» وقد استطاعت هذه الجريدة أن تقدم قصتين كبيرتين .. الأولى « حديث عيسى بن هشام لمؤلفها محمد [بن إبراهيم] المويلحي ، وأما الثانية « فحديث موسى بن عصام » لإبراهيم المويلحي ـ وقد وقع خطأ مطبعي ص ١٠٠ فقد جاءت « لأبيه » : والصحيح « لابنه » .

دكتور عبد اللطيف حمزة ـ أدب المقالة الصحفية في مصر ـ الجزء الرابع ـ علي يوسف ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، مطبعة الاعتماد ، د . ت (١٩٥٢م ، أو بعيدها) ـ ٢٥١ ص + ٢ .

(١) ص ١٧٩ « وكان .. حزب الأمة الذي أسسه محمود سليمان باشا ... يملك صحيفة، هي « الجريدة » التي كان يتزعمها لطفي بك السيد ، وقد كان سعد باشا زغلول هو الرأس المفكرة

وراء هذا الحزب وتلك الجريدة في مستهل عهدها » .

الصحيح : هو الرأس المفكر . لأن الرأس مذكر . وليست هذه أول مرة يقع فيها كاتب مصري بتأنيث الرأس ــ وكأنهم يتأثرون بالعامية (المصرية) .

(٢) ص ١٩٢ « ... المؤتمر المصري الأول .. انعقد .. في غرة مايو سنة ١٩١١م .. أشار الشيخ عبد العزيز البشري في كتابه المختار إلى هذا المؤتمر فقال : « فشت الفاشية ــ لا أعادها الله ــ بين المسلمين وإخوانهم الأقباط عقب مصرع المرحوم بطرس باشا . وكان ذلك في سنة ١٩١٠م على ما أذكر...» وأحال المؤلف على المختار ــ الجزء الأول ص ٢١٣ .

أ ــ الإحالة ليست دقيقة؛ فيها خطأ مطبعي ، صحيحها ص ٢٣١ ــ ٢٣٢ .

ب ــ المختار .. لا يحدد تاريخ مقالة الشيخ عبد العزيز البشري لأنه يجمع مقالات مختارة للشيخ عبد العزيز البشري كتبها في تواريخ سابقة (صدر الجزء الأول من المختار عن دار المعارف بمصر ١٩٥٩م ــ في الطبعة التي بين يديّ) .

والمناسب ــ في هذه الحالة ــ الإحالة على أول نشر لمقالة البشري وهو ــ كما يشير المختار ــ هامش ص ٢٢٣ : مجلة الرسالة في ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٣٤م، ولا بأس من إثبات المصدرين .

المناسب أن نقول : « أشار .. البشري .. إلى هذا المؤتمر في مقال نشره في مجلة الرسالة ١٩٣٤م فقال ... ولابأس ــ بعد ذلك أن تأتي الإحالة على « المختار ...»

يبين تأخر تاريخ كتابة المقالة (١٩٣٤م) سبب نسيان البشري التاريخ الدقيق للمؤتمر ، فقد جعله ــ على ما يذكر ــ ١٩١١م ، بينما كان ١٩١٠م .

جـ ــ استعمال « غرة » إنما يكون أصلا للأشهر الهجرية لارتباط «الغرة» بالقمر .. وقد نقلت هنا توسعاً إلى الشهر الميلادي .

(٣) قال الشيخ علي يوسف ص ٩٠ «أصدرنا الجريدة في ثمان صفحات» وقال الدكتور حمزة ص ٩١ « في ثمان صفحات » .

الصحيح : في ثماني صفحات .

(٤) علي يوسف ١٨٦٣ ــ ١٩١٣م ، « في الثامن من شهر ربيع الأول عام ١٣٠٧ للهجرة ، الموافق لأول ديسمبر عام ١٨٨٩ للميلاد أصدر الشيخ علي يوسف جريدته « المؤيد » أولى الجرائد اليومية في الديار المصرية ..» ــ ص ٧٦ .

« عرف أسلوبه بالأسلوب السياسي لأن فيه من الميزات السياسية أكثر مما فيه من الميزات الأدبية » ــ ص ٢١٨ .

« والخلاصة في المقال الصحفي على يد الشيخ علي يوسف أنه لم يعد محاولة بدائية ضعيفة، كما كان عند رفاعة الطهطاوي وتلاميذه، ولا موضوعاً إنشائياً أنيقاً ، كما كان عند أديب إسحق ، ولا درسا دينيا أو اجتماعيا أو أخلاقيا كبيراً ، كما كان عند الشيخ محمد عبده ، ولا خطبة من الخطب الطويلة كما كان عند عبد الله النديم ، ولا معنيا فيه باللغة التقليدية (الكلاسيكية) القديمة ، كما كان عند إبراهيم المويلحي . بل إن المقال الصحفي الذي كتبه علي يوسف كان مادة صحفية صحيحة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، وكان في الوقت نفسه مطلقاً من جميع قيود الماضي التي تقيد بها أولئك الأدباء والصحفيون ممن ذكرناهم في معرض الموازنة بينهم وبين هذا الشيخ . وأهم من ذلك كله أن السيد علي يوسف كان يتكيء في هذا الأسلوب الصحفي الجديد على نفسه ، لا على غيره من أساطين وفحول الكلام .

وذلك معنى قولنا عن الصحفي هذا الفذ : كان بحق زعيم المدرسة الصحفية الحديثة في مصر » ــ ص ٢٢٣ .

دكتور عبد اللطيف حمزة ــ أدب المقالة الصحفية في مصر ، الجزء الخامس ــ مصطفى كامل صاحب اللواء ، الطبعةالأولى ، ملتزم الطبع والنشر لجنة الجامعيين لنشر العلم ، مطبعة الجريدة التجارية المصرية ، د . ت (تاريخ المقدمة ١٥ أكتوبر ١٩٥٢ ــ ٢٦٣ ص + ٢ .

١ ــ يستغل مقدمته لخلاصة مجدية للأجزاء السابقة : المدرسة الأولى ... رفاعة الطهطاوي ... حاولت إنشاء المقال الصحفي ، ولكنها تعثرت في الطريق . والسبب في ذلك أنها كانت مقيدة بميراث أدبي هزيل لم يعنها على القيام بهذا الفن الجديد الذي اضطلعت به ، وهو الصحافة .

ثم في الجزء الثاني ... تحدثنا عن ثلاثة من أعلام المدرسة الصحفية، وهم أديب إسحاق ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم فرأينا أعلام هذه المدرسة ينجحون نجاحاً عظيماً في كتابة المقال ، وعلى أيديهم كتب لمصر نجاح تام في هذا الميدان . ولكن ثلاثتهم كانوا أدباء ، فغلب على صحافتهم الأسلوب الأدبي الممتاز . وتقدم أديب إسحاق على صاحبيه في هذا المضمار . ثم كان محمد عبده واسطة هذا العقد من الكتّاب . أما ثالثهم وهو النديم فلا مراء في أنه كان صحفي مصر الممتاز في القرن الماضي غير مدافع .

ثم كان من أعلام هذه المدرسة الثانية (...) رجل أغرانا كثيراً بأدبه ، واستمالنا بروعة قلمه ، وبهر أعيننا بثروته اللفظية والفكرية (...) وقد حملنا ذلك على أن نخصه بالجزء الثالث (...) هو إبراهيم المويلحي .

ثم في الجزء الرابع (...) بدأنا الحديث عن المدرسة الصحفية الثالثة في مصر ، وزعيمها السيد علي يوسف صاحب المؤيد . وهوأول من فصل نهائياً بين الكتابة الصحفية الخالصة والكتابة الأدبية الخالصة » .

والجزء الخامس خاص بمصطفى كامل ، وهو « تلميذ مجتهد من تلاميذ المدرسة الثالثة ، كتب بأسلوبها ، واتبع منهاجها ، « وأصبح لا ينفرد عن رجالها إلّا بميزتين واضحتين : أولاهما ــ الاسترسال في اصطناع الأسلوب الخطابي . والثانية ــ إثارة الشعور بالمعاني الوطنية الجديدة ..» .

أ ــ لا نشك في علم الدكتور حمزة وتتبعه وسلامة قصده ، ولكننا يمكن أن نرى في اصطناع مصطفى كامل للأسلوب الخطابي في إثارة الشعور ما يخرج ــ قليلاً أو كثيراً ــ عن الصفة الأساس التي قدمها المؤلف للمدرسة الثالثة وهي : « الفصل النهائي بين الكتابة الصحفية الخالصة والكتابة الأدبية الخالصة ». والخطابة أدخل في الأدب منها إلى الصحافة .

ب ــ استعمل «بهر» فعلاً متعديا . وفي «القاموس» : بهر القمر كمنع غلب ضوؤه ضوء الكواكب ، وفلان : برع

٢ ــ ص ٢٥٩ جاءت قافية البيت الثاني «زاويا» وهي في الأصل ذاويا ، ويعود الخطأ إلى اللهجة المصرية ! .

٣ ــ سيأتي الكلام في الجزء السادس على أحد الأعمدة الثلاثة المهمة للمدرسة الثالثة : أحمد لطفي السيد في « الجريدة » .

دكتور عبد اللطيف حمزة ــ أدب المقالة الصحفية في مصر ، الجزء السادس ، أحمد لطفي السيد في الجريدة ، ط ١ ، سنة ١٩٥٤م ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، مطبعة الاعتماد . لجنة النشر للجامعيين ٢٣٦ ص + ٢ .

١ ــ ص ٨٤ ــ ٨٥ « كان المقال هو الهدف الأول (للجريدة) منذ ظهورها . كما كان المقال الهدف الأول للصحف الوطنية الأخرى كالمؤيد واللواء ، وغيرهما . وكان لهذه المقالات التي كتبها لطفي السيد .. اتجاهات .. أهمها الاتجاهات الخمسة التالية ، وهي : ١ ــ الاتجاه السياسي ٢ ــ الاتجاه الاجتماعي ٣ ــ اتجاه في التربية والتعليم ٤ ــ الاتجاه اللغوي ٥ ــ الاتجاه الأوروبي » .

صحيح الاتجاه الأوروبي : الأدبي ، وهو من الخطأ المطبعي بدليل ص ١٦٣ « الجريدة في الميدان الأدبي» .

٢ ــ ص ٧٧ « ظهر .. كتابان .. أحدهما لجورجي زيدان وعنوانه (تاريخ آداب اللغة العربية) ، وكتاب آخر للشيخ أحمد السكندري .. بعنوان (تاريخ آداب اللغة) .. وتكرر جورجي والسكندري ص١٨١ .

الصحيح : جرجي زيدان وأحمد الإسكندري **(والسكندري ليست خطأ وإنما هي من العامية ، وليست مما يكتب لدى التأليف)** والذي أعرفه من الاسم الكامل لكتاب الإسكندري هو : «تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي» صدر سنة ١٩١١م .

٣ ــ ص ١٧٩ « وظهر للمنفلوطي كتاب آخر بعنوان «المختارات» اختار فيه لطائفة من الشعراء القدماء ..»

اختار للشعراء ولغير الشعراء ، من قدماء وغير قدماء

٤ ــ كتاب الدكتور حمزة «أدب المقالة ...» وكان المفروض أن يقدم له ، في مقدمة الجزء الأول عن «المقالة» في نشأتها وتطورها ... وأنواعها .. ولكنه لم يفعل بذلك المنهج ، حتى إذا بلغ الحديث عن «أسلوب لطفي السيد» في الجزء الرابع قال ص ١٨٣ ــ « سبق لنا في نهاية الجزأين الأولين ... أن أشرنا إشارة عابرة إلى أصول هذا الفن ... ثم مضى يتحدث عن «المقالة» ...

ص ١٨٤ والانجليز يطلقون على المقالة كلمة Essay ومعناها (محاولة) أي أنها شيء غير مكتمل .. ص ١٨٥ انقسمت المقالة من حيث هي إلى نوعين (أولهما) المقالة الذاتية أو الشخصية .. (وثانيهما) المقالة الموضوعية ... وقد كان يمثل النوع الأول .. مونتاني.. كما كان يمثل النوع الثاني بيكون ... وبقي الحال على ذلك حتى ظهر ديفو .. أديسون ...»

لا أرى موجباً للإلحاح على معنى «المحاولة» .. وأية «محاولة» هذه التي يزاولها كبار الأدباء ..

٥ ــ الفصل التاسع : أسلوب لطفي السيد ص ص ١٨٢ ــ ٢٠٤ « لئن كان علي يوسف هو الرائد الأول للصحافة المصرية الحديثة ، وكان مصطفى كامل هو النبي الحق للوطنية الصادقة الكريمة ، فإن لطفي هو رسول هذه الأمة للثقافة الجامعية منذ أوائل هذا القرن الذي نعيش فيه (...) ولم يكن لطفي من المؤمنين بالطفرة . بل كان يؤمن بالتطور الذاتي للأمة . فجاء أسلوبه ملائماً لهذه النظرة : عليه طابع الهدوء والتفكير العميق (...) يمثل القمة التي سمت إليها المدرسة الحديثة في الترسل الصحفي الذي يمتاز بالبساطة والوضوح ، وحرية التعبير القائم على التعقيل الصحيح (...)

إذا قلنا إن لطفي السيد رجل ذو عقلية فلسفية ، وإنه ذو ثقافة قانونية سياسية أدبية تاريخية ، وإن نفسه أكثر ميلاً للتأمل منها للتمرد أو الثورة فقد قلنا كل شيء عن أسلوب هذا الكاتب ، أو طريقته في الكتابة ، إذ لابد لهذه الطريقة من أن تتميز بصفات معينة منها : صفة الواقعية (...) شيوع المنطق في الكتابة (..) مساواة اللفظ بالمعنى .. من أجل ذلك قلما يسهب .. لا نعرف له موقفاً

خطابياً ... شيوع السخرية الهادئة .. سخرية تنمّ عن ابتسامة خفيفة على شفة كاتبها ... النزاهة في اللفظ والعفة في الأسلوب ..

إذا كان لابد من ذكر شيء من المآخذ على أسلوب هذا الكاتب العظيم فثمَّ مأخذ واحد ، هو من وجهة نظر الأديب ، وليس من وجهة نظر المشتغل بالعلم أو الصحافة . وهذا المأخذ هو أن أسلوب هذا الفيلسوف قليل الماء ، قليل الرواء يعوزه كثير من عوامل التطرية ..

والقدماء من النقاد يسمون الأسلوب الخالي من الروائع الفنيه (مغسولا) يعنون بذلك أنه محروم من عوامل التطرية أو التحلية ، محروم من العبارات التي تلفت النظر بجزالتها وفخامتها ، أو بجمالها ورونقها ، أو بألفاظها المنتقاة ذات النغم الحلو ونحو ذلك ..»

لا أذكر أني قرأت للنقاد القدماء وصفا للأسلوب بكلمة «مغسول» ، وياحبذا لو تفضل بالمصدر أهل العلم .

٦ ــ صدرت جريدة الجريدة في ٩ مارس سنة ١٩٠٧ ، ولها أهميتها في الميادين السياسية والاجتماعية والتربوية ــ التعليمية واللغوية والأدبية .

للدلالة الأدبية نرى في أُسرتها ــ فيمن نرى : محمد السباعي وعبد الرحمن شكري .. ويتصل بالجريدة من آن لآخر عدد من شباب مصر .. طه حسين ، مصطفى عبد الرازق ، محمد حسين هيكل ، عباس العقاد . ومن الشعراء الناشئين حافظ إبراهيم ومصطفى صادق الرافعي وإسماعيل صبري ..

ونزيد في الكتاب : عبد العزيز البشري وإبراهيم المازني وسلامة موسى ؛ وفي الشعراء أحمد زكي أبو شادي وأحمد شوقي .. وكان طه حسين في هؤلاء وهؤلاء .

وأسماء «كثيرة» ذكرها المؤلف .

٧ ــ جاء في مقدمة الجزء : أن الأستاذ إسماعيل مظهر رجع إلى «الجريدة» فجمع مقالات أحمد لطفي السيد «في كتب ثلاثة هي : كتاب المنتخبات ، وكتاب التأملات ، وكتاب بعنوان صفحات مطوية » .

الدكتور عبد اللطيف حمزة ــ أدب المقالة الصحفية في مصر ــ الجزء السابع . أمين الرافعي في صحف اللواء والشعب وغيرها . الطبعة الأولى . القاهرة ، ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي د . ت ــ تاريخ المقدمة يناير ١٩٥٩ ــ ٣١١ ص + ص : قائمة الكتب والأبحاث الخاصة بالمؤلف المجموعة الأولى + ٣١٢ ــ ١٤ : المجموعة الثانية وفيها أدب المقالة الصحفية وتواريخ أجزائها السبعة، السابع ط . دار الكتاب المصري . سنة ١٩٥٩ + ص : الفهرست + ص : دار الكتاب المصري .

١ ــ يسير المؤلف على منهجه الرصين في دراسة المقالة الصحفية ضمن إطارها التاريخي للكاتب ــ وكتّابُه كبار في القلم والرأي والعلم والسياسة والمكانة الاجتماعية ، فهم صحفيون لهم وزنهم ، فبحثه دراسة للمقالة في موضوعاتها وتطورها ، ودراسة للكاتب في حياته وأفكاره ومواقفه . وفي الدراسة استيعاب وتمثل ومتابعة من الداخل والخارج ، وكل جزء يعدل كتاباً قيّماً ، ويقع تاريخ «فقيد الوطن» المغفور له أمين الرافعي (بك) بين ١٨٨٦ ــ ١٩٢٧م وما أكثر الأحداث في مصر خلال هذه الأعوام وما أصعب الثبات على الرأي والاستعداد للتضحية ــ لو تمنينا كتباً ــ أو كتاباً ــ مناظرة للأقطار العربية الأخرى ــ ونتمنىٰ ــ أن نجد مثل هؤلاء الكتاب الصحفيين ؟! .

٢ ــ ص ١٩ «الأمة المصرية توكل عنها الوفد المصري في قضيتها» . هكذا كان مفهوم الأمة (في مصر على الأقل ، مصر المتيقظة ، الثائرة) . الأمة تعني مصر، الأمة المصرية ، الشعب المصري ، الوطن المصري .

ولهذا الاستعمال سنده اللغوي و «الأمة : الجماعة. قال الأخفش : هو في اللفظ واحد وفي المعنى جمع» .

وتجد ــ مثلا ــ على ص ٢٧١ «وخرجت الأمة من ثورتها الكبرى سنة ١٩١٩ ولها قضية وطنية» وعلى ص ٢٧٤ «كان سعد زغلول وكيلا عن الأمة المصرية في قضيتها الوطنية ..» وتنظر ص ١٣٠ ، ١٦٦ ، ١٨٥ ، ١٨٤ ، ٣٧ .

ولا تعدم أن تجد لهذا الاستعمال من مدلول «أمة» نظائر في أقطار عربية أخرى . بمعنى أن مفهوم «الأمة» في الدلالة على العرب كلهم مصريين وغير مصريين ، في الدلالة على «الأمة العربية» .. لم يكن قد ولد ، أو تقرر أو صار مصطلحاً . أقول هذا تنبيهاً لمن يحكّم المتأخر بالمتقدم ولم يراع تاريخ «المصطلح» .

٣ ــ ومثل ذلك أو قريب منه في الأقل القوم والقومية .

وهنا تجد ص ١٦٣ «أمين الرافعي والوحدة القومية» ٢ و ص١٨٤ ــ ١٨٥ «طفق أمين الرافعي يدافع عن هذه الفكرة (...) بحيث تحقق القومية» .

مع ملاحظة لابد منها ، هي أن كلمة «القومية» هذه لم نلتقطها من نص لكلام أمين الرافعي وإنما من تعليق للمؤلف (الدكتور عبد اللطيف حمزة الذي يكتب سنة ١٩٥٩) يضيق فيه مفهوم القومية العربية فيحصره بقطر دون قطر بعد أن اتسع وشمل الأقطار العربية

كلها والعرب كلهم . قال عبد اللطيف حمزة ــ كذلك ــ ص ٣٠٧ وهو يختم الكتاب « .. وكان أحمد لطفي السيد بطلاً من أكبر أبطال الجامعة القومية التي حلت محل الجامعة الإسلامية» فماذا يقصد ؟ أكبر الظن أنه يفكر بمصر وحدها ..

والدكتور عبد اللطيف حمزة وإن كان مقيداً بضيق العصر الذي يتحدث عنه ، ولكنه لم يكن مقيداً لدى تعليقه أو حكمه أو استعماله وهو في عام ١٩٥٩ . ترى أورد ذكر «القومية» في مقالات أمين الرافعي ؟ أورد على قلم أحمد لطفي السيد وخرج به عن مفهوم مصر ؟؟ أشك في ذلك .

إن الدكتور حمزة يستعمل القومية قرينة للأمة ، قرينة للوطن، وهكذا قال ص ٣٥ «لم تعرف مصر من قبلُ معنى الوحدة القومية والتضامن الوطني كما عرفته في غضون الثورة التي قامت في عام ١٩١٩ .. الشعب .. الوحدة ..

إذا لم تكن «القومية» قد استعملت أيام أمين الرافعي ، وفي حوالى عام ٩١٩ بمصر فالمؤلف يُسأل عن استعمالها الضيق . وقد اتسعت في عهده (عام ١٩٥٩) أي اتساع واكتسبت من معاني الوحدة العربية والعروبة ، والسياسة والارتباط بالجنس .. ما اكتسبت .

أقول هذا وأنا أعلم جيداً أن «القوم» في أصل الاستعمال العربي (القديم) تعني «الجماعة» وأننا حملناها في العصر الحديث معاني لم تكن لها وإنما تأثراً باستعمالات الغرب لكلمة NATION وهي لديهم ذات معاني مختلفة ومتطورة مع التاريخ والسياسة فهي : شعب ، طائفة ، أمة ، جنس ــ والقومية حين ترتبط بالعنصر والجنس مع عاطفة خاصة وحماسة لجمع أبناء الجنس الواحد .. الخ ومعلوم منها ــ ما كان خاصة في القرن التاسع عشر لدى الوحدة الألمانية ، والوحدة الإيطالية .. الخ .. وترجمنا Nationalisme بالقومية .

٤ ــ ص ٣٧ ، ص ٢٤٠ «وقبل الإجابة على هذا السؤال ...» الإجابة عن .

٥ ــ ص ٥٢ «قول الشاعر العربي :

فبينا المرء في الأحياء مغتبط   أو إذا هو الرمس تعفوه الأعاصير»

أ ــ البيت من البحر البسيط ، وصدره سليم .

ب ــ أما العجز فغير سليم.

جـ ــ وآسف إذ لا أحفظه ، ويمكن تعديله ــ ولو مؤقتا ــ هكذا :

«إذاه في الأرماس تعفوه الأعاصير» أو «إذا هُوْ في الرمس تعفوه الأعاصير» بسكون الواو من هو .

٦ ــ ص ٦٧ «جوجي زيدان» ولعله يريد جورجي والصحيح : جرجي .

٧ ــ ص ٨٥ «بدأ أمين حياته مصاحفا لجريدة «اللواء» (...) ثم صحيفة «العلم» (...) ومع هذا كان أمين يصاحف بعض الجرائد الأخرى .. ومما لاريب فيه أن مصاحفة الفتى لهذه الجرائد على اختلافها كان بداية الطريق الطويل الذي اختاره لنفسه (...) وهو طريق الصحافة» .

المصاحفة هنا اصطلاح خاص لم يكتب له النجاح . والمؤلف يقصد الكتابة في الصحيفة ، أو مراسلتها بالكتابة فيها أو ما أشبه !

٨ ــ ص ٨٥ «ما أن فرغ أمين ... حتى بدأ» : ما إن .. بكسر همزة إن .

٩ ــ ص ٨٧ «وبدهي أن يؤدي الخلاف .. إلى ...» : وبديهي بإثبات الياء .

١٠ ــ ص ١٣١ «كان قد أقام في لندرة ..» لندرة في لغة ذلك الزمان ، هي لندن بعده ويرجع السبب إلى أنهم أخذوا اللفظ عن الفرنسيين ، والفرنسيون يقولون Londres بدلاً من London ــ وربما كان العثمانيون أسبق إلى ذلك .

١١ ــ ص ١٩١ «لجنة الثمانية عشرة» : لجنة الثمانية عشر .

١٢ ــ ص ٢٤٦ سعد زغلول في المفاوضات مع المستر ماكدونالد سنة ١٩٢٤ «عبر عن مطالب البلاد بأصدق مما عبر عنها في سنة ١٩٢٠ مع المفاوض الانجليزي العتيد لورد ملنر» .

المناسب أن تكون العتيد : العنيد ، وإلّا فلا معنى لها في اللغة الفصيحة ، لأن العتيد : المعد الحاضر ، الجاهز ..

١٣ ــ ... حتى أنه ... : حتى إنه .. بكسر همزة إن .

١٤ ــ يستوعب الدكتور عبد اللطيف حمزة موضوعه استيعابا تاما ويتابعه في دقة سيراً في تقدمه ومع الأحداث والظروف ، ويتأمل طويلا في أخلاق صاحبه ومواقفه رابطاً كل ذلك بمقالاته واصلاً به إلى تحديد سمات أسلوبه ، وهذان أصعب الأمور وإن كان أهمها في بحث عنوانه «أدب المقالة الصحفية» ــ ينظر ــ مثلا ــ الفصل الثاني عشر : الأسلوب القويم ص ص ٢٦٩ ــ ٢٨٩ «أسلوب أمين الرافعي في (...) الشعب والأخبار أميل إلى الجد وإلى الصرامة (...) وإذا ذهبت تلتمس أستاذاً لأمين الرافعي في هذا الأسلوب الذي اتبعه لم تجد هذا الأستاذ غير مصطفى كامل ... نلخص الخصائص الكتابية التي تميز أسلوب أمين الرافعي ... إنه أسلوب «دفاعي» في جملته .. ، خطابي في بعض الأحيان .. السخرية الجادة ... استقصائي .. ميله إلى الإسهاب وطول النفس في العبارة ... الصحافة كانت صحافة مقال أكثر منها صحافة أخبار .. ميله إلى الاقتباس ... من أقوال الساسة وأقوال القانونيين

وأقوال الكتاب الصحفيين في أوروبا .. والقرآن الكريم .. ميله إلى الأسلوب العفيف والعبارة النقية .. توخيه الصدق في القول والصراحة في النقد ..» إنه «من تلاميذ المدرسة الصحفية الثالثة في مصر .. فإذا كان علي يوسف يمتاز بأسلوبه السياسي .. وكان مصطفى كامل يمتاز بالأسلوب الحماسي .. وكان أحمد لطفي السيد يمتاز بالأسلوب الثقافي .. فإن أمين الرفاعي يمتاز بالأسلوب الدفاعي المبني على أساس متين من الصراحة والصدق ، والبعد عن المواربة واللف صنيع الرجل المؤمن دائما بعدالة قضيته ، الواثق دائما بالفوز على الخصم ..» .

١٥ ــ ص ٢٩٢ «مات أمين فرثته الصحف جميعا .. ورثاه الشعراء والكُتّاب والزعماء الساسة وجمعت مراثيه في كتاب (...) فوقعت هذه المراثي في أكثر من ستمائة وخمسين صفحة ... منهم أكثر من خمسين شاعراً في مقدمتهم شوقي وحافظ وخليل مطران وأبو شادي ..» .

دكتور عبد اللطيف حمزة ــ أدب المقالة الصحفية في مصر ، الجزء الثامن : عبد القادر حمزة في جريدتي الأهالي والبلاغ ، ط ١ سنة ١٩٦٣م ، دار الفكر العربي ــ ٤١٩ ص .

١ ــ ولد عبد القادر سنة ١٨٨٠م ، توفي سنة ١٩٤١م .

٢ ــ قال ص ٣٩٨ ــ ٤٠٧ وهو يتحدث عن أسلوب عبد القادر حمزة : «إن الأسلوب الأدبي كان يطغى على الصحافة العربية طغياناً كبيراً في دور النشأة (...) إن الفصل التام بين الأسلوب الأدبي والأسلوب الصحفي .. تم في نحو قرن من الزمان ... إن المدرسة التي بدأت حركة الانفصال عن الأسلوب الأدبي هي تلك التي كان على رأسها السيد علي يوسف ، وكان من تلاميذها مصطفى كامل وأحمد لطفي السيد وأمين الرافعي وعبد القادر حمزة ومحمد حسين هيكل .

ونحن نعرف أن عبد القادر كان يشترك في تحرير «الجريدة» مع الأستاذ أحمد لطفي السيد . وأن ذلك حدث قبل عام ١٩٠٧م . ويبدو أنه استمر في الجريدة إلى عام ١٩١٠م أو قبله بقليل ..

أسلوب صاحب السيرة .. أشد إمعاناً في الصبغة الصحفية من جميع من سبقه من الكتاب .. الواقعية .. الهدوء .. الاتزان .. الجد ..»

لا يمكن أن يكون اشتراك عبد القادر حمزة في تحرير «الجريدة» قبل عام ١٩٠٧م ، لأن العدد الأول من الجريدة ــ كما يذكر الأستاذ المؤلف نفسه ــ صدر في ٩ مارس ١٩٠٧م .

٣ ــ قدم لهذا الجزء محمد محمود الخضري صاحب دار الفكر العربي فكان مما قال : «.. أخرج المؤلف للمكتبة العربية إلى الآن ثمانية أجزاء من كتابه : أدب المقالة الصحفية في مصر (...) والأمل كبير في أن يمضي المؤلف في هذه السلسلة النافعة حتى ينتهي من العصر الذي سماه «بعصر المقال الصحفي» ليبدأ بعده عصراً آخر من عصور الصحافة هو «عصر الخبر الصحفي» ..»

الذي حدث أن الكتاب وقف عند هذا الجزء (الثامن) مع أن المؤلف أصدر كتباً أخرى وعاش بعده نحواً من ثمانية أعوام ، فقد توفي سنة ١٩٧١م ، وكنت أحسب أن الجزء التاسع سيعقد على محمد حسين هيكل وجريدة السياسة .. هي ثمانية أجزاء ، ولو قلت إن الدكتور عبد اللطيف حمزة ألف بها ثمانية كتب قيمة لما أبعدت .

ترى هل ينبري باحث جديد يجد في نفسه القوة على مواصلة المسيرة ؟! وهل يقف باحثون من أقطار عربية ليؤلفوا كتبا مناظرة ــ في حدود الممكن والمكائن ــ؟ إن الحاجة إلى مثل كتاب الدكتور عبد اللطيف حمزة ماسة ، ولابد منها .

التوراة واليهود في فكر ابن حزم لإبراهيم الحردلو

إبراهيم إسحق إبراهيم

الحردلو ، إبراهيم/ التوراة واليهود في فكر ابن حزم .ـ الخرطوم : دار نشر جامعة الخرطوم ، ١٩٨٤م ، ١٦٤ ص .

أ ـ ترابط الأبحاث في موضوع متشعب :

سأحاول في هذا العرض تتبع الإضافات التي يجلبها إلى حقل دراسات ابن حزم في اللغة العربية[١] نشر هذا الجزء المعدَّل من رسالة إبراهيم أحمد الحردلو التي أُعِدَّتْ لنيل درجة الدكتوراه من كمبردج عام ١٩٦٨م . ولما كنت لم أنظر في رسالة الحردلو قط ، فإن زعمي بأن هذا الكتاب يمثل جزءاً معدلاً منها يظل مجرد ظن . ثم يلقي عليَّ هذا الوضع عبئاً ثانياً ينتج عن فشلي في تقدير كمية التعديلات التي أجراها الحردلو على بحثه هذا ـ إذا ما افترضنا صحة ظني ـ ما دمت لم أتمكن من النظر في الرسالة . أما مؤشراتي للترابط بين بحثي الحردلو فتطلع من إغفال وإفصاح أتاهما الكاتب في مؤلفه الحالي : إذ نراه يغفل عن إيراد العنوان الكامل للرسالة ، والذي وجدته في هامش كتبته سهير فضل أبو وافية ، وهو بالإنجليزية ، فترجمته هكذا : (موقف ابن حزم من التوراة العبرانية ونقدها استناداً إلى نسخة منقحة من الجزء الخاص بالأسفار الخمسة في كتابه الفِصل)[٢] .

وكان إفصاح الحردلو عن العلاقة بين البحثين في مقدمته للمؤلف الحالي هو :

« وقد حاولت في هذا الكتاب أن أصحح بعض الأخطاء التي وقع فيها بعض المستشرقين الذين كتبوا عن ابن حزم . فقد أوقع أكثرهم في هذا الوهم فيما أصدروا من أحكام اعتمادهم على الكتاب المنشور (الفِصل في الملل والنحل) وهي طبعة مليئة بالأخطاء وليست محققة أصلاً . وعرضت في هذا الكتاب لمفهوم التحريف وأصوله ، وعلى هذا بسطت نقد ابن حزم للتوراة ومنهجه معولاً في كثير من الأحيان على كتاب (الفِصل في الملل والنحل) بل على الفصل الذي حققت من مخطوطات عديدة ، ثم على رسالة الدكتوراه التي قُدِّمَتْ لجامعة كمبردج منذ أعوام »[٣] .

هذا ويعجبني في هذه الجذاذة من مقدمة الحردلو إشارته إلى مجهوده في تصحيح أخطاء المستشرقين حول كتاب (الفِصل) كجزء من كتابه ـ ولم يقل من بحثه ـ فهذه الملاحظة قمينة بشد أزر مزاعمنا عن الترابط بين الأبحاث التي أكمل بها الحردلو عمله السابق في الرسالة . فالفصل العاشر من هذا المؤلف وعنوانه « أخطاء المستشرقين حول كتاب الفِصل في الملل والنحل » يمثل بحثاً منفرداً أُلحِقَ بالكتاب تكميلاً لموضوع متشعب هو موقف ابن حزم من اليهود وتوراتهم . ويدل على ذلك أن الفصل العاشر يبدأ هكذا : « إن هذا البحث يرمي إلى تصحيح .. إلخ » وهو طابع مميز للمقال ذي الهدف المحدود كالصنف الذي يعد للمؤتمرات أو الدوريات المتخصصة . بل إن الحردلو يجعل نفس العنوان واحد من أبحاثه التي تلي الكتب في قائمة سجله الشخصي على ظهر هذ المؤلف .

وقد يفيدنا هذا التقصي في الترابط والتشعب حينما ننظر في إسهامات أكاديمي نشط مثل إبراهيم الحردلو ، كما نأمل في أن يشيع مثل هذا المقترب في متابعاتنا لإسهامات أكاديميين ودارسين أُخر . فالحردلو يعد من أبرز المتخصصين في اللغة العبرية بجامعات الشرق الأوسط ، والذين من جهلي بهم أذكر منهم قلة مثل : عبد المجيد عابدين ، حسن ظاظا وعبد الوهاب المسيري ، وإذا كانت اهتمامات الحردلو بالأدب السوداني وقضايا اللغة العربية وثقافتها في السودان قد منحتنا أربعاً من كتبه وعدة أبحاث موجزة ، فقد جاء نشر مؤلَّفه الحالي اطراداً على دراستين في حقل اشتغاله بالعبرية وقضايا اليهود كان قد نشرهما عام ١٩٨٠م . وبذلك يتولَّد أمل مؤسس له في احتفاظ هذا الباحث بقدرته على الموازنة بين شعبتي دراساته ، وهو أمل يضع على الحردلو عبئاً يحاول التملّص منه . يختم الحردلو مقدمته لمؤلَّفه هذا بالإشارة مرة ثانية إلى عدم صلاحية (الفِصل في الملل والأهواء والنحل) ـ بوضعه الحالي غير المحقق ـ لتأسيس دراسة منصفة عن آراء ابن حزم حول انحرافات العقائد والشرائع الدينية . ويقول عندئذ :

«ولعل أول عمل أدعو له الباحثين المشتغلين بالأندلس ، وابن حزم أحد أركانها ، أن يتوفر نفر منهم أو أحدهم على تحقيق كتاب (الفِصل في الملل والنحل) تحقيقاً علمياً »[٤] . لقد أسميت هذا « تملصاً » من أكاديمي متحفز وبارع مثل الحردلو يقبع وسط

ظروف ممتازة ومناسبة لذلك العمل كالتي لديه . **أولاً** : هو الذي بدأ ذلك التحقيق فعلاً ، إذ نقّح لرسالته قسماً كاملاً من (الفِصل) . **ثانياً** : تأهُّله كخبير في العبرية والعربية ودرايته التامة بأدبيات الموضوع . **ثالثاً** : احتكاكه بخيرة العاملين في حقل الدراسات الأندلسية خاصة عن ابن حزم ، مثل إحسان عباس الذي أعد رسائل ابن حزم من موقعه بجامعة الخرطوم . **رابعاً** : يوجد الحردلو حالياً في أم القرى بمكة المكرمة ، ولديه فرصة للاتصال بشيخ الظاهريين أبي عبد الرحمن بن عقيل الذي رأيت له دوراً كبيراً في تسهيل وصول البحث الخاص بمناظرات أبي الوليد الباجي وابن حزم للقرّاء العرب منقولاً من الفرنسية[٥] . وأحسب أن إعداد تحقيق علمي لكتاب (كالفِصل) له أهمية تتجاوز تلك الترجمة ، ولعلها تثير رغبات كامنة ومقدرة لدى مؤسسات علمية شامخة مثل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، جامعة الملك عبد العزيز بجدة وجامعة الملك سعود بالرياض . وعسى أن يبزغ فجر الغد عن تحقيق لهذه المأهولات طرا .

ب ــ هل كان الصراع الديني لأسباب سياسية ؟

هذا سؤال قد يتفاقم حتى يخرج عن حدود دراسات ابن حزم يمس كل سجل التاريخ الفكري للخلافات العقائدية بين المسلمين وأهل الكتاب . وسيكون استقصاء ذلك البعد والتوغل فيه خارجاً عن إطار هذه المعالجة لإسهام إبراهيم الحردلو في تنويرنا حول موقف ابن حزم من اليهود . ومن جانب آخر هنالك فصول عشرة في كتاب الحردلو ، وقد رأيت أن الفصلين الثالث والرابع يتقدمان في عرض هذا على ما سواهما ، لأنهما يتعرضان لجذور التعارك الذي جرى بين ابن حزم وبين اليهود وكتبهم المقدسة . كذلك بدا لي أن عناصر السؤال الذي اتخذته عنواناً لهذه الفاصلة تقبع في المقدمة والفصلين الثالث والرابع . وهذه المؤشرات ــ على التتابع ــ تأتي في ملاحظات الحردلو : « فما كان نقد ابن حزم للتوراة جزءاً من ظاهرة الخلاف بين الأديان ، بل هو انعكاس وصورة لذلك الاضطراب الذي تميَّز به عصره » (ص ٦) . هذا في المقدمة . ويجيء في الفصل الثالث المعنون « مؤثرات في منهج ابن حزم » قوله : « وما من شك أن نقده ــ أي ابن حزم ــ للتوراة كان متأثراً فيه بما رأى من نفوذ اليهود مع حكام البربر . وجعل هذا الشعور كتابات ابن حزم رسائل سياسية معبر عنها بأسلوب الفقهاء . ولو أمعنا النظر في تاريخ النزاع بين اليهود والمسلمين ، نجد أن الصراع كان دائماً سياسياً . فلم يقبل من اليهود الإسلام سوى أفراد قليلين ، ولم يكن للمسلمين كبير رجاء في دخول اليهود الإسلام . فكانت مناقضة المسلمين لليهود صورة من رفض للنفوذ السياسي الذي حظى به هؤلاء اليهود على اختلافهم ــ وكان رفض اليهود للمسلمين صورة من نفورهم من حكم الإسلام . ولكن الصراع بين اليهود والمسيحيين كان أبداً صراعاً دينياً ، لأن أصل المسيحية من اليهودية ، فالمسيحية تطور لحق باليهودية ــ ولعل هذا هو الحال بين هذه الديانات ومعتنقيها إلى وقتنا الحاضر ــ السياسة بين المسلمين واليهود ، والدين بين اليهود والمسيحيين » (ص ٥١ . وكان عنوان الفصل الرابع هو : « أثر المذهب الظاهري في منهج ابن حزم » . هنا تحدث الحردلو عن مكانة ابن حزم في سلم الظاهريين ووضعه الصعب أمام هيمنة المالكية في الأندلس والمغرب . ويُلَمِّحُ المؤلف هنا إلى أن الخلاف المذهبي الإسلامي كان عبئاً مضافاً إلى العناء الذي كان يجده ابن حزم من التنافس مع اليهود . فإذا ما أخذنا انعكاسات كل هذه المنافسات على الجو السياسي الزاخر بالتشاحن بين الأمويين ورجالات الطوائف والبربر وعملاء القوط ، أدى ذلك بأجمعه إلى انطباع بارز بأن الذين يصير أداة مهمة للهيمنة السياسية بالأندلس والمغرب خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين . ويقوم التساؤل عندئذ حول مدى انصياع ابن حزم لرغباته الحقة ، أهو يصارع اليهود والنصارى والمالكية والفرقيين من أهل الأهواء ليقهرهم سياسياً أم لينصر الدين الحق الذي لمّا صار أحد العلماء البارزين فيه تقلد مسئولية الدفاع عنه ؟ وهنا يبدو الحردلو كالذي يخفف من نبرته السالفة في الاقتباسين الماضيين .. إذ يقول: «وكان ابن حزم صاحب مذهب ينافح عنه ويسعى بكل وسعه لنشره بين الناس . فحين يعارض المذاهب الإسلامية أو ينقد اليهودية أو المسيحية ، إنما يفعل ذلك بروح المبشر الذي يقاتل في سبيل دعوته » (ص ٥٧) . ولانستطيع التوصل إلى إجابة شافية عن موقف المؤلف من التساؤل السابق بالنظر في ثنايا كتابه ، هل لدى الذين كتبوا عن هذا الجانب من فكر ابن حزم جواب صريح ؟ أما عبد الكريم خليفة فيجعل للسياسة الدور الغالب في تأسيس الجدل الديني يومئذ إذ يقول : « عاش ابن حزم في فترة سادها الاضطراب الفكري كماسادها الاضطراب السياسي . كان المجتمع الأندلسي يزخر بالتناقضات ، فالاختلاط الذي تم بين المسلمين والنصارى ، وما يقابله في الشمال من احتكاك عدائي قد اشتد في هذه الفترة ، وكان سبباً في جدل العقائد الذي تسجل كتابات ابن حزم طائفة منه . وكان تسلل اليهود إلى احتلال أدوار رئيسية في مجتمع ملوك الطوائف سبباً أيضاً في قيام جدل ومناظرات محتدمة حول الديانة اليهودية على نحو ما نرى في رسالة ابن حزم في « الرد على ابن النغريلة اليهودي »[٦] . ولعل أقرب ما نجد إلى هذا المفهوم لدى عبد الحليم

عويس هو قوله عن ابن حزم : « وقد ساعده في استيعاب القضايا السياسية أنه رائد في دراسة الملل والنحل ، والصلة وثيقة بين الملل والنحل — والفكر السياسي »[٧] . ويبدو لي أن ثقة سهير فضل أبو وافية في الدافع الديني لاصطراع ابن حزم مع أهل الملل والنحل والأهواء كانت أوفر . فهي تورد نقلاً عن رسالتي « التلخيص لوجوه التلخيص » و « الرد على ابن النغريلة اليهودي » فواصل تدل على عنفوان الغيرة الدينية لدى ابن حزم ، ورأيه فيما يرتبط بالدين من ذل سياسي حينما يعلو شأن أهل الأهواء والنحل . ومرة أخرى نراها تركز على هذا الغيرة الدينية عند ابن حزم بإيرادها نتفاً من القصيدة التي نسبها السبكي إلى ابن حزم كرد على دعوة راهب مسيحي كتب إلى المقتدر بالله يُرَغِّبه في المسيحية . بل وألمحت هذه الباحثة إلى أن ابن حزم ربما كان المجدد الذي يشير إليه الحديث النبوي : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها »[٨] .

استعرض الحردلو في الفصل الثالث حياة ابن حزم كي يلقي أضواء نافذة على مكونات فكره . وقد اختلف المؤلف مع معظم المتطرقين إلى أصل ابن حزم حينما أخذ بفكرة انتساب ابن حزم إلى سلالة نصرانية متجذرة في الأندلس . وتعليل اختيار الحردلو لهذه الرواية نابع من استناده فيها إلى نيكلسون في كتابه « التاريخ الأدبي للعرب »[٩] . ولم تقبل سهير فضل أبو وافية من الحردلو هذا التفرد بترجيح الأصل النصراني لابن حزم ، فناقشته بروية وتتبعت مختلف الروايات في المصادر الأندلسية ، ثم خلصت إلى أن ليس للحردلو ما يبرر موقفه هذا[١٠] . إلى جانب ذلك ركز المؤلف على الحبوة السياسية التي لقيها اليهود تحت رعاية الحكام البربر في قرطبة وما نتج عن ذلك من حنق المسلمين عامة والعلماء من فئة ابن حزم على الحكام ووزرائهم من آل النغريلة والذين تقوى بهم من ملتهم . ومرة أخرى خالف الحردلو إحسان عباس ، محمد طه الحاجري ، عبد الكريم خليفة ، عبد الحليم عويس وسهير أبو وافية حول النطق الحقيقي لاسم إسماعيل (اشماويل/صمويل) بن النغريلة (النغرالي) أهو بالراء أم بالدال . فبينما يجتمع الباحثون المذكورون على أنه بحرف الراء ، يقول الحردلو في أحد هوامشه : « وقع خطأ في اسم ابن النغدِلة وحققه الثقة إشتاينشنايدر ، فهو ابن النغدلة بالدال وليس ابن النغرِلة بالراء كما ورد في بعض المصادر العربية والغربية » (ص ١٦٣) . وهذا الموقف من الحردلو يرتكز إلى الوزن الذي يضعه على أبحاث إشتاينشنايدر . فعن هذا المستشرق يكتب الحردلو في الفصل الثامن من كتابه وعنوانه « تأصيل منهج ابن حزم وفكره » ، يكتب : « وليس ميسوراً أن نعرض لهذا الصراع الذي كان لا يكاد ينقطع بين الأديان والمذاهب في هذه الفترة . ولعل ما كتب الأستاذ إشتاينشنايدر في هذا الصدد عام ١٨٧٧م لا يزال بغير نظير ولا بديل . وظل ما كتب هذا الأستاذ عمدة عول عليه كثير ممن كتبوا في هذا الموضوع من بعده ، فقد تناول بعض الباحثين ما كتب عن بعض الأديان ، ولكن لا نجد فيهم من عرض لهذا الموضوع بطريقة شاملة كما فعل الأستاذ إشتاينشنايدر . ومن هؤلاء أساتذة كبار من أضراب جولدسيهر وآسين بلاسيوس وغيرهما » (ص ١٢٥ — ١٢٦) .

ولم يختلف ما قاله الحردلو عن تراكم سخط المسلمين على يهود عصر ابن حزم حتى نكبوا عام ١٠٦٦م بثورة اندلعت في غرناطة وقتل فيها نحو أربعة آلاف يهودي ، لم يختلف ما قاله هنا عما في كتابات غيره . وبينما يذكر كل من الحردلو وسهير أبو وافية بشيء من التفصيل تجمع عواصف الغضب ضد اليهود بالحواضر الأندلسية حوالي منتصف القرن الخامس الهجري والدور الذي لعبه ابن حزم وأبو إسحق الألبيري في تأجيج غضب المسلمين ، عربهم وبربرهم ، رأيتني أقرأ أوفى عرض لدور الفقية الشاعر الألبيري تقع عليه يديَّ في مقالين للطاهر أحمد مكي ومحمد حسن قجة[١١] . ويخطر بالبال مدى حاجة القارىء العربي إلى تجميع دقيق لصورة هذه الواقعة الفريدة من كل جوانبها وملابساتها .

أما الفصل الرابع من كتاب الحردلو فيتوصل إلى حقيقة ذات اعتبار هي أن رسالة « الرد على ابن النغرِيلة اليهودي » تمثل ملخصاً للفصل الذي نقد فيه ابن حزم التوراة وكتب اليهود الأخرى بكتاب (الفِصل) . وإثبات ذلك هو تطرق ابن حزم إلى ذكر (الفِصل) في رسالة « الرد علي ابن النغريلة » . وتكمل بعض المعلومات في هذا الفصل ما نجد في الفصول الثاني والخامس والسادس عن وعي ابن حزم بالتحريف في كتب اليهود . فمن ذلك الإشارة إلى اطلاع ابن حزم على كتب أخرى لليهود غير التوراة ، خاصة التلمود ، واستعمال هذه الكتب جميعها في نقده للأسفار الخمسة . وهنالك الكشف عن أن ابن حزم قد كوَّن نظرته عن كتب اليهود المقدسة ، وبدا حواره معهم قبل أن يَطَّلِعَ على كتبهم الرئيسية . ثم يضاف إلى ذلكم دهشة المعاصرين لابن حزم من انكبابه على دراسة كتب اليهود وإدامة النظر فيها حتى لامه بعض أصحابه (ص ٦ و ٥٧) . أما المذهب الظاهري فقد أملى على ابن حزم التقيد بالنص ومحاجاته بالتضارب الذي يحتوي عليه ، أو بتعارضه مع القرآن الكريم والسنة النبوية ومقتضيات العقل . ورغم أن الظاهريين لم يشغلوا أنفسهم بعلم الكلام ، إلا أن طريقة ابن حزم المذكورة أثبتت فعاليتها ووضعته في مقدمة المؤسسين لعلم مقارنة الأديان[١٢] .

ج ــ تحريف الكتب اليهودية في التراث الإسلامي :

اهتم الحردلو في الفصل الأول من كتابه بأصول فكرة التحريف اليهودي لنصوصهم المقدسة من وجهة نظر القرآن الكريم وأبحاث العلماء المسلمين السابقين لابن حزم ، أبحاثهم في الحديث النبوي الصحيح ، تأويل النصوص ، والاستدلال .

ويرى الحردلو أن كل العلماء المسلمين الدارسين لموضوع التحريف قبل أو بعد ابن حزم إنما كانوا يتأولون الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الخاصة بتحريفات الكتابيين . ويذهب الكاتب أيضاً في استعراض هؤلاء المفكرين الأوائل فيذكر ما يقال عن وجود نصوص من الكتب اليهودية في اللغة العربية منذ العهد الراشدي . ويجيء في القرن الثالث الهجري علي بن ربان الطبري ، وهو مسيحي دخل في الإسلام ، فيكتب مصدراً مهماً في موضوع التحريف الكتابي هو « الدين والدولة » .

وبينما يتردد الحردلو في القول بتأثر ابن حزم بعلي بن ربان الطبري ، فإنه يميل إلى الموافقة على الرأي القائل بتأثر القاضي عبد الجبار المعتزلي فيما كتب في (المغني) عن تحريفات اليهود بكتابات علي الطبري (ص ١٦) . وقد جلب محمد بن جرير الطبري لدراسات الملل السابقة للإسلام تحصيلاً غزيراً وفهماً نيراً لتوجيهات النصوص الإسلامية بخصوص هاته الملل . وبعد مراجعة تفهم هؤلاء العلماء للإشارات الخاصة بالتحريف الكتابي اليهودي في النصوص الإسلامية وما عداها ، يقف الحردلو لِيُجِل عمل ابن جرير الطبري بقوله : « والحق إن تفسير الطبري لهذه الآيات التي تشير إلى أهل الكتاب في هذا الموضوع يمكن أن تكون رسالة في المناقضة بين اليهود والمسلمين لو أفردت في كتاب منفصل ... وما من شك أن ابن حزم قد قرأ تفسير الطبري ووقف طويلاً عند إشارات الطبري وتفسيره للآيات المتعلقة بتحريف الكتاب وتبديله » (ص ١٩) .

ولعل انطباع القارىء عن هذا الفصل يكون سلبياً فقط في نقطة واحدة ، هي أن استعانة الحردلو بآراء العلماء السابقين لابن حزم والذين كان في استطاعته الاستفادة من آثارهم ظل محدوداً . فالمؤلف يذكر الماوردي في الفصل الأول عند ملاحظة سريعة . وهنالك في الفصل السادس ذكر لرأيين من أعمال البيروني لا يتناسب حجمهما مع مكانة الرجلين في علم الأديان المقارن . وتصدق نفس الملاحظة على إيراد المؤلف لمعلومةعن ابن قتيبة في الفصل الثاني . أما القاضي الباقلاني الذي تكلم في كتاب (التمهيد) عن اليهود والنصارى والمجوس ، فقد أغفله الكاتب تماماً . ولما كان الحردلو قد ذكر آراء بعض المتأخرين بعد ابن حزم ، مثل ابن خلدون ، فقد أوحىٰ للقارىء بارتباط موضوعي لم يستوفه حقه ، وهو إفراد حيِّز في بحثه لأثر ابن حزم على فكر المتأخرين عنه فيما يخص ذات الموضوع . وللقراء في هذه المطامح عدة سوابق ، منها أن الكثير ممن كتب حديثاً عن مفهوم المسلمين حول تحريفات أهل الكتاب كان يميل نحو استعراض سريع لمعظم التراث الإسلامي عن الموضوع وعلاقات التطور الفكري في هذا التراث ، ذلك لكي يضع إطاراً صالحاً للمفكر الذي يتحدث عنه[١٣] . ومنها أيضاً أن الحردلو قد جعل فصله السابع خاصاً بردود اليهود في شتى عصورهم على اتهامات ابن حزم ، كما جعل فصله العاشر لأخطاء المستشرقين حول كتاب (الفِصل) بكل أجزائه ، حتى تلك الخارجة عن نطاق اليهود وتوراتهم مثل موضوع الفرق الإسلامية . فهل كان شاذاً أن يتريث الحردلو في موضوع أدب التحريف فيغطي كل ما ندري عن الإسهامات الإسلامية السابقة واللاحقة لابن حزم فيما يُعنى باليهود وكتبهم ؟

وأعود إلى الفصل الثاني فأنظر إليه ضمن رؤية شاملة يضمه والفصلين الخامس والسادس اتفاق الكل على تتبع العلات التي استخرجها ابن حزم من كتب اليهود المقدسة . فأول ذلك هو توصل الحردلو إلى عدة ثوابت مثل: « فلا نعرف كاتباً عربياً مسلماً شغل نفسه باليهود وكتبهم واشتد معهم في الجدل والخصام مثل مافعل ابن حزم » (ص ٦) . وقوله : « وكان المسلمون منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب يفرقون بين التوراة التي أنزلها الله على رسوله موسىٰ والتوراة المُحرَّفة المبدلة في أيدي اليهود . ولكنك لا تجد ذكراً لمن بدَّل هذه التوراة أو متى حدث هذا التحريف . ولعل أول من حدد تهمة التحريف ووجهها لفرد بعينه هو ابن حزم الأندلسي في كتابه « الفِصل في الملل والنحل » حيث اتهم عزرا الوراق بأنه أول من حرّف التوراة وبدّلها » (ص ١٤) . ويواصل المؤلف : « فعلى أي سند يعتمد ابن حزم في تلك التهمة التي وجهها إلى عزرا الوراق ؟ إنه يعتمد على كتب اليهود نفسها ، وأولها وعمدتها التوراة . فهو يرى أن التوراة كتاب تاريخ كُتِبَ بعد موسىٰ بزمن طويل . فإن بعض علماء اليهود اعترفوا بأن عزرا وجد بعض الأخطاء في التوراة فأصلحها . ثم ذكر ابن حزم أن عزرا أملىٰ التوراة من الذاكرة ليذكِّر بما يمكن أن يقع من أخطاء في نص يُكتب من الذاكرة ثم من شخص واحد . وأن هذه التوراة التي كتبها عزرا قد كتبها بعد أكثر من سبعين سنة من تحطيم المعبد وخرابه . وأن كتب اليهود تخبر بأن عزرا لم يكتب إلا بعد أربعين عاماً من عودة اليهود من السبي . وقد ذكر ابن حزم هذه الحقيقة ليبين أن تلك المدة تجعل الكتاب الذي بأيدي اليهود عرضة للتلف والضياع » (ص ٢٨) .

وعلى هذا الأساس المتين يشيد ابن حزم أبراج الهجوم الذي يشنه على التوراة المحَرَّفة ومُحرِّفة اليهود . ويجد الحردلو أن ابن حزم اطلع على كتب العهد القديم الأربعة والعشرين ، وربما نظر في التلمود الذي كانت منه ترجمة عربية في مكتبة الخليفة الأموي في قرطبة ، إذ ترجمه يوسف بن أبي طور بطلب من الخليفة الحكم المستنصر .

ويلاحظ ابن حزم باهتمام إجلال اليهود لعزرا الوراق ، حتى قالوا إنه كان جديراً بأن تنزل عليه التوراة لإسرائيل ، وقالوا إن التوراة ضاعت فأعادها عزرا . ولما كانت هذه الملاحظات مضمنة في التلمود البابلي الذي رآه الحردلو ، فما أولى بابن حزم أن يجدها . وليس ذلك فحسب ، فاليهود أيضاً يقولون بأن عزرا من الربانيين ولم يكن رسولاً . وبذلك كما يقول المؤلف : « ينفي ابن حزم عن هذا الذي كتبه عزرا ما يدعيه خصومه من أن التوراة موحاة من الله . فإن الوحي لا يكون إلا لنبي أو رسول ، ولم يكن عزرا نبياً ولا رسولاً باعتراف اليهود أنفسهم » (ص ٢٩) .

يركز ابن حزم ، كما يوضح الكاتب ، هجومه على التحريف الواقع في التوراة بسبب دوره المتقدم في العقائد والشرائع اليهودية ، ويؤكد أن التحريف الذي وقع فيه أكثر مما وقع في كتب العهد القديم الأخرى في قسمي الأنبياء والمكتوبات .

ويتبع ابن حزم كما يرى الحردلو طريقة في الجدل تلزمه بأخذ الأدلة والبراهين من مصادر خصمه التي لايشك فيها الخصم ولا ينكرها . وبذلك يضرب ابن حزم كتب اليهود بعضها ببعض ويجعلها تُكذِّب بعضها بعضاً . وكما ينكر ابن حزم نسبة التوراة الموجودة إلى موسىٰ ، ينكر نسبة كتب العهد القديم الأخرى إلى مؤلفيها المزعومين ، مثل سليمان ويشوع بن نون وداؤد وأرميا وحزقيال ، كل ذلك من خلال دراسة هذه النصوص وإثبات تناقضها في المعلومات أو مجافاتها للمعقول . ورغم صعوبة حصر ما يحدد الحردلو من الاتهامات التي يوجهها ابن حزم إلى كتب اليهود المقدسة ، إلا أن أبرز مآخذه على كتبهم كانت في احتوائها على : رمي الرب سبحانه وتعالىٰ بما لا يليق به من تشبيه وخلف للوعد والبداء ، رمي الرسل والأنبياء بما لا يليق بهم من انعدام العصمة والتضارب واللامعقولية الواردة في المعلومات التاريخية المضمنة في تلك الصحائف .

يوزِّع المؤلف عرضه لهذه الاتهامات بين الفصول الثلاثة ـــ الثاني والخامس والسادس ـــ ففي الفصل الثاني نرى ارتكاز ابن حزم على اقتباس من مزامير داؤد (الزبور) حيث يجعل اليهود الرب يتحدث عنهم كأبنائه . ثم يخاطب اليهود ربهم بعنف فيدعونه للتنبه واليقظة والتوجه إليهم . وهنالك أيضاً يشير اليهود إلى ربهم : « فاستيقظ الرب كنائم كجبار يصرخ من الخمر فضرب أعداءه إلى الوراء » ـــ تعالىٰ ربنا عن ذلك . وفي هذا الفصل يتتبع ابن حزم في الكتب المنسوبة إلى سليمان عليه السلام (الأمثال ، نشيد الإنشاد ، والجامعة) ، يتتبع ما فيها من خلف للوعد مزعوم على الرب . ويقول الحردلو إن ابن حزم هو أول مفكر إسلامي حاول أن يعيّن بعض ما ظنه صحيحاً من التوراة ، وهي قطعة في الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر التثنية . أما سبب احتفاظ هذه القطعة بصحتها وسط المسخ الهائل في كتب العهد القديم فهو ، من وجهة نظر ابن حزم ، لوجود أمر من موسىٰ عليه السلام بأن تُكْتَب وتُعلَّم وتُحفَّظ لجميع بني اسرائيل ، الشيء الذي جعل روايتها متواترة وأبعدها عن هيمنة الأحبار والربانيين في تحريفهم وتبديلهم الدائم للنصوص التي في عهدتهم . ولما كان طبيعياً أن يعتقد ابن حزم بأن ما يوافق الإسلام مما يوجد في التوراة هو غير مبدل ، فقد أشار إلى رجم الزاني في الإصحاح الثاني والعشرين من سفر التثنية كشريعة لم يتم العبث بها . ويذكّرنا هذا بموقف في السيرة النبوية وأقضية رسول الله ﷺ[١٤] .

في الفصل الخامس ينبه الكاتب على ما رأى ابن حزم في سفر التكوين ، حيث أشار اليهود إلى ربهم بصيغة الجمع ، بل وجعلوا آدم إلها ورموا الرب بالكذب ـــ والعياذ بالله . وفي هذا السفر جعلت اليهود لله أولاداً يتخذون من بنات الناس نساءً (ص ٦٤) . ويغالط ابن حزم اليهود في الأرض التي وُعِدوا بها كما يزعمون في سفر التكوين : « في ذلك اليوم قطع الرب مع إبراهيم ميثاقاً قائلاً لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير الفرات » ولابن حزم حجة تستحق أن يكمل بها من كتبوا حديثاً عن مزاعم الصهيونية في الشرق الأوسط أمثال جارودي ، صابر طعيمة ، وظفر الإسلام خان حججهم[١٥] . فمن رأي ابن حزم أن بني اسرائيل لم يملكوا قط قدراً طفيفاً من هذه الأبعاد ، فكأنهم يرمون الرب تعالىٰ بخلف الوعد . وإن كان هذا الوعد يتضمن بني إسماعيل فهو أيضاً خطأ ، إذ تملّك هؤلاء أضعاف الأبعاد التي يحددها هذا الوعد المزعوم .

ثم يثبت ابن حزم أن مايرد في التوراة عن رؤية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام لا يصح في عقيدة التوحيد . فالتوراة تشير إلى الثلاثة الذين جاءوا إلى إبراهيم عليه السلام بأنهم الله ، وتخاطبهم بخطاب الواحد . وأما ما تقول التوراة عن الإنسان الذي صارع يعقوب الليل كله حتى طلع الفجر ، فمؤداه في رأي ابن حزم لا يتجاوز اعتباره الرب شخصياً ، وهي فرية لا تضاهى . وتترا بيانات هذا العالِم الأندلسي عن أغلاط التوراة التي في يد اليهود . فهم يرمون

لوطاً عليه السلام بشرب الخمر وارتكاب الفاحشة مع بنتيه ، ويقولون إن إبراهيم عليه السلام تزوج أخته من أبيه وهي سارة ، وتقول توراتهم بأن يعقوب عليه السلام خدع أباه إسحق ليسرق بركته التي كان يريد أن ينفحها لأخيه عيساو . وفي سفر التكوين أيضاً يزعم اليهود بأن يهودا بن يعقوب قد زنىٰ بتمار أرملة ابنه ، وأن رؤبان بن يعقوب ضاجع إحدى زوجات أبيه ، ثم نسب هؤلاء إلى يشوع بن نون أنه تزوج رحاب الزانية الموقفة نفسها للزنىٰ لكل طارىء على مدينة حيفا ، كما يزعمون أن داؤد عليه السلام زنىٰ بامرأة رجل من جنده وأولدها زنيماً توفي ، ثم تزوجها فولدت سليمان بن داؤد . فأي أمة تروي في رسلها وأنبيائها مثل هذه الافتراءات وتكون على هدى . وعندما انسابت هذه الخطل من اليهود إلى بعض المسلمين حتى سميت بالإسرائيليات ، أعلن حماة الإسلام من أضراب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أنه سيضرب من يقص خبر داؤد عليه السلام بصيغة الإسرائيليات ثمانين سوطاً ، هو حد الفرية على الأنبياء .

ويناقش الفصل الخامس من الكتاب واحداً من أروع تحديات ابن حزم لكتب اليهود حينما واجههم بالتناقض في حساباتهم العددية والتاريخية والجغرافية حتى قال عنهم : « ما رأيت أقل حياءً من الذي كتب لهم تلك الكتب المرذولة وسخم بها وجوههم ونعوذ بالله من الضلال » (ص ٩٦) . فهو يبدأ بإبانة الأخطاء الرقمية في أخبار نوح وبنيه ، ويتلوها برد ما تزعم اليهود عن الوعد الذي قطعه الرب بلعن كنعان وجعله عبداً لإخوته أبناء أبيه . فعند ابن حزم أن التاريخ يثبت أن أبناء كنعان كانوا ملوكاً فوق أبناء إخوة كنعان . ثم يكشف أبو محمد أن المفاهيم اليهودية الخاصة بجنة عدن وأنهارها تشتط في بعدها عن الصواب . وإلى جانب ذلك هنالك الغلو في عدد الإسرائيليين الخارجين من مصر ، إذ جُعلوا فوق الستمائة ألف وما هم إلا إنسان واحد وخمسون رجلاً مكثوا مائتي عام وسبعة عشر عاماً هي الحقبة بين زعامتي يوسف وموسىٰ عليهما السلام (ص ٩٤) .

ويتبع هذه المبالغات في الأعداد البشرية اليهودية التوراتية تهويلات أخرى في عدد مدنهم وأحجام عمرانهم . ولما كان القرآن الكريم قد وصف بني إسرائيل على لسان فرعون فقال : ﴿ **إن هؤلاء لشرذمة قليلون** ﴾[١٦] فقد « طفق ابن حزم بعزمه الذي لا يعرف الكلل ، طفق يعد بني إسرائيل في كل بيت وسبط مما ذُكر في العهد القديم من سفر العدد » (ص ٩٤) . وهكذا أظهر كذبهم .

يلاحظ الحردلو أن ابن حزم لا يذكر المصادر التاريخية التي يعتمد عليها في نقده لكتب اليهود ، ومع ذلك فقد رصد الكاتب في الفصل قبل الأخير ما توصل إليها من هذه المصادر ، فأنار لقرائه التزاوج الفريد الذي أحدثه ابن حزم بين منهجه ومصادره حتى خلص إلى التأريخ لمراحل التحريف التوراتي .

هكذا يتوصل ابن حزم إلى أن التوراة كانت محفوظة في الهيكل عند الهارونيين . لكن اليهود تهالكوا في عبادة الأوثان لفترات طويلة بعد موت موسىٰ ، وكرروا ذلك سبع مرات قبل حكم الملك شاوول . وتبلغ مدة تخليهم عن عقيدة التوحيد مائة وأربعة عشر عاماً . وتساؤل ابن حزم ، كما يرى الحردلو ، هو : « كيف يمكن لهذا الكتاب أن يُحفَظ بالرغم من الكفر به كل هذه المدة ؟ » (ص ٩٨) . ثم إن هنالك الملوك الذين جاءوا بعد سليمان عليه السلام وبنوا للأصنام بيوتاً ، وأدىٰ إهمال عقيدة التوحيد خلال هذه الحقب ، وفيها خمسة عشر ملكاً وثنياً ، إلى نهب الهيكل مرات ، وإحراق التوراة مرات أخرى . فكانت النتيجة « أن كل قبائل بني إسرائيل ما عدا يهودا وبنيامين لم يعرفوا التوراة نحواً من مائتين وسبعين عاماً » (ص ٩٩) . وتضافرت الوثنية لدى شعب وملوك وكهنة اليهود مع غارات المصريين والآشوريين ، فأدىٰ إلى نسيان التوراة وضياعها ، الشيء الذي ألزم عزرا الوراق بأن يكتب من هواه ما يجيء خليطاً من الشيفونية وجرأة الاختلاق على الله . عند الحردلو يصبح ابن حزم نهاية « أول فقيه مسلم يعتمد على التاريخ برهاناً على تحريف التوراة وتبديلها » (ص ٩٩) .

د ــ فن التعارك الفكري :

يجتمع الفصلان السابع والثامن من كتاب إبراهيم الحردلو على إلقاء أضواء كاشفة حول منهج ابن حزم ، وما تركه هذا المنهج من طابع على طرائق المفكرين اليهود الذين انبروا لمنازلته وتفنيد مقولاته . ويرى الحردلو أن الصراع بين الأديان السماوية الثلاثة مرت بمرحلتين هما : المعركة بين اليهودية والمسيحية منذ القرن الميلادي الأول ، ثم دخول الدين الإسلامي في حلبة الاصطراع منذ القرن السابع الميلادي . ويبلغ الصراع مداه ، في نظر الحردلو ، خلال القرن الحادي عشر الميلادي ، في الوقت الذي أملىٰ فيه ابن حزم كتاب (الفِصل) . وكان الحردلو قد قدَّم في الفصل الأول مقالات بعض المستشرقين الذاهبة إلى استفادة الإسلاميين في مناقضاتهم لليهود بحجج مأخوذة من مفكري الفرق اليهودية المتحاربة ، خاصة القرائين والربانيين . لكن الحردلو يضعف هذا الاحتمال في الفصلين الأول والثامن على السواء . وآراء الحردلو في الفصل الثامن تتوسع بخصوص الصراعات الطويلة الأمد بين الأديان الثلاثة : اليهودية والمسيحية والإسلام ، ومغهم الزرادشتية ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر استفادة مفكري هذه الأديان من

الخلافات المذهبية التي تكسر صلابة الإجماع وتماسكه داخل كل دين على حدة . وكان الحردلو موفقاً للغاية في هذه الملاحظات رغم إيجازها ، فما أنسب كتاب (الفِصل) ، وهو مؤلَّف رائد في علم الأديان المقارن ، ما أنسبه تمثيل هذه الدوائر المتداخلة من الصراعات على مستوى الملل (الأديان) ثم النحل (المذاهب) . هذا إذا ما اعتبرنا بالحيز الذي يمنحه ابن حزم في كتابه لمناقشة الفرق الإسلامية ، وأجدني معاداً إلى الاهتمام بما كنت أقوله في مبتدأ هذا العرض عن أهمية الإطار العريض لمجهودات العلماء المسلمين لأجل توضيح إسهام ابن حزم . فالقرون الهجرية الثلاثة من الثالث إلى الخامس ، هي التي منحتنا أثرى الرؤيات الإسلامية للملل والنحل ، خاصة إذا ما ذكرنا ابن جرير الطبري ، المسعودي ، البيروني ، ابن قتيبة ، ابن النديم ، الجاحظ ، القاضي عبد الجبار ، الباقلاني ، الإسفراييني ، الأشعري ، عبد القاهر البغدادي ، ابن حزم ، وآخرين .

ويظل الحردلو غير قادر على تحديد القدر الذي أخذه ابن حزم ممن سبقه حينما أقدم على نقد أهل الكتاب ، فالرجل لا يعترف لغيره بالسبق ، وطريقته الظاهرية في نقد النصوص داخلياً وعرضها على الكتاب والسنة والعقل والإجماع تتفرد ، بل ويجعل التقصي حول ما يستفيده ابن حزم من الآخرين غاية في الصعوبة . لهذا يصل المؤلف إلى عبارته : « ولكننا لا نعرف فقيهاً مسلماً قبل ابن حزم بهذا القدر من العلم بالتوراة واليهود وكتبهم ، ولا نجد عالماً مسلماً نقد التوراة نقداً منهجياً كما فعل ابن حزم » (ص ١٢٨) . وحينما تضرر اليهود الأندلسيون من تهجّم ابن حزم على كتبهم قلّد ابن النغريلة منهج ابن حزم الذي يهدف لإظهار مدى التبديل والتحريف في الكتب التي ينقدها من خلال إثبات الاختلاف والتضارب فيها . وهكذا ذهب ابن النغريلة ينقّب في القرآن الكريم ليستخرج ما يعتبرها حالات من التضارب أو التشبيه والتجسيد . ولما كان ابن حزم يرى إلزام الخصم الحجة بشيء يؤمن به ولا يستطيع إنكاره ، فقد اتجه ابن النغريلة ذات الوجهة حينما ألقى بعبء تهجمه على القرآن الكريم . ويخلق هذا المنهج بعض الموانع للاتفاق على مقدمات الجدل : منها أن اليهود مثلاً لا يعتبرون نوحاً وإبراهيم ولوطاً أنبياء بينما هم في الإسلام أنبياء ورسل . وربما صح نفس الشيء في الشرائع التى تُنسخ في بعض الأديان وتثبت في البعض الآخر ، فاليهود والمسيحيون عامة لا يعترفون بنسخ أديانهم مهما يقول المسلمون .

وكما سبق إيراده فإن أبرز اليهود الذين ردوا على ابن حزم كانوا مدفوعين لاتخاذ منهجه في الجدل . هكذا فعل ابن النغريلة في الرسالة التي تهجّم فيها على القرآن وهي رسالة مفقودة ، حتى ابن حزم لم يطّلع عليها ، وإنما بنى رده عليها على رسالة لفقيه أندلسي آخر أورد منها الفقرات المهمة كي يعارضها . كذلك يذكر ابن حزم في (الفِصل) العلماء اليهود الذين ناظرهم وأبرزهم : يوسف بن النغريلة ، إسماعيل بن يوسف الأعور ، وعباس بن يحيى الطبيب ، ثم جاء سليمان بن إبراهيم بن أدرث اليهودي في القرن الرابع عشر الميلادي ، فكتب رسالة في مقارعة ابن حزم نشرت عام ١٨٦٣م . ويقول الحردلو إن الرجل كان شتَّاماً مقذعاً ، وكان لا يوجه نقده للنصوص الإسلامية بقدر ما يرمي إلى تجهيل دراية ابن حزم حول المواضيع التي يناقشها ، ومن وراء ذلكم اللجوء إلى تأويل الزوايا الحرجة التي يحصر فيها ابن حزم الفكر اليهودي كي يجد لهم ابن أدرث مخارج موقرة . ويبدو أن الحردلو يوهن حجج ابن أدرث في رده على ابن حزم ، خاصة حينما أول ابن أدرث الحالات التي رأى فيها ابن حزم أن اليهود يرمون الله عز وجل بالبداء ، أي أن يهم سبحانه وتعالى بالشيء ثم يبدو له غيره ، وهي صفة المخلوقين لا صفة الخالق العليم جل شأنه .

هـ ــ مصادر ابن حزم وأخطاء المستشرقين :

لم يحاول الحردلو حصر المصادر التي استقى منها ابن حزم عطاءه الفكري ، وهو حجم يبلغ نحواً من أربعمائة كتاب ، تعرَّض فيها للأديان والفلسفة والمنطقة والأدب والفقه . أما مصادره في نقد التوراة فتبدو أيضاً غامضة ، في شقيها الإسلامي واليهودي . والشيء الوحيد الذي يتوصل إليه الكاتب هو التشابه الملحوظ بين بعض البراهين التي ساقها ابن حزم ، وبين ما جاء في تفسير ابن جرير الطبري وكتاب علي بن ربان الطبري « الدين والدولة » . ولا يغيب عن البال أن أهم مصدرين لدى ابن حزم هما القرآن الكريم والسنة النبوية : إذ يصرح هذان المصدران بالتحريف في التوراة ، وهما أيضاً يعطيان ابن حزم فرصاً صالحة للمقارنة بين الصحيح الإسلامي والمُحرَّف التوراتي ، ويصرح ابن حزم باطلاعه على كتب العهد القديم ، وربما نظر في التلمود . أما التوراة ، وهي الأسفار الخمسة الأولى ، فقد قرأها بتمعن في اللغة العربية ، ووصف النسخة التي كان ينقل منها وإن لم يشر إلى المترجم . وهنالك حقيقة أساسية هي أن هذا العالِم المقتحم لا يقرأ العبرية ، وكان جميع اطلاعه هذا على كتب اليهود مبنياً على الترجمات الكثيرة التي زخرت بها قرطبة في هذا الأوان ، حتى عُدَّت المركز الأول للثقافة اليهودبة بدلاً من بغداد[١٧] . وحينما لم يعين ابن حزم الترجمة التي كان يستقي منها نصوصه التوراتية ، فقد خلق مشكلة لم يجد لها الدارسون الكُثر حتى الآن حلاً . وهكذا رجع الباحثون إلى العصر الجاهلي والعهد الراشدي والقرنين الأول والثاني الهجريين بحثاً عن إشارة إلى ترجمة كاملة للتوراة في العربية ، فلم يجدوا غير إشارة ابن

النديم إلى أن أحمد بن سلام قد ترجم التوراة إلى العربية في نهاية القرن الثاني للهجرة . ويورد الحردلو آراءً لبعض الباحثين تُسفّه القول بأن الجاحظ كان يعرف العبرية ، وأنه قد ترجم ما في كتبه عن كتب اليهود من أصولها العبرية (ص ١٤١) . لكن المؤلف لم يستنكر ما قاله بارون عن الطبري المفسّر واحتمال اعتماده على ترجمة سريانية للتوراة . ويستحق التأريخ للترجمات العربية للكتب المقدسة وعلاقة ذلك بأبحاث العلماء المسلمين دراسة جادة تجيب على التساؤلات حول مصادر العلماء الذين تطرقنا إلى أعمالهم ، والذين اكتفينا بذكرهم في إطار الجدل الدائر بين الأديان الثلاثة لقرابة الألفي سنة من الزمان . ويمكن لهذه الدراسة أن تنطلق من الفصل التاسع في كتاب الحردلو ، وأيضاً من أبحاث هادي حسين حمود الخاصة بأعمال المسعودي[١٨] ولعل الحردلو تعجل قليلاً في وضع الاحتمالات عن الترجمة العربية التي ربما استعان بها ابن حزم . فهو يبدأ بدايةغير مجازفة بقوله : « ولعل أقدم ترجمات عربية من التوراة ما أورده علي بن ربان الطبري ٨٦١م في كتابه «الدين والدولة» فقد أشار إلى ترجمة السبعين وترجمات أخرى باللغة اليونانية . ولا غرو فإن علياً الطبري كان مسيحياً ، ولا بد أنه قد قرأ الكتاب في هذه الترجمات اليونانية ثم ترجم منها إلى العربية ما استشهد به في كتابه » (ص ١٤١) . ولما كان علي الطبري ، والجاحظ وابن قتيبة وحنين بن إسحق متعاصرين فإن البحث عن الأصول العربية الأولى للتوراة ربما أثمر في التنقيب عن مصادرهم الخاصة بالكتب اليهودية والمسيحية . ولنقل إن علياً الطبري (ت ٢٤٧ هـ) ربما ترجم لاستعماله الخاص فقرات من التوراة إلى العربية ولا يلزم عندئذ أن تكون هذه الترجمة قد انتشرت وذاعت حتى وصلت إلى يد ابن حزم بالأندلس في القرن الخامس الهجري وبدون أن تبلغ الشهرة التي أخلدت ذكراً للترجمات المشهورة في المراجع العربية . وكان من حظ ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) أن قرأ التوارة بالعربية واقتبس منها في « تأويل مختلف الحديث »[١٩] . ويكشف لنا هادي حسين حمود أن المسعودي (ت ٣٤٥ هـ) يقول في (التنبيه والإشراف) إنه كان يفضل ترجمة حنين بن إسحاق (ت ٢٦٠ هـ) للتوراة لأنها معتمدة عند كثير من الناس[٢٠] . فإذا صح أن لحنين بن إسحاق ترجمة عربية للتوراة لم يعد لمغالطات الباحثين حول دراية الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) بالتوراة في صيغتها العربية أية معنى . ولعلنا نستطيع أن نقول عندئذ إن ترجمة حنين تلك هي الأقرب للتداول في المشرق خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ، لكننا لا ندري إن كانت هذه الترجمة المشرقية قد انتقلت إلى الأندلس فوقعت في يد ابن حزم أم لا . ثم تتقوى احتمالاتنا عن اعتماد العلماء المسلمين للترجمة المشرقية عندما نقرأ للحردلو : « وأشهر ترجمة للتوراة بالعربية هي ترجمة سعيد الفيومي (ت ٣٣١ هـ) وقد ذكره المسعودي فيما ذكر من اليهود الذين ترجموا التوراة إلى اللغة العربية منهم أبو كثير يحيى بن زكريا وغيره . ولكننا حين نقارن بين الفقرات التي استشهد بها ابن حزم في كتابه وترجمة سعيد الفيومي نجد بعض الاختلاف ، وهذا يقطع بأن ابن حزم لم يأخذ ما أخذ من ترجمة سعيد الفيومي ، ولا بد أنه أخذ من ترجمة أخرى » (ص ١٤١) . ويُضاف إلى هذا أن الحردلو يُخطِّىء البحاثة المستشرقين في مغالطاتهم عن الترجمة التي اعتمدها ابن حزم للتوراة ، فيرجع تلك المغالطات إلى افتراضهم عدم وجود ترجمة للتوراة أو العهد القديم سوى ترجمة سعيد الفيومي . وثالثة الدلائل هي ، كما يقول الحردلو ، أن ابن حزم يشير في (الفِصل) إلى أنه رأى أكثر من نسخة لترجمة التوراة باللغة العربية (ص ١٤٢) . أما شراينر فقد شذَّ عن أولئك المستشرقين ، يقول ذلك الحردلو ، إذ كتب هذا المستشرق مقالة عن تاريخ الكتاب المقدس في الأدب العربي فاعترف بأنه لا يستطيع أن يجزم أي ترجمة للتوراة كانت عند ابن حزم حين نقد التوراة (ص ١٤٢) .

أما مصادر ابن حزم في تاريخ اليهود فكان الكتاب المنسوب إلى يوسف بن هارون الذي عاصر المسيح عليه السلام ، هكذا يقول ابن حزم في (الفِصل) . ويفهم الحردلو نقلا عن اشتاينشنايدر أن زكريا بن سعيد اليماني قد ترجم أجزاء من هذا التاريخ إلى العربية ، ولا بد أن ابن حزم قد نظر في تلك الترجمة (ص ١٤٤) . ثم يكمل ابن حزم مصادره الكتابية بمصادر بشرية طريفة يجدها الحردلو في صنفين من اليهود . فكلما جادل ابن حزم علماءهم خلص إلى معلومات جديدة عما لديهم ، وكانت للرجل قدرة عجيبة على الاستيعاب والبحث في المراجع ، والصنف الثاني من مصادره البشرية اليهودية هم أصدقاؤه من اليهود الخارجين على ملتهم . وقد عُرِفَ شخصان من هؤلاء كانا مصدرين هامين لابن حزم اعتمدهما في تنقيبه عن معلومات التلمود وكتب الربانيين كالمدراش ، وهذان هما إسماعيل بن يونس الإسرائيلي وإسماعيل بن القراض . وقد شهد الناس ابن حزم يجلس ساعات طويلة في دكان إسماعيل بن يونس حينما كان في مدينة المرية (١٤٤) .

ونستطيع أن نوجز القول في الفصل العاشر الخاص بأخطاء المستشرقين حول كتاب (الفِصل) . فأول هذه المآخذ التي يرصدها لهم الحردلو هو اضطرابهم حول عنوان الكتاب ومحتوياته نسبة لاختلاف الروايات في كتب التراث الإسلامي ومخطوطات ابن حزم حول المسميات الرئيسية والفرعية . ولهذه القضية أطراف أخرى

ظهرت في كتابات عبد الحليم عويس وسهير أبو وافية ورفيقيهما حينما عالجوا مسألة مؤلفات ابن حزم . فهنالك في المجموعة التي أطلق عليها اسم « مخطوطة شهيد على ٢٧٠٤ » والتي أخرج منها سهير أبو وافية ورفيقاها كتابهم « الأصول والفروع » المنسوب إلى ابن حزم ، هنالك في هذه المجموعة شيء مكرر مما في كتاب (الفِصل) لا ريب في ذلك(٢١) .

عمل الحردلو في إعداد القسم الخاص باليهود وتوراتهم في (الفِصل) إخراجاً منقحاً بأربع مخطوطات وصفها بدقة في هذا الفصل . فمخطوطة الاستانة ومخطوطة جستربيتي نُسختا عام ٧٤٢ هـ ، ومخطوطة لايدن نُسِخَتْ بين عامي ٧١٢ و ٧٣٤ هـ . ولم يجد المؤلف تأريخاً لنسخ مخطوطة المتحف البريطاني . أما الكتاب المطبوع باسم (الفِصل) فقد نُشِرَ في القاهرة عام ١٣١٧ هـ من مخطوطة مفقودة الآن نُسِخَتْ عام ١٢٧١ هـ ، أي كما يقول الحردلو بعد حوالي خمسمائة عام من المخطوطات الأربع التي اعتمد عليها الكاتب (ص ١٥٥) . ولأن الحردلو يعتقد أن كثيراً من الخطاطين والوراقين قد عبث بالكتاب المطبوع ، الشيء الذي جعله يخالف لحد بعيد المخطوطات الأربع التي اعتمدها هو ، لذلك لا يزال هذا الباحث يكرر في خواتمه مايقول في استهلاله : « و لا يمكن أن يعتمد عليه في دراسة جادة ، إلا بعد تحقيقه تحقيقاً علمياً من المخطوطات القديمة التي لم تكن معروفة لدى أكثر الذين درسوا الكتاب من المستشرقين » (ص ١٥٥) . ونحن نقول في خواتمنا ما قلناه في استهلالنا من أن الرجل المتوفر لهذا المجهود هو الحردلو بعينه ، وإننا كقراء لمتشوقون إلى النظر في مؤلف جيد لابن حزم وللدراسات نيرة عليه . ولنأمل كل الأمل في أن يجد هذا الباحث في المؤسسات العلمية الإسلامية ورجالات الفكر القادرين سنداً ودعماً ما يمكنه من إنجاز هذا الحلم الكبير .

الهوامش

(١) يحضرني من المؤلفين عن ابن حزم ومحققي كتبه : عبد السلام هارون ، سعيد الأفغاني ، إحسان عباس ، ناصر الدين الأسد ، ممدوح حقي ، محمد أبو زهرة ، زكريا إبراهيم ، عبد الكريم خليفة ، الطاهر مكي ، طه الحاجري ، عبد الله الزايد ، سهير أبو وافية ورفيقاها ، وأبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري .

(٢) سهير أبو وافية، محمد عاطف العراقي وإبراهيم هلال (١٩٧٨م) تحقيق « الأصول والفروع » لابن حزم الأندلسي ، دار النهضة العربية بالقاهرة ، ص ١١ . والعنوان هو :
Ibn Hazm's Attitude to and Criticism of the Hebrew Bible Based upon a Critical editon of the Section on the Pentateuch of his Kitab al Fisal.

(٣) الحردلو ، المرجع السابق ، ص ٦ .

(٤) الحردلو ، المرجع السابق ، ص ٧ .

(٥) عبد المجيد تركي (١٩٨٦م) مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية بين ابن حزم والباجي : ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ص ٧ .

(٦) عبد الكريم خليفة (ب ت) ابن حزم الأندلسي ، حياته وأدبه ، دار العربية ، بيروت ، ص ١١٩ .

(٧) عبد الحليم عويس (١٩٧٩م) ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري . دار الاعتصام ، القاهرة ، ص ٢٦٩ .

(٨) سهير أبو وافية وآخرون ، المرجع السابق ، ص ٤٧ — ٥٣ .

(٩) الحردلو ، المرجع السابق ، ص ٥٢ هـ ١ : Literary History of the Arabs

(١٠) سهير أبو وافية وآخرون، المرجع السابق ، ص ١١ .

(١١) الطاهر أحمد مكي (١٩٨٠م) دراسات أندلسية ، دار المعارف ، القاهرة ، ص ص ٥٨ — ٨٧ .
ومحمد حسن قجة (١٩٨٥م) محطات أندلسية ، الدار السعودية ، جدة ، ص ص ١٥٥ — ١٦٤ .

(١٢) عبد الكريم خليفة ، المرجع السابق ، ص ٩ وعبد الحليم عويس ، المرجع السابق ، ص ١٥ .

(١٣) مثال بارز هو محمد عبد الله الشرقاوي في تحقيقيه (١٤٠٣هـ) الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل للغزالي ، دار أمية ، الرياض ، المقدمة ، و (١٩٨٤م) المختار في الرد على النصارى للجاحظ ، دار الصحوة ، القاهرة ، المقدمة .

(١٤) ابن هشام (ب ت) السيرة النبوية ، تحقيق : السقا والإبياري وشلبي ، مؤسسة علوم القرآن ، ص ص ٥٦٤ — ٥٦٦ .

(١٥) مثلاً صابر طعيمة (١٩٨٣م) التاريخ اليهودي العام ، دار الجيل ببيروت ، ظفر الإسلام خان (١٩٨٤م) تاريخ فلسطين القديم ، دار النفائس بيروت ، وروجيه (رجاء) جارودي (١٩٨٣م) ملف إسرائيل ، دار الشروق ببيروت .

(١٦) سورة الشعراء : آية ٥٤ .

(١٧) الحردلو ، المرجع السابق ، ص ٤٧ .

(١٨) هادي حسين حمود (١٩٨٤م) منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية ، وزارة الثقافة والإعلام ببغداد ، ص ص ١٦٣ — ١٩٢ . ولا أدري إلى أي حد يمكن أن تكفي أبحاث هوروفتز في دائرة المعارف الإسلامية وأبحاث شرايتر الذي يذكر له الحردلو بحثاً عن تاريخ الكتاب المقدس في الأدب العربي (ص ١٤٢) ، لا أدري هل يكفيان ويغنيان

عما نقترح من تاريخ عربي شامل لهذا الموضوع الخاص بترجماتنا للتوراة ومكانة هذه التراجم في الفكر الإسلامي . هذا مني لعجزي عن النظر في أي المقالين حتى الآن .

(١٩) ابن قتيبة (١٩٧٣م) تأويل مختلف الحديث ، دار الجيل ، بيروت ، ص ص ٢٩ و ٢٢١ .

(٢٠) هادي حسين حمود ، المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

(٢١) يقول عبد الحليم عويس في سرده لقائمة كتب ابن حزم الموجودة والمفقودة تحت رقم ٢٤ « كتاب الأصول والفروع «مخطوطة شهيد على ٢٧٠٤» وأكثر موضوعاتها مضمنة في الفِصل» . انظر عبد الحليم عويس ، المرجع السابق ، ص ١١٩ .

الدوريات العلمية والتقنية للمبرت

حشمت قاسم
أستاذ مشارك في قسم المكتبات
والوثائق بجامعة القاهرة ، والمعار
حالياً مديراً لدار الكتب الوطنية في أبو ظبي

Jill, Lembert/Scientific and Technical Journals.- London: Clive Bingley, 1985, 191 p.

للدوريات المتخصصة دورها الحيوي في نظام الاتصال العلمي ، فهي تشكل أهم قنوات القطاع الرسمي أو الوثائقي في دورة تداول المعلومات . وتحظى الدوريات بوجه عام بنصيب وافر في الإنتاج الفكري للمكتبات وتنظيم المعلومات ، حيث اهتم المكتبيون ــ بناء على اقتناع راسخ بأهميتها ــ بالقضايا المتصلة بفهرسة الدوريات ، وسبل الحصول عليها ، وتنظيم مجموعاتها ، والتعريف بمحتوياتها .. إلى آخر ذلك من عناصر المعالجة الوراقية وإدارة مقتنيات المكتبات . إلا أن مؤشر هذا الاهتمام قد تحوَّل وبشكل ملحوظ خلال العقدين الماضيين نتيجة لعدد من التطورات التي حدثت في مجال تنظيم المعلومات . ووراء هذا التحول ثلاثة عوامل أساسية نجملها فيما يلي :

١ ــ الضغوط الاقتصادية المتمثلة في التزايد السريع في تكاليف الحصول على الدوريات وما واكبه من تراجع في ميزانيات المكتبات .

٢ ــ ما يكتنف الدوريات كقناة للاتصال من قصور .

٣ ــ استخدام التكنولوجيا الحديثة التي أتاحت إيجاد قنوات جديدة للاتصال كالدوريات الألكترونية .

والكتاب موضوع هذا العرض أحد الأعمال الحديثة الشاملة الممثلة لنمط الاهتمام السائد بالدوريات في مرحلة التحول هذه . وهو أول عمل أصادفه للمؤلفة **«جل لامبرت»** ويبدو أنه جهدها الوحيد في هذا المجال ، ولا يتضمن الكتاب أية معلومات عنها . وقد صدر هذا الكتاب عن واحد من أكثر الناشرين البريطانيين اهتماماً بمجال المكتبات وتنظيم المعلومات وهو **«كلايف بنجلي»** . ونعرض فيما يلي بإيجاز لمحتويات الكتاب ، مع محاولة إبراز أهم القضايا والسمات التي تميزه وتبرز ملامح الاتجاه الذي يمثله .

● محتويات الكتاب :

يقع متن الكتاب في ١٧٤ صفحة ، وينقسم إلى ثمانية فصول ، يتتبع **الأول** نشأة الدوريات العلمية والتقنية وتطورها ، ويستعرض **الثاني** أنواع الدوريات ، ويناقش **الثالث** مشكلات نشر الدوريات ، ويقدم **الرابع** الطرق البديلة للنشر ، أما الفصل **الخامس** فيتناول الدوريات الألكترونية ، بينما يتناول **السادس** النظم الألكترونية لإيصال الوثائق ، ويعرض الفصل **السابع** لدراسات الاستشهاد المرجعي الخاصة بالدوريات ، ويركز الفصل **الثامن** والأخير على أدوات التحقق من الدوريات والتعرف على أماكن وجودها .

الفصل الأول ــ نشأة الدوريات العلمية والتقنية وتطورها :

وينقسم هذا الفصل الذي يشغل بمراجعه عشر صفحات إلى أربعة أقسام :

يتتبع **أولها** : البدايات المبكرة التي ترجع إلى بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر ، وإلى عام ١٦٦٥م على وجه التحديد حين صدرت الـ journal Des Scavans في فرنسا ، والـ Philosophical Transactions في بريطانيا ، أول دوريتين علميتين في العالم . ويشتمل هذا القسم على إشارة موجزة إلى المراسلات الخاصة التي كانت تمثل أهم سبل الاتصال العلمي قبل ظهور الدوريات . وينتهي هذا القسم بعرض موجز لأهم السمات المميزة لكل من الدوريتين الرائدتين .

أما **القسم الثاني** : فيستعرض مراحل تطور الدوريات العلمية خلال القرون الثلاثة الماضية ، مع محاولة إبراز الارتباط الوثيق بين نمو عدد الدوريات ونمو عدد الجمعيات العلمية والاتحادات المهنية التي رعت الغالبية العظمى من الدوريات . ويبيِّن هذا القسم مظاهر الاختلاف اللغوي والتحريري بين الدوريات القديمة والدوريات المعاصرة . كذلك يبينّ هذا القسم كيف كان نمو عدد الدوريات

المتخصصة مواكباً لتشعب العلوم وبروز ملامح المجالات التخصصية . ويُبْرِزُ هذا القسم ما حدث من تحول في أنماط نشر الدوريات المتخصصة في أعقاب الحرب العالمية الثانية، حيث اجتذب النشاط اهتمام المؤسسات التجارية ، ولم يعد حكرا على الجمعيات العلمية التي أُخِذَ عليها تحفظها الواضح ، سواء فيما يتعلق بإصدار الدوريات الجديدة أو في إفساح حيز كاف للمجالات الموضوعية الناشئة في الدوريات القائمة .

ويتناول **القسم الثالث** : إحصاءات ما يُنْشَرُ من دوريات علمية وتقنية ، ويبدأ بالصعوبات التي تواجه محاولة التعرُّف على عدد الدوريات الجارية ، ثم يبيّن أثر هذه الصعوبات في اختلاف نتائج الإحصاءات والتقديرات ، ويسجل أهم هذه التقديرات بحيثياتها في تسلسل زمني .

والقسم الرابع والأخير : متمم لهذا القسم ، حيث يتناول معدلات نمو الدوريات سواء في عدد العناوين أو عدد الصفحات . ومن أبرز الحقائق الجديرة بالاهتمام في هذا الفصل أنه قد تبيَّن في مطلع الستينيات أن معدل نمو عدد الدوريات العلمية خلال الثلاثة قرون الماضية قد ظل ثابتاً وفي حدود ٥٪ . وقد جاءت هذه النتيجة بناء على إحصاء إجمالي لعدد الدوريات التي صدرت دون مراعاة للدوريات التي توقفت عن الصدور .ومن ثم فقد تبيَّن من دراسة أخرى أنه حتى نهاية الستينيات كان معدل نمو الدوريات الجاريةيبلغ حوالي ٤٪ سنويا ، إلا أن هذا المعدل قد بدأ في الانخفاض في غضون السبعينيات . وأيا كانت العوامل التي أدت إلى هذا الانخفاض فإنه يدل على أن التضخم الملحوظ في الإنتاج الفكري في العلوم والتكنولوجيا والذي ساد القرن الحالي ، ربما يكون على مشارف حدوده القصوىٰ .

هذا وقد بلغ عدد المراجع المستشهَد بها في هذا الفصل واحداً وعشرين مرجعاً ، منها إحدى عشرة مقالة ، وسبعة أعمال منفردة ما بين كتاب وتقرير ، وثلاثة فصول في كتب تجميعية . وتمثل المراجع المنشورة في الثمانينيات حوالى ٢٨ر٦٪ (٦ مراجع) أما المراجع المنشورة في السبعينيات فتمثل حوالى ٤٢ر٨٪ (٩ مراجع) بينما تتساوىٰ مراجع الستينيات مع مراجع الثمانينيات .

الفصل الثاني ــ أنواع الدوريات :

هناك أكثر من أساس لتقسيم الدوريات إلى فئات ، فبالإضافة إلى طبيعة المؤسسات الراعية ، هناك أهداف الدوريات وطبيعة المحتوىٰ والجمهور المستهدف .

ويقسِّم هذا الفصل الدوريات وفقاً لطبيعة المحتوىٰ إلى فئتين : الدوريات الأولية والدوريات الثانوية . وتشكل هاتان الفئتان موضوع القسمين الرئيسيين في هذا الفصل ، أما القسم الثالث والأخير فيتناول فئات الناشرين المهتمين بالدرويات . ويتناول القسم الأول الدوريات الأرشيفية من حيث خصائصها ووظائفها وطبيعة محتوياتها ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى إجراءات التحكيم باعتباره أحد الملامح الرئيسية المميزة لهذه الفئة من الدوريات . ويقصد بالتحكيم هنا تقييم المقالات المقدمة قبل نشرها . ورغم اختلاف سياسة التحكيم وإجراءاته وأساليبه من مجلة لأخرى ، فإن جوهر العملية واحد وتكاد أهدافها تحظىٰ بإجماع القبول من جانب جميع الأوساط العلمية . ورغم وجاهة فكرة التحكيم والإيمان بجدواه ، فإن ممارسة التحكيم لا تزال من أبرز القضايا الجدلية في مجال الاتصال العلمي .

وتسجِّل المؤلفة هنا أهم الانتقادات الموجهة لنظام التحكيم ، وتنتهي إلى أن مثل هذه الانتقادات لن تؤدي يوماً إلى التخلي عن النظام . وهناك ارتباط وثيق بين النشر في الدوريات الأولية وتسجيل السبق العلمي . والسبق العلمي كما نعلم من أهم دوافع الحرص على النشر ، ويمثل أهم الحوافز بالنسبة لمن ينتمون إلى الوسط العلمي وخاصة في العلوم الأساسية . وكما هو الحال بالنسبة لنظام التحكيم ، تُخصِّصُ المؤلفة قسماً فرعياً مستقلاً لنظام الأسبقية في النشاط العلمي .

والقضية الأساسية في هذا القسم هي مدىٰ قدرة الدوريات الأولية على المحافظة على حق الباحث في السبق العلمي ، خاصة إذا علمنا أن قصب السبق عادة ما يكون مِنْ نصيب مَنْ يسبق في النشر لا مَنْ يسبق في الكشف .

وتُخصِّص المؤلفة العنصر الأخير من القسم الأول من هذا الفصل للدوريات المترجمة باعتبارها إحدى فصائل الدوريات الأولية ، حيث تعرض بإيجاز للاتجاه السائد في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا لترجمة عدد من الدوريات العلمية الروسية ، ليصبح محتواها في متناول الباحثين المتعاملين باللغة الانجليزية على أوسع نطاق .

ويتناول القسم الرئيسي الثاني من الفصل الثاني الدوريات الثانوية كما أشرنا . ويبدأ هذا القسم بتحديد المقصود بالدوريات الثانوية وموقفها بالنسبة للدوريات الأولية ، تمهيداً لمناقشة فئات الدوريات الثانوية بشيء من التفصيل .

وتنقسم هذه الأخيرة هنا إلى خمس فئات ، هي : دوريات المقالات الاستعراضية أو المراجعات العلمية **Review Journals** والدوريات التقنية **Technical Journals** والدوريات المهنية **Trade**

Journals ، والدوريات ذات التوزيع المقيد Controlled-Circulation Journals ، ودوريات الهواة Hobby Journals . وتحظى كل واحدة من هذه الفئات الخمس بالمعالجة من حيث طبيعتها وأهدافها ومحتواها وجمهورها وأبرز نماذجها .

ويستعرض القسم الرئيسي الثالث والأخير من هذا الفصل فئات ناشري الدوريات العلمية والتقنية ، وهي الجمعيات العلمية والاتحادات المهنية والناشرون التجاريون ، والمؤسسات غير التجارية ـــ Non-profit making Companies ، والمعاهد التعليمية ، والمؤسسات الحكومية ، ومراكز البحوث ، والمؤسسات الصناعية والتجارية ، ويتناول طبيعة كل فئة وأنماط اهتماماتها بالنشر ، وفئات الدوريات التي تصدر عنها ، وأبرز نماذج كل فئة .

وكما يتضح لنا من هذا العرض فإن عنوان هذا الفصل الذي يشغل ثلاثاً وعشرين صفحة لا يدل بدقة على محتواه ، فقد تعرَّضتْ المؤلفة بشيء من التفصيل لفئات الناشرين دون إشارة إلى ذلك في العنوان . وعلى ذلك فإنه ربما كان من الأوفق أن يكون عنوان هذا الفصل « أنواع الدوريات وفئات الناشرين » .

هذا ويبلغ عدد المراجع المستشهَد بها في هذا الفصل ثمانية وعشرين مرجعاً ، منها ثلاث عشر مقالة (٤٦ر٤٪) وأحد عشر عملاً ما بين كتاب وتقرير بحث (٣٩ر٣٪) ، وأربعة أعمال ما بين فصل في كتاب تجميعي وبحث في مؤتمر (١٤ر٣٪) . أما من حيث التوزيع الزمني لهذه المراجع ، فإنها تتركز في السبعينيات التي تستأثر بثمانية عشر مرجعاً (٦٤ر٣٪) والثمانينيات التي تحظى بعشرة مراجع (٣٥ر٧٪) .

الفصل الثالث ـــ مشكلات نشر الدوريات :

كان من نتائج التزايد المستمر في أعداد البحوث في أعقاب الحرب العالمية الثانية تزايد الضغط على الدوريات الأولية باعتبارها أهم منافذ نشر هذه البحوث ، وكان هذا الضغط المتزايد بدوره سببا في مواجهة هذه الدوريات للعديد من الصعوبات التي جعلتها عرضة للانتقاد من جانب المهتمين بقضايا الاتصال العلمي .

ومن أبرز هذه الانتقادات تأخر النشر ، والتفتت وتكاثر مجالات التخصص ، والتبديد ، وارتفاع التكلفة . ويمثل كل واحد من أوجه الانتقاد هذه موضوعا لقسم مستقل في هذا الفصل . ويتناول **القسم الأول** تأخر النشر ، ويقصد بتأخر النشر هنا طول الفترة الفاصلة بين تقديم أصول المقالات ونشرها في شكلها النهائي . ويرجع طول هذا الفاصل الذي قد يتجاوز العام في بعض الأحيان ، إلى عدة عوامل ، يأتي في مقدمتها سلسلة العمليات التحريرية التي تمر بها المقالات قبل نشرها . وتسجل المؤلفة هنا أهم نتائج الدراسات التي تناولت هذه الحلقة في نظام الاتصال العلمي . أما العامل الآخر الذي يؤدي إلى طول الفاصل الزمني بين تقديم المقالات ونشرها فهو عدم توافر الحيِّز الكافي لنشر كل ما يقدم للدورية من مقالات . ونجد هنا إشارة إلى الحيل التي تلجأ إليها بعض الدوريات للتغلب على هذه المشكلة ، كإدخال تعديل في سياسة التحرير يؤدي إلى ارتفاع معدلات رفض المقالات ، أو وضع قيود على طول المقالات بحيث يتسع حيِّز النشر المتاح لأكبر عدد ممكن منها . وبالإضافة إلى تأخر النشر الناتج عن الفاصل الزمني يعاني الوسط العلمي من تأخر البث الناتج عن معوقات التوزيع . ويتناول الكتاب هذه القضية بإيجاز شديد . ومن المعروف أن هذه المشكلة تزداد حدة كلما ابتعد الوسط المستفيد من الدوريات جغرافياً عن منابعها .

أما المشكلة الرئيسية **الثانية** فهي ارتفاع معدلات تكاثر الدوريات ، ويتناول الكتاب عوامل هذا التكاثر ، ومظاهره ، وأبرز نماذجه ، والتبعات المترتبة عليه ، وفي مقدمتها تشتت البحوث المتصلة بالموضوع الواحد في عدد كبير من الدوريات .

ويتناول **القسم الثالث** من هذا الفصل الانتقاد الثالث الموجه للدوريات وهو التبديد والإسراف . وهنا نجد عرضاً لأسباب هذه الظاهرة وأشكالها فضلاً عن تسجيل أهم نتائج جهود دراستها . وتدخل معظم هذه الجهود في إطار دراسة فعالية تكلفة خدمات المكتبات والمعلومات .

أما **القسم الرابع والأخير** في الفصل الثالث فيتناول ارتفاع تكلفة الدوريات في إطار العوامل الاقتصادية . ونجد في هذا القسم إشارة إلى تزايد معدلات ارتفاع أسعار الدوريات ، وأهم نتائج الدراسات التي أجريت في هذا المجال في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا . ونجد هنا محاولة لحصر العوامل التي تؤدي إلى هذه الظاهرة ، وفي مقدمة هذه العوامل تزايد حجم الدوريات استجابة لتزايد عدد المقالات المقدمة للنشر ، مما يؤدي إلى زيادة تكلفة الطباعة . أما العامل الثاني فهو تناقص عدد الاشتراكات نتيجة للإغراق في التخصص . وللتضخم بالطبع دور لا يمكن تجاهله في هذا الصدد . أما العامل الرابع فهو زيادة هامش ربح الناشرين . يضاف إلى ذلك القيود التي فُرِضَتْ على تمويل المكتبات نتيجة للظروف الاقتصادية العامة . ومن العوامل الاقتصادية المؤثرة في نشر الدوريات أيضاً مايسمى بتكاليف الصفحة Page Charges وهي الرسوم التي تتقاضاها بعض الدوريات من المؤلفين مقابل نشر مقالاتهم . وهناك انقسام في الأوساط العلمية حول مبررات هذه الرسوم وجدواها .

هذا ولقد كان لتوافر إمكانات الاستنساخ الفوتوغرافي على نطاق واسع آثاره الاقتصادية على نشر الدوريات وتوزيعها . وهناك كما نعلم ارتباط وثيق بين الاستنساخ وحقوق النشر ، حيث يطالب معظم الناشرين بتعويضهم مقابل استنساخ مطبوعاتهم ، وهناك الكثير من الجهود الرامية لتنظيم سبل تحصيل هذا التعويض . وقد جاءت معالجة القضايا الاقتصادية المتصلة بالدوريات في هذا الفصل معززة بالأدلة والشواهد والبيانات المستخلصة من الدراسات التي تشهد بدورها زيادة ملحوظة في هذه المرحلة .

ويبلغ عدد مراجع هذا الفصل ٤٦ مرجعاً ، منها ثلاث وثلاثون مقالة (٧١ر٧٤٪) وأحد عشر عملا ما بين كتاب وتقرير (٢٣ر٩٪) ، وعملان (٤ر٣٪) أحدهما بحث في مؤتمر ، والآخر فصل من كتاب تجميعي . أما عن التوزيع الزمني لهذه المراجع فإنها تتركز بشكل واضح في الثمانينيات التي تحظىٰ بتسعة وعشرين مرجعاً (٦٣ر٠٤٪) ، أما السبعينيات فيبلغ نصيبها ستة عشر مرجعا (٣٤ر٧٨٪) ، بينما نجد مرجعا واحدا ينتمي إلى عقد الخمسينيات ، وليس للستينيات نصيب في مراجع هذا الفصل ، ويدل هذا التوزيع الزمني بوضوح على مدىٰ حداثة الاهتمام بموضوع هذا الفصل .

الفصل الرابع ـــ الطرق البديلة للنشر :

كان من نتيجة الانتقادات ومظاهر القصور التي تعرَّض لها الفصل السابق أن أصبحت الدوريات الأولية تحت الحصار . ولقد شهدت العقود الخمسة الماضية العديد من المناقشات والآراء والاجتهادات والبدائل الرامية لتحقيق التوازن بين الحاجة إلى إيجاد أرشيف مناسب للإنجازات العلمية من ناحية ، وسرعة بث المعلومات الحديثة من ناحية أخرى . ومن الممكن تقسيم التغييرات المقترحة لتحقيق هذا التوازن إلى فئتين أساسيتين :

١ ـــ تغيرات تتطلب إدخال تعديلات على الشكل أو أساليب النشر التقليدية للدوريات الأولية .

٢ ـــ تغيرات يتم بمقتضاها التخلي كلية عن الدوريات المطبوعة لصالح شكل بديل للاتصال .

ولما كان البديل الأول أقل بعداً من غيره عن المألوف السائد ، فقد اجتذب عدداً كبيراً من الاجتهادات والابتكارات . وعلى الرغم من تعدد الابتكارات وتنوع خصائص التعديلات ، فإنها جميعاً تهدف لزيادة سرعة النشر أو خفض تكاليف الإنتاج أو لتحقيق المطلبين معاً . ويتناول هذا الفصل الأشكال المختلفة لهذين البديلين بشيء من التفصيل .

أما عن أشكال البديل الأول فتشمل المصغرات الفيلمية Microforms ، وإيداع المواد المساعدة أو الإضافية في مستودع خاص بحيث تُسْتَرْجَعُ حسب الحاجة ، وتقديم أصول المقالات في شكل قابل للتصوير ، وإصدار دوريات تقتصر محتوياتها على الملخصات . وهنا نجد معالجة لكل هذه الأشكال من حيث نشأتها وتطورها وأبرز مزاياها وعيوبها . ويحظىٰ الشكل الأخير وهو إصدار دوريات الملخصات بمعالجة أكثر تفصيلا ، حيث تتناول المؤلفة أربع دوريات من هذا النوع ، اثنتان منها في مجال الهندسة والأخريان في الكيمياء ، مع الحرص على تمثيل كل من بريطانيا والولايات المتحدة بشكل متوازن . هذا ومن الجدير بالذكر أن معظم دوريات الملخصات مازالت في مرحلة الاختبار ، وتعتبر مجالاً خصباً للبحث والتجريب . وقد لخَّصَتْ المؤلفة بعض نتائج الدراسات التي أُجْرِيَتْ على هذه الفئة من الدوريات في سياق الحديث عن مزاياها ومشكلات نشرها .

أما البديل الثاني فيتمثل هنا في شكلين ، **أولهما** : توزيع المقالات المنفردة **وثانيهما** : تبادل الطبعات المبدئية أو المسبقة Preprint . وفيما يتعلق بالشكل الأول فإننا نجد بالإضافة إلى التعريف والتاريخ عرضاً لأبرز أنماطه ، والمتمثلة في التوزيع المركزي المعتمد على مستودع تصب فيه أصول المقالات ، والتوزيع اللامركزي الذي تقوم فيه كل مؤسسة بتوزيع مايتوافر لديها من مقالات .

أما النمط الثالث فيتمثل فيما يُسمىٰ « النظام الدولي لبحث البحوث » International Research Communication System (IRCS) وهو مؤسسة تجارية تابعة لمجموعة إلسفير Elsevier Science Publishers . ويتناول الكتاب كل نمط من هذه الأنماط بشيء من التفصيل ، من حيث نشأته وتطوره وأبرز نماذجه، ويختتم هذا القسم بعرض لأبرز مزايا توزيع المقالات المنفردة وأهم مشكلاته .

وفي سياق معالجة الشكل الثاني وهو تبادل الطبعات المبدئية ، يقدم الكتاب وصفاً لأبرز النماذج والممارسات في كل من الطب والفيزياء . وكما يتضح من مناقشات هذا الفصل فإن جميع البدائل المقترحة لا تزال في مرحلة التجريب ، وليس هناك ما يدل على تفوق بديل بشكل يجعله أكثر قابلية من غيره للانتشار .

ويبلغ عدد مراجع هذا الفصل تسعة عشر مرجعاً ، منها ثلاث عشرة مقالة (٦٨ر٤٢٪) ، وأربعة أعمال ما بين كتاب وتقرير بحث (٢١ر٠٥٪) فضلا عن بحثين من بحوث المؤتمرات (١٠ر٥٣٪) . أما عن التوزيع الزمني لهذه المراجع فإن الغالبية العظمىٰ تتركز في السبعينيات التي حظيت باثني عشر مرجعاً (٦٣ر١٧٪) ، يليها الثمانينيات التي تحظىٰ بأربعة مراجع

(٢١ر٠٥٪) وأخيرا الستينيات التي جاء نصيبها ثلاثة مراجع فقط (١٥ر٧٩٪) .

الفصل الخامس ـــ الدوريات الالكترونية :

بدأ الاهتمام منذ مطلع السبعينيات باستخدام الحاسبات الالكترونية في النشر ، وكانت دوافع هذا الاهتمام تتمثل في التزايد الملحوظ في تكاليف نشر الدوريات من جهة ، والتطورات الجارية في الحاسبات الالكترونية والمتمثلة في انخفاض تكاليفها ونمو شبكات الاتصالات من جهة أخرى . ويتناول هذا الفصل الذي يشغل بمراجعة ستا وعشرين صفحة ما يُسمىٰ بالدوريات الالكترونية . ولفكرة الدوريات الالكترونية هذه جذورها فيما عُرِفَ منذ مطلع السبعينيات بمراكز التجهيز التحريري Editiorial processing Centres ، والتي نشأت برعاية المؤسسة القومية للعلوم في الولايات المتحدة للحد من تكاليف نشر الدوريات .

وينقسم هذا الفصل إلى عشرة أقسام رئيسية : **أولها** : مراكز التجهيز التحريري ، **وثانيها** : عناصر ومقومات الدورية الالكترونية ، **وثالثها** : تداول الآراء باستخدام الحاسبات الالكترونية أو ما يُعرف بالمؤتمرات الالكترونية ، **ورابعها** : نظام « بلند » ، **وخامسها** : دوريات النظام الدولي لبث البحوث ، أما القسم **السادس** : فهو دوريات الجمعية الكيميائية الأمريكية ، ويتناول القسم **السابع** : مزايا الدوريات الالكترونية ، بينما يناقش القسم **الثامن** : عيوب هذه الدوريات ، ويتناول القسم **التاسع** : الجوانب الاقتصادية للدوريات الالكترونية ، أما القسم **العاشر والأخير** : فيستكشف احتمالات المستقبل بالنسبة للدوريات الالكترونية .

وتبدأ معالجة مراكز التجهيز التحريري بإشارة تاريخية ، يعقبها تحديد لمفهوم هذه المراكز ووظائفها ودورها في بث المعلومات ، يلي ذلك تلخيص لخطوات تشغيلها وهي :

١ ـــ يُقدِّم المؤلف مقالته في شكل قابل للتداول بواسطة أجهزة التحقق البصري من الحروف Optical Character Recognition ، حيث يتم إدخالها في نظام الحاسب الالكتروني .

٢ ـــ يقوم الحاسب الالكتروني بإعداد نسخة مطبوعة من المقالة ثم إرسالها إلى رئيس تحرير المجلة بالبريد ، وبناء على قرار رئيس التحرير يمكن إعطاء التعليمات للحاسب بقبول المقالة أو رفضها أو إرسالها للتحكيم . وفي هذه الحالة الأخيرة يمكن للحاسب أن يختار المحكِّمين المناسبين من سجل خاص بناء على تعليمات رئيس التحرير .

٣ ـــ بعد تقديم جميع المحكِّمين لملاحظاتهم وتعليقاتهم في شكل قابل للتداول بواسطة أجهزة التحقق البصري إلى مركز التجهيز التحريري ، يمكن إرسال نسخة من الملف تلقائيا إلى رئيس التحرير .

٤ ـــ إذا تبيَّن لرئيس التحرير بعد مراجعة ملاحظات المحكِّمين أن على المؤلف مراجعة المقالة ، فإنه يمكن أن يضع علامة على القطاعات المناسبة من التعليقات ، وإعادة النص المطبوع إلى مركز التجهيز التحريري .

٥ ـــ يمكن إرسال نسخة مطبوعة جديدة تشتمل على القطاعات التي وُضِعَتْ عليها علامات إلى المؤلف ، الذي يمكنه بعد مراجعة المقالة أن يطبع المادة الجديدة على أوراق خاصة بأجهزة التحقق البصري ، مع بيان مواضع الإضافة والحذف على المطبوع .

٦ ـــ في مركز التجهيز التحريري يمكن للحاسب الالكتروني أن يقوم تلقائيا بمراجعة المقالة بما فيها التعديلات التي أدخلها المؤلف ، وأن يبعث بنسخة من الناتج المطبوع إلى رئيس التحرير . وإذا كان القبول من نصيب المقالة فإنها تراجع طباعيا على الخط المباشر عن طريق الحاسب الالكتروني لمركز التجهيز التحريري ، وفقا للقواعد والمعايير الخاصة بالمجلة ثم تختزن . ومن الممكن تحويلها حينئذ مع غيرها من المقالات إلى شريط ممغنط وإرسالها إلى المطبعة . كذلك يمكن إرسال نسخ من الشريط الممغنط إلى ناشري خدمات التكشيف والاستخلاص ومراكز تحليل المعلومات .

ويعرض الكتاب بعد سرد هذه الخطوات لتجربة المؤسسة القومية للعلوم في الولايات المتحدة الأمريكية في هذا الصدد ، ونخلص من هذا العرض إلى أننا ما زلنا في انتظار مركز التجهيز التحريري الذي تجاوز مرحلة التجريب إلى مرحلة التشغيل .

والدورية الالكترونية موضوع القسم الثاني من هذا الفصل فكرة تطورت عن مركز التجهيز التحريري ، ووجه الاختلاف بين الفكرتين أنه في الوقت الذي يستخدم فيه مركز التجهيز التحريري للاقتصاد في إخراج الدوريات المطبوعة ، نجد أن الدورية الالكترونية قد قُصِدَ بها أن تكون بديلا الكترونيا للشكل المطبوع . وتسجِّل المؤلفة الخطوات التي يمر بها إعداد الدورية الالكترونية ، يلي ذلك عرض عام موجز لفئات واحتمالات الدوريات الالكترونية في سياق ما يُسمىٰ شبكات الاتصال الالكترونية .

والمؤتمرات الالكترونية موضوع القسم الثالث من هذا الفصل هي الأساس في شبكات الاتصال الالكترونية . وفي المؤتمرات

الالكترونية هذه يتم ربط المشاركين في المؤتمر عبر شبكة للاتصال بنظام حاسب الكتروني يضطلع بمهمة اختزان الرسائل وبثها ، ويتصل المشاركون ببعضهم البعض بإدخال الرسائل وتلقيها من خلال منافذهم الخاصة المرتبطة بالحاسب الالكتروني . وتعرض المؤلفة لخصائص هذا النمط من وسائل الاتصال ، ويلي هذا العرض وصف لأبرز نماذجه ، وهو النظام الالكتروني لتبادل المعلومات (ELES) بمعهد نيوجرزي للتكنولوجيا ، ويتناول هذا الوصف البدايات التاريخية والمكونات الأساسية ، فضلاً عن بعض الاستخدامات العملية والمتمثلة في عدد من الدوريات المتخصصة .

ويشكل نظام «بلند BLEND» وهو الاسم الاستهلالي لمشروع تطوير شبكة برمنجهام ولافبرا الالكترونية BIRMINGHAM AND LOUGHBOROUGH ELECTRONIC NETWORK DEVELOPMENT موضوع القسم الرابع من هذا الفصل ، ففي عام ١٩٨٠م رأى قسم البحوث والتطوير بالمكتبة البريطانية أن يرعى شبكة تجريبية للاتصالات الالكترونية بالاشتراك مع جامعتي برمنجهام ولافبرا ، وقد بدأ هذا المشروع بهدف استطلاع ودراسة مشكلات إصدار مجلة الكترونية . ويتناول هذا القسم الأنماط المحتملة لهذه المجلة والمشاركين في تحريرها والإفادة منها ، ومتطلبات التنفيذ من الأجهزة والبرامج ، ومقدار ما تحقق من تقدم في محاولة التعرف على الصعوبات التي يمكن أن تواجه التنفيذ .

ويتناول القسم الخامس دوريات النظام الدولي لبث البحوث وهو أول نظام ترعاه دار نشر تجارية وهي مؤسسة إلسفير . وفي هذا النظام بدأ عام ١٩٨٣م إتاحة عدد من الدوريات الطبية على الخط المباشر . ونجد هنا وصفا للتجربة ، كيف بدأت وكيف تطورت ، ويلي هذا الوصف تسجيل لادعاءات النظام حول مزايا هذا النمط لبث الدوريات . وينتهي القسم بالإشارة إلى عدد من المشروعات المماثلة والتي تقوم بها نفس دار النشر .

ويعرض القسم السادس بإيجاز لتجربة الجمعية الكيميائية الأمريكية في إتاحة دورياتها على الخط المباشر . أما القسم السابع والقسم الثامن من هذا الفصل فيتناولان مزايا الدوريات الالكترونية وعيوبها على التوالي .

وكما يتضح من الأقسام السالفة الذكر فإن فكرة الدورية الالكترونية تبدو مقبولة من الناحية التكنولوجية ، ولكنه ما لم تصبح تكاليفها منافسة لتكاليف النظام الحالي لنشر الدوريات فإن التنفيذ لن يتم بسرعة . ويعرض القسم التاسع من هذا الفصل للجهود التي بُذِلَتْ في تقدير وتحليل تكاليف الدوريات الالكترونية والعوامل المؤثرة في التكاليف . وموضوع القسم العاشر والأخير نتيجة التحليلات التي يشتمل عليها القسم التاسع ، حيث يتناول القسم العاشر الاحتمالات المستقبلية للدوريات الالكترونية .

هذا ويبلغ مجموع المراجع المستشهَد بها في هذا الفصل تسعة وثلاثين مرجعاً ، منها أربع وعشرون مقالة تمثل حوالى ٦١٫٥٪ من مجموع المراجع ، وعشرة كتب وتقارير بحوث تمثل حوالى ٢٥٫٦٪ ، وخمسة أعمال ما بين بحث مؤتمر وفصل في كتاب تجميعي تمثل حوالي ١٢٫٨٪ . أما عن التوزيع الزمني لهذه المراجع فإن الثمانينيات تحظىٰ بأكبر نصيب (٢٩ مرجعا تمثل حوالى ٧٤٫٤٪) ، بينما تحظىٰ السبعينيات بعشرة مراجع تمثل ٢٥٫٦٪ . وإن دل هذا التوزيع الزمني على شيء فإنما يدل على مدىٰ حداثة الاهتمام بالقضايا موضوع هذا الفصل .

الفصل السادس ــ النظم الالكترونية لإيصال الوثائق :

يشغل هذا الفصل عشرين صفحة ، ويعالج موضوعه في أربعة أقسام . وتدبير ما يطلبه المستفيدون من وثائق غير متوافرة بالمكتبة من الخدمات المألوفة الآن في مكتبات البحث . وتُسمىٰ هذه الخدمة بخدمة إيصال الوثائق ، وأبسط أشكالها تبادل الإعارة بين المكتبات . وطبيعة النظم المستخدمة في هذا المجال ومكوناتها ومزاياها وأبرز نماذجها هي موضوع هذا الفصل ، الذي يتناول القسم الأول منه طلب الوثائق الكترونيا ، بينما يتناول القسم الثاني إيصال الوثائق الكترونيا . أما القسم الثالث فيعرض لأهم مشروعات إيصال الوثائق الكترونيا . ويتناول القسم الرابع متطلبات خدمة إيصال الوثائق الكترونيا .

ويبين **القسم الأول** كيف نشأت نظم طلب الوثائق الكترونيا ؟ وكيف تطورت ؟ كما يتناول أهم مزايا هذه النظم ، وهي البساطة وسهولة الاستخدام ، والاقتصاد في الوقت ، كذلك يسجل أهم عيوب هذه النظم ، وفي مقدمة هذه العيوب أوجه القصور في الاتصال بين الموردين والمستفيدين حيثما تكون هناك صعوبات في توفير الوثائق بشكل فوري . وتناقش المؤلفة كلا من المزايا والعيوب على ضوء نتائج الدراسات التي أجريت لتقييم هذا النمط من الخدمات .

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لطلب الوثائق الكترونيا فإنه قد يكون لتوفير الوثائق الكترونيا ، موضوع **القسم الثاني** من هذا الفصل قصة أخرى . ويتكون نظام إيصال الوثائق الكترونيا من أربعة عناصر أساسية ، وهي طرق إدخال المادة،ووسائل الاختزان ، وشبكات الاتصال ، والمخرجات . ولكل عنصر من هذه المكونات أجهزته وإجراءاته . ويتناول هذا القسم كل عنصر على حدة من

حيث متطلباته والبدائل المتاحة لتنفيذه .

ويتناول **القسم الثالث** من هذا الفصل عددا من مشروعات إيصال الوثائق وأبرزها :

١ ــ مشروع المعهد الأمريكي للفيزياء .

٢ ــ مشروع أرتيمس ARTEMIS الذي تتبناه المجتمعات الأوروبيـــــة Commission of the European Communities . ويتكون الاسم الاستهلالي لهذا المشروع من الحروف الأولى للمصطلحات الواردة في عبارة Automatic Retrieval of Text from Europe's Multinational Information Service والتي يمكن ترجمتها بالاسترجاع الآلي للنصوص من خدمات المعلومات الأوروبية المتعددة الجنسيات .

٣ ــ مشروع أبولو APOLLO الذي ترعاه الوكالة الأوروبية للفضاء (ESA) ، ويتكون اسمه من الحروف الأولى للمصطلحات الواردة في عبارة Article Procurement with Online Local Ordering ، والتي يمكن ترجمتها بتتبع الوثائق بالطلب المحلي على الخط المباشر .

٤ ــ مشروع أدونيس ADONIS الذي نتج عن تضافر جهود عدد من كبار ناشري الدوريات لإنشاء مرصد بيانات لمقالات الدوريات . ويتكون الاسم الاستهلالي لهذا المشروع من الحروف الأولى للمصطلحات الواردة في عبارة Advanced Document Over Network Information Services والتي يمكن ترجمتها بخدمات المعلومات الوثائقية المتقدمة عبر الشبكات .

٥ ــ مشروع هرمز HERMES الذي يعتمد أيضاً على استخدام أسلوب التعامل مع النصوص عن بعد TELETEX . وترعى هذا المشروع وزارة التجارة والصناعة في بريطانيا .

٦ ــ مرصد بيانات الناشرين Publishers Database Limited حيث تركّز اهتمام الناشرين البريطانيين في النشر الالكتروني حول مرصد بيانات الناشرين المحدودة . وهي شركة أُسِّسَتْ عام ١٩٨٢م تحت إشراف اتحاد الناشرين البريطانيين ، وتعمل على إنشاء مراصد بيانات متخصصة في كل مجال على حدة ، ويتم الربط بين هذه المراصد وتغطيتها بمظلة حقوق النشر .

٧ ــ مشروع المكتبة البريطانية لنقل الصور ، ففي عام ١٩٨٤م بدأ قسم البحوث والتطوير بالمكتبة البريطانية دراسة للتعرف على إمكانات نقل الصور في المكتبات ، وعلى عكس المشروعات السابقة فإن هذا المشروع لا يعتمد على إقامة مرصد للبيانات ، وإنما يقوم على أساس استخدام أجهزة الاستنساخ الاتصالية Communicating Copiers لنقل المواد بين المكتبات .

٨ ــ تجربة سميثونيان لاستنساخ الصور عن بعد ، وتقتصر هذه التجربة على نقل صور مقالات الدوريات بين أربع مكتبات فرعية تابعة لمؤسسة سميثونيان .

ويعرض الكتاب لكل من هذه المشروعات والتجارب من حيث نشأتها والأساس الذي بُنِيَتْ عليه وأهدافها ومراحل تطورها ، ومكوناتها واحتمالات نموها واستقرارها .

أما **القسم الرابع والأخير** من هذا الفصل فيتناول خدمة إيصال الوثائق الكترونيا وأسس النظر في هذه الخدمة وتقييمها . ويغطي هذا القسم كلا من عوامل السرعة والتكلفة ، وسهولة الاستخدام ونوعية النسخ المقدمة ، وينهي القسم بنظرة سريعة على احتمالات المستقبل .

ويبلغ عدد مراجع هذا الفصل ثلاثة وثلاثين مرجعا ، منها إحدى وعشرون مقالة (أي حوالى ٦٣٫٦٪) وثمانية أعمال منفردة ما بين كتاب وتقرير ، أي حوالى ٢٤٫٢٪ وأربعة أعمال نشرت ضمن بحوث المؤتمرات أو الكتب التجميعية ، أي حوالى ١٢٫١٪ أما عن التوزيع الزمني لهذه المراجع فإنها تتركز وبشكل واضح في الثمانينيات التي حظيت باثنين وثلاثين مرجعا أي حوالى ٩٧٪ من المجموعة ، بينما جاء نصيب السبعينيات مقتصراً على مرجع واحد فقط .

الفصل السابع ــ دراسات الاستشهاد المرجعي بالدوريات :

يشغل هذا الفصل ، وهو أطول فصول الكتاب ، خمساً وثلاثين صفحة ، وينقسم إلى خمسة أقسام رئيسية ، فضلا عن تمهيد مختصر .

يتناول **القسم الأول** تحليل الاستشهاد المرجعي من حيث نشأته وتطوره والأساس المنطقي الذي بُنِيَ عليه، وأهم مشكلاته ومدى الاعتماد على نتائجه كمؤشر للإفادة من الإنتاج الفكري .

أما **القسم الثاني** فيعرض لظاهرة تشتت الإنتاج الفكري المتصل بموضوع معين في عدد من المصادر ، وأساليب دراسة هذه الظاهرة، وخاصة **قانون برادفورد** الذي يمثل بؤرة الاهتمام في هذا القسم . وقد تناولت المؤلفة بدايات القانون ومراحل تطوره والجهود التي بُذِلَت لصياغته . وينتهي هذا القسم بإشارة سريعة إلى قانون وراقي حديث اقترحه يوجين جارفيلد مدير معهد المعلومات العلمية الذي يصدر كشافات الاستشهاد المرجعي ، وهو **قانون التركيز** ، وكما

يبدو فإن هذا القانون يعتمد على التداخل الواضح في الاهتمامات الموضوعية للدوريات ، وينص على أن ذيل الإنتاج الفكري لأي مجال يتكون وإلى حد كبير من المناطق البؤرية للإنتاج الفكري المتخصص في المجالات الأخرى . ويؤكد هذا القانون كما هو واضح تكامل التخصصات الموضوعية في نسيج مترابط .

هذا ويتناول **القسم الثالث** من هذا الفصل استخدام تحليل الاستشهاد المرجعي في تقييم الدوريات ، ويمهد بعرض للأساليب الأخرى التي يمكن اتباعها في هذا المجال كاستطلاع آراء الباحثين ، وإحصاء واقعات الإعارة أو الاستنساخ . ويعرض هذا القسم لمحاولات ترتيب الدوريات طبقيا وفقا لما تحظى به مقالاتها من استشهادات ، حيث بدأت هذه المحاولات منذ وقت مبكر نسبيا (مطلع الخمسينيات) وكانت هذه القوائم الطبقية تتم في المراحل الأولى بالطرق اليدوية ، ثم بدأت تستفيد من إمكانات الحاسبات الالكترونية وخاصة في ظل وجود مراصد البيانات الالكترونية الخاصة بكشافات الاستشهاد المرجعي . ومن أبرز هذه القوائم Journal Citation Report التي بدأت تصدر سنويا عن معهد المعلومات العلمية عام ١٩٧٤م ، وتتكون كل قائمة سنوية من خمسة أقسام ، يشتمل القسم الأول على الدوريات مرتبة ترتيبا طبقيا تنازليا وفقا لمدى الاستشهاد بمحتوياتها ، أما القسم الثاني فيشتمل على الدوريات التي يغطيها كشّاف الاستشهاد المرجعي في العلوم SCI وفي مقابل كل دورية عدد المقالات التي نُشِرَتْ بها خلال العام ، ومجموع الاستشهادات الواردة في هذه المقالات ، ومتوسط نصيب كل مقالة من الاستشهادات . ويمثل هذا المتوسط أساسا للمقارنة بين الدوريات ، أما العنصر الثالث في هذا التقرير السنوي فهو الدوريات مرتبة وفقا لطول منتصف العمر ، بينما يشتمل العنصر الرابع على قائمة بالدوريات التي وردت فيها الاستشهادات ، في حين يشتمل العنصر الأخير على الدوريات التي تم الاستشهاد بها . وتتناول المؤلفة العنصرين الأولين بشيء من التفصيل في هذا القسم الذي تختتمه ببيان أوجه الإفادة من قوائم الترتيب الطبقي للدوريات وحدود ومحاذير الإفادة من هذه القوائم .

ويتناول **القسم الرابع** من هذا الفصل ظاهرة العلاقات المتبادلة بين الدوريات والتي يمكن التعرف على بعضها من خلال تحليل الاستشهادات المرجعية . ويركز هذا القسم على العنصرين الرابع والخامس من التقرير السنوي للاستشهاد المرجعي ، وهما قائمة الدوريات التي ترد بها الاستشهادات ، وقائمة الدوريات التي تمّ الاستشهاد بمقالاتها ، ومن أبرز هذه العلاقات الاستشهاد المرجعي الذاتي أو ما يمكن تسميته بالتحوصل الوراقي ، وتبادل الاستشهاد المرجعي ، والمزاوجة الوراقية .. إلى آخر ذلك من احتمالات العلاقات . ومن الجدير بالذكر أن مثل هذه التحليلات قد استُخْدِمَتْ في التعرف على العلاقات المتبادلة بين المجالات الموضوعية أيضاً . وتُخصِّص المؤلفة جزءاً كبيرا من هذا القسم لعرض أهم الدراسات في هذا المجال ، والنماذج والأساليب المتبعة في التحليل ودراسة هذه الظواهر .

هذا ويتناول **القسم الخامس والأخير** من هذا الفصل التغييرات التي تطرأ على الإفادة من الإنتاج الفكري بمرور الوقت أو أثر عامل الزمن في الإفادة من الإنتاج الفكري . ونجد هنا استعراضا وافيا لأبرز الجهود التي بُذِلَت في دراسة هذه الظاهرة ، وأهم النتائج التي انتهت إليها في تحديد طول منتصف العمر بالنسبة للمجالات المختلفة . وينتهي هذا القسم بعرض لأوجه الإفادة من نتائج مثل هذه الجهود .

وقد جاءت معالجة موضوعات هذا الفصل معززة بالنماذج والرسوم الإيضاحية .

أما عن مراجع هذا الفصل فقد بلغ عددها خمسة وأربعين مرجعا ، منها خمس وثلاثون مقالة ، أي حوالي ٧٧٫٨٪ من المجموع وستة أعمال منفردة ما بين كتاب وتقرير ، أي حوالي ١٣٫٣٪ وأربعة أعمال ما بين بحث مؤتمر وفصل في كتاب تجميعي ، أي حوالي ٨٫٩٪ من مجموع المراجع . ومن الملاحظ هنا اتساع التشتت الزمني لهذه المراجع ، حيث نجد كلا من العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات ممثلة كل منها بمرجع واحد ، بينما الخمسينيات يمثلها مرجعان ، وتحظى الستينيات بسبعة مراجع ، أي حوالي ١٥٫٥٪ من مجموع المراجع ، وتتساوى بذلك مع الثمانينيات تماما ، أما السبعينيات فقد حظيت بأكبر نصيب وهو ٢٦ مرجعا ، أي حوالي ٥٧٫٨٪ من مجموع المراجع .

الفصل الثامن ــ التحقق من الدوريات وتتبعها :

ويتناول هذا الفصل الأخير الذي يشغل عشرين صفحة أدوات ومصادر التحقق من الدوريات والتعرف على أماكن وجودها ، وذلك تحت أربعة أقسام رئيسية ، وهي نظام الكودن CODEN ، والرقم المعياري الدولي للمسلسلات ISSN ، واختصار أسماء الدوريات ، وأدلة الدوريات . ومع التزايد المستمر في أعداد الدوريات الجارية ، والتغييرات التي تطرأ على هذه الدوريات من اندماج وانفصال تتزايد أيضاً المشكلات التي يمكن أن نصادفها في التحقق من الدوريات . وفي محاولة للتغلب على هذه المشكلات ظهر نظامان مستقلان لتحديد هوية الدوريات : **أولهما** هو نظام الكودن

موضوع **القسم الأول** من هذا الفصل ، **والثاني** هو الرقم المعياري الدولي للمسلسلات موضوع **القسم الثاني** . ويتناول هذان القسمان هذين النظامين من حيث نشأتهما والأسس التي بُنيا عليها ، والمؤسسات التي ترعى تطبيقهما ، والأدلة وأدوات العمل المتاحة لمن يقومون بالتطبيق ، فضلا عن خطوات وإجراءات العمل في النظامين ، ومدى انتشارهما والمزايا التي تتحقق من التزامهما .

ويتناول **القسم الثالث** اختصار أسماء الدوريات ، وذلك من حيث مبرراته وأشكاله ومشكلاته وسبل تقنينه ، والأدلة الخاصة به .

هذا وتحظى قضايا وأدوات الضبط الوراقي للدوريات على مستوييه بالمعالجة في **القسم الرابع والأخير** من هذا الفصل الذي يتناول أدوات الضبط الخارجي للدوريات ، والمتمثلة في أدلة المطبوعات الدورية ، والفهارس الموحدة ، وأدوات الضبط الوراقي الداخلي المتمثلة في الكشّافات ونشرات المستخلصات . وكذلك يتناول هذا القسم ما يمكن تسميته بالأدلة التجارية للدوريات ، وهي الأدلة والقوائم التي يعدها موردو الدوريات ، وكذلك أدلة الدوريات المترجمة .

وتتناول المؤلفة وظائف كل فئة من هذه الفئات وأهم سماتها ، كما تعرض لأبرز الأمثلة في كل فئة . وقد جاء ترتيب عناصر هذا القسم مفتقرا للمنطق إلى حد ما ، فقد جاءت الكشافات ونشرات المستخلصات ، وهي كما نعلم تمثل الضبط الوراقي الداخلي ، تالية لأدلة المطبوعات الدورية وسابقة للفهارس الموحدة وقوائم موردي الدوريات ، وهي كما نعلم تمثل الضبط الوراقي الخارجي للدوريات .

هذا وقد بلغ مجموع المراجع المستشهَد بها في هذا الفصل تسعة عشر مرجعا ، منها إحدى عشرة مقالة تمثل حوالى ٥٧ر٩٪ من مجموع المراجع ، وسبعة أعمال منفردة ما بين كتاب وتقرير ، وتمثل حوالى ٣٦ر٨٪ . أما الأعمال التجميعية فجاء نصيبها مرجعاً واحداً فقط وهو فصل في كتاب . أما عن التوزيع الزمني لهذه المراجع فإننا نلاحظ تركزها الواضح في السبعينيات التي تحظى بثلاثة عشر مرجعا ، أي حوالى ٦٨ر٤٪ من المجموع . أما الثمانينيات فقد بلغ نصيبها خمسة مراجع ، أي حوالى ٢٦ر٣٪ ، هذا في حين جاء نصيب الستينيات مرجعا واحدا فقط .

في نهاية هذا العرض لمحتويات الكتاب وفضلا عما سجلناه من ملاحظات موضعية في ثنايا هذا العرض ، هناك بعض الملاحظات العامة التي نودُّ تسجيلها . وفي مقدمة هذه الملاحظات اهتمام الكُتّاب بقضايا الساعة بالنسبة للدوريات العلمية والتكنولوجية ، مع الاهتمام بوجه خاص بنشر الدوريات والإفادة منها . ودليلنا على ذلك أمران : **أولهما** : تركز مراجع الكتاب الواضح في الثمانينيات التي استأثرت بحوالى ٤٨ر٨٪ من المراجع المستشهَد بها ، في مقابل ٤٢٪ للسبعينيات ، و ٦ر٨٪ للستينيات . وبذلك يمكن القول وبمصطلح المجال أن جبهة البحث في هذه القضايا الخاصة بالدوريات في هذه المرحلة تقع في العقدين الثامن والتاسع من القرن الحالي ، واللذين استأثرا معا بأكثر من ٩٠٪ من الاستشهادات المرجعية للكتاب . أما **الأمر الثاني** : فهو استئثار مقالات الدوريات بحوالى ٦٤ر٤٪ من المراجع المستشهَد بها ، يليها الكتب وتقارير البحوث وتحظى بحوالى ٢٥ر٦٪ ، أما فصول الكتب التجميعية وبحوث المؤتمرات فيبلغ نصيبها ١٠٪ من المراجع المستشهَد بها في الكتاب ، ويؤكد ذلك أهمية مقالات الدوريات كمنفذ أساسي لنشر المعلومات حول القضايا الحيوية .

هذا وجميع مراجع الكتاب باللغة الانجليزية ، كما أن التحيُّز واضح لما نُشِرَ في بريطانيا من هذه المراجع ، ويؤكد ذلك أثر العوامل الجغرافية في الإفادة من الإنتاج الفكري .

وأسلوب الكتاب سلس بسيط ، كما يمتاز بالإيجاز والتركيز في معظم أقسامه ، وعلى الرغم من أنه موجه أساساً لطلبة المكتبات وعلم المعلومات ، فإنه يمكن لهذا الكتاب ، بما اشتمل عليه من أساليب وخبرات منهجية وما تضمنه من إجراءات وأدوات علمية ، أن يكون نافعا لكل من الباحثين في علم المعلومات والقائمين على إدارة المكتبات .

الموجب والسالب في الصحافة العربية
لياسر الفهـــد

نهلة الحمصي

الفهد ، ياسر/الموجب والسالب في الصحافة العربية .ـــ دمشق :

في جهد دائب مع قضايا الصحافة وظواهرها ومحاولة الكشف عن مشكلاتها لإيجاد حلولٍ لها ، يُقدّم الكاتب ياسر الفهد كتابه الرابع « الموجب والسالب في الصحافة العربية » بعد أن نشر كتبه : « مواقف مع الصحافة العربية ـــ الصحافة العربية المعاصرة ـــ عالم الصحافة العربية والأجنبية » التي جال فيها في مضمار الصحافة .

في « الموجب والسالب » يستعرض الكاتب الخصائص الإيجابية والسلبية للصحافة العربية المعاصرة ، مبيناً واقعها الحالي من خلال حديثه عن الأسس الثلاثة التي يرتكز عليها عالم الصحافة وهي : الكاتب والناشر والصحيفة أو المجلة .

تقع موضوعات الكتاب مع المقدمة التي تصدرتها بقلم الدكتور حسام الخطيب والفهارس التي ذيّل بها الكاتب « الموجب والسالب » في ٢٣٠ صفحة من القطع المتوسط .

تضمن الكتاب عدة فصول هي : « الصحافة العربية ، واقعها ومستقبلها ـــ آراء في الصحافة والكتابة ـــ دوريات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (اليكسو) ـــ مجلات المؤسسات والجامعات ـــ من مكتبة الصحافة والإعلام » وفي كل فصل عدد من الموضوعات التي حوت دراسات الكاتب وآراءه في قضايا الصحافة .

في الفصل الأول : انطلق الكاتب في حديثه عن واقع الصحافة العربية ومستقبلها من تساؤل حائر هو : هل الصحافة اليوم بخير أم أن واقعها سيء ينذر بالويل ؟ هل يحق لنا أن نتفاءل ونحن نرى كثرةً ووفرةً في الصحف التي تصدر في البلاد العربية كل سنة ، أم أن ما في هذه الصحف من سلبيات يمنع أي تفاؤل من أن يرفَّ في صدر ؟

ثم يبدأ الكاتب بإيراد الإيجابيات في هذا الواقع التي تتمثل في بعض الخصائص المتعلقة بالصحف أو المجلات ، وهي :

ـــ صدور مجلات أو صحف ذات اتجاه عربي واسع .

ـــ إصدار المجلات المتخصصة التي تغطي فروع المعرفة بشكل دقيق وشامل .

ـــ قدرة الصحف المهاجرة إلى خارج البلاد على التكيف .

ـــ ظهور المجلات الرسمية وشبه الرسمية ومجلات المؤسسات .

ـــ ازدياد اهتمام المجلات بالتوجه إلى الكاتب الأجنبي بتخصيص صفحة أو عدة صفحات من المجلة لتكتب بلغة أجنبية ، وذلك إضافة إلى ما يتعلق بالكتّاب ، وذلك :

ـــ برد المجلة على الكاتب وإعلامه بمصير ما كتبه ، وفي هذا احترام للكاتب وكلمته المكتوبة .

ـــ بوصول بعض الكتّاب إلى ما يستحقونه مادياً من كتاباتهم ، هذا إلى جانب التقدم التقني الهائل في فن الطباعة .

أما السلبيات التي رآها الكاتب ، فبعضها يتعلق بمضمون ما يُكتَب وبعضها يتعلق بالناشرين أو الكتّاب ، ومنها :

ـــ تقييد حرية الكلمة ولا سيما في المجال السياسي .

ـــ طغيان الدعاية على حساب صحة المعلومات .

ـــ وضع القيود على انتقال الصحف والمطبوعات من قطر عربي إلى آخر .

ـــ عدم وجود علاقة منظمة مضبوطة بين الكاتب والناشر .

ـــ بروز طبقة من كتّاب السلطة .

ـــ كثرة المرتزقين من الكتّاب الصغار الذين يزاحمون الأقلام الأصيلة ويتبوأون مكانها .

ـــ الدعوة إلى الاهتمام بالمعنى بصرف النظر عن الدقّة اللغوية ، مما يشكل خطراً على اللغة العربية نفسها .

ثم يوسّع الكاتب جلّ هذه الأفكار في مقالات تالية .

وبعد ، فإذا وازنا بين السلبيات والإيجابيات فما الحصيلة ؟

إن التفاؤل يغلب على الكاتب ، فهو يرى أن السلبيات لابد ستنتهي ؛ فحرية الصحافة آتية ، وصدور مجلات على نطاق واسع سيشجع أقلاماً ناشئة واعدة مثقفة لتتفتح مواهبها ويفسح المجال أمام الكتّاب الكبار ليزداد عطاؤهم ، كما أن السعي الجاد في مكافحة الأمّية سيؤدي بالتالي إلى ازدياد عدد القراء الواعين الناقدين ، يضاف إلى ذلك أن الصحافة لابد ستستفيد من تقنيات الطباعة

العالمية التي تتطور بشكل مذهل ، وكل هذا سينعكس بصورة إيجابية على مستقبل الصحافة العربية .

غير أنّ الكاتب في نهاية المطاف يرى أن كل تقدم أو تقهقر في ميدان الكتابة والنشر يتوقف على تضافر جهود اتحادات الكتاب والمسؤولين والصحفيين ومؤسسات النشر، والكتّاب أنفسهم، وتعاون الأطراف هذه كلها في حلّ مشكلات الصحافة العربية ورسم طريق صحيح لمسيرتها .

وفي الموضوعات التالية يُفصّل الكاتب ما كان أوجزه من فكر ، ففي موضوع « مخالفات النشر » يتحدث عن السرقات الكتابية « وقديماً كتب النقاد العرب عن السرقات الشعرية وأسموها : السلخ والمسخ والنسخ ... » ، ثم يطرح تساؤلات تدور حول فحوى النشر والناشرين والكتّاب وما يكتبون ، والعلاقات التي تنشأ عن تعاملهم والظواهر التي تتبدى هذه الأيام بينهم ، وعن رأيه الذي يمكن أن ينظم تلك العلاقات ويمنع التجاوزات .

ومن هذه الأسئلة :

ــ إلى أي مدى يحق للكاتب أن يقتبس الأفكار والمعاني من الكتّاب الآخرين ؟

ــ هل يحق لناشر ما أن يصدر طبعات لكتاب سبق أن أصدره ناشر آخر ؟

ــ هل يحق للكاتب أو الناشر أن يبيع الكتاب بالسعر الذي يروق له ؟

ــ ما الأسس التي يمكن أن تقدّم موضوعاً ما فتسمح للناشر أن يرفض أو يقبل مادة صحفية ما ؟

ــ هل المجلة مسؤولة عن أفكار الكاتب إذا نشرت له ما كتب على صفحاتها ؟

ــ هل يحق لمجلة أن تنشر مقالة لكاتب سبق نشرها في مجلة دون استئذانه ؟

ــ هل ينبغي إعلام الناشر للكاتب بمصير عمله ؟

ــ هل يحق للكاتب أن ينشر مقالة له سبق أن نشرها أو أذاعها أو ألقاها كمحاضرة ؟

ــ ما مدى حق المترجم في التصرف بما يترجم ، وما مدى حقه في الترجمة دون استشارة المؤلف ؟

أسئلة كثيرة ، يتساءل الكاتب في نهايتها : ما الحل ؟

ثم يجد الحل ــ نسبياً ــ في اتحادات الكتّاب ونقابات الصحافة ، كما يراه في وجوب سنّ تشريعات صحفية ملزمة للناشرين وتوصيات غير ملزمة ، ولكنها بمجموعها تصل إلى تنظيم العلاقة بين الكاتب والناشر على أسس سليمة موضوعية .

ويُعرِّف الكاتب بعد ذلك « الملف في الصحيفة أو بالأحرى في المجلة » بأنه عدة مقالات تدور حول موضوع واحد تتناوله من زواياه المختلفة ، ممّا يشكل في النهاية كتاباً صغيراً يمكن أن يرجع إليه الدارس أو الباحث ، فيستفيد منه كمصدر من مصادر المعرفة كالكتاب أو الموسوعة . ثم يستعرض بعض المجلات التي تنتهج نهج الملف أو المحور في سياستها التحريرية ، ويستعرض بعضاً ممّا حوته بعض الملفات من موضوعات كملف « الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية » في المجلة العربية للثقافة والعلوم .

وفي موضوع « الكتاب في الصحافة العربية » يتحدث الكاتب ياسر الفهد عن العلاقة بين الصحافة والكتاب ، وذلك من خلال (تقديم) أو (تعريف) أو (عرض) أو (تلخيص مع التعليق) أو (نقد) أو (مراجعة) أو (تحليل) أو (دراسة) لكتاب عربي أو أجنبي ، مع ما بين هذه المصطلحات من حدود تبدو في الإيجاز والسرعة أو في الشمول والتعمق والتوسع .

ويميز الكاتب بين هذه المصطلحات من خلال أمثلة ــ قد تطول أحياناً فلا يستفيد منها القارىء إلا قراءة أسماء مواضيع مع أسماء كتّابها .

ثم يتعرض إلى الحديث عن « مجلات الكتب » وهي المجلات التي لا تنشر إلّا ما يتعلق بعروض الكتب وتحليلها ونقدها ، أو الإعلانات عن الكتب الجديدة مع ذكر عناوين مؤلفيها ، مما يساعد القرّاء على الحصول على الكتاب من المؤلف مباشرة .

وهناك المجلات التي تعالج موضوعاتها مشكلات الكتاب العربي وقضاياه ... وذلك انطلاقاً من أن العلاقة بين الكتاب والصحافة علاقة وشيجة ينبغي أن تزداد وثوقاً ، في هذا الوقت الذي تتفجر فيه المعارف ويغمر طوفان الكتب المكتبات العالمية والعربية ويترك القارىء في حيرةٍ من أمره .. وهكذا تقوم الصحافة بدورها ، إما بلفت نظر القارىء إلى أحدث الكتب ، وذلك بالإشارة إليه وذكر اسم مؤلفه وتعداد ما يحويه من موضوعات ، أو بتلخيصه وعرضه وتحليله ، مما يدفع القارىء إلى البحث عن الكتاب ذاته للاطلاع على ما حواه بشكل كامل .

أما في موضوع « الترجمة تواصل حضاري » وهو من أفضل الموضوعات الموثقة بالمصادر في « السالب والموجب » فيتحدث الكاتب عن أهمية الترجمة وحقوق المترجم وشروط الترجمة الجيدة لتكتسب صفة السلامة ، وتبتعد عن الخطل والخطأ ، وتحمل الفكرة والمضمون بشكل صحيح ولغةٍ سليمة .

أما الترجمات المشوهة الأسلوب أو التي تنقل الفكرة بشكل خاطىء ، فإن عليها مأخذين كبيرين هما : سوء الاختيار وسوء

الترجمة ، غير أن بعض دور النشر تروج لها ، لأن هدفها الربح المادي .

ويرى الكاتب أنه لابد من ربط جسور بين الترجمة والتربية حتى يمكننا أن نصل إلى تخريج المختصين اللغويين القادرين على الترجمة ، وبذلك يرتفع شأنها .

كذلك يرى أن عملية الترجمة لابد أن تخضع إلى قوانين وتشريعات واضحة ، كما فعلت الجزائر في إقامة اتحاد عام للمترجمين وتأسيس مدرسة عليا للترجمة .

ثم يتحدث عن العلاقة بين الصحافة والترجمة ، فهناك مجلات (كمجلة الآداب الأجنبية) التي تصدر عن اتحاد الكتّاب العرب ، وتنشر الموضوعات المترجمة حصراً ، مع عروض الكتب الأجنبية التي تقدم إلى القرّاء العرب زبدة عن أفضل الكتب الأجنبية وأحدثها .

وفي الفصل الثاني من « السالب والموجب » وهو بعنوان « آراء في الصحافة والكتابة » يُعرِّف المؤلف معنى (الكاتب) ومن يمكن أن تطلق عليه هذه اللفظة — وهو في تعريفه يحكِّم عاطفته — ويتحدث ضمن هذا التعريف عن الأسس الكمية والكيفية التي تمكِّن من معرفة الكاتب الأصيل وتميزه عن الكاتب غير الكفي .. ويبين في موضوعه : « الكاتب والمكافأة المعنوية » سبب خوض الكتّاب غمار بحر الكلمات وإن كانوا لا يجنون من وراء ما يكتبون الجني الكافي والمكافأة المادية المعادلة للجهد ، غير أن الجزاء يكون في السرور الذي يدخل إلى قلب الكاتب الناشىء عندما يرى أفكاره وكلماته منشورة مقروءة ، وفي السرور الذي يشعر به الكاتب المتمكن في تقبل القراء المبادىء والأهداف التي يؤمن بها ويبشّر فيما يكتب .. كما يبدو في سرور المترجم من خلال شعوره بالمتعة اللغوية من اللغة المترجم عنها والمترجم إليها التي ينقل إليها الأفكار لترى من ثَمَّ النور ..

وفي صراحة وموضوعية يتحدث الكاتب الفهد عن « الكاتب والعصر » ويقصد بالعصر ما يحيط الكاتب اليوم من سلطة ورقابة وضغوط تدفعه إلى تغيير قناعاته لينال مكاسب أو حتى لا يتضور جوعاً ، كما يتحدث عن الرقابة الدينية والاجتماعية التي يقف قلم الكاتب أمامها حائراً لا يقدر أن يعبّر عن أفكاره الحقيقية ولا يدري ماذا يفعل ولا كيف يتصرف ، وإن كان يعرف أن الكلمة الحرة البنّاءة هي القادرة على الصلاح وحمل معنى الخير الحق ..

ويرى المؤلف أن غياب النقد والنقّاد هو نتيجة لتكبيل الصحافة ، وأن هذا الوضع الذي تعانيه الصحافة يسمح بتراكم الأخطاء واستمرار الانحرافات وإغلاق أبواب التشخيص السليم وإيصاد الأبواب أمام الحلول الواقعية المعقولة للمشكلات القائمة ..

وهو في هذا لا يدعو إلى حرية الصحافة المطلقة التي يدعوها (بالإباحية) وإنما إلى حرية نسبية لا يجوز تجاوزها ولا تصل أبداً إلى قمع حرية الكاتب وإلزامه بما يجب أن يكتب .

وفي موضوعه بين « الفكر والفقر » يتحدث عن اتساع الفجوة بين المردود المادي للأعمال الفكرية الفنية وبين الأعمال اليدوية العادية ، وهي قضية يجأر بالشكوى منها فئة المثقفين الذين يرون أن المردود المادي اليوم هو لصالح العمل اليدوي مهما كان وليس للعمل الفكري مهما علا ، على الرغم من أن هذا العصر هو عصر العلم والثقافة .

ويعزو الكاتب هذا الوضع إلى عامل العرض والطلب الذي يؤدي إلى تصنيف فئات الناس العاملين إلى ثلاث فئات :

— فئة من يقوم بالأعمال الحرة اليدوية والتجارية ، ولهم القدم المعلى في الأجور .

— فئة من يقوم بالأعمال الحرة الفكرية والفنية ، وتقف أجورها في منتصف الطريق .

— فئة من يقوم بالأعمال الفنية — غير الحرة — لارتباطهم بالوظيفة ، وهم المغلوبون على أمرهم .

وكحل لهذا الوضع يُحمِّل الكاتب الدولة مسؤولية إعادة الأمور إلى نصابها وإصلاح ما اعوجّ من الأمور ؟!

ويرى المؤلف أن من هؤلاء الذين يذوّبون عصارة أفكارهم ولا يلقون مردوداً مادياً مجزياً هم الكتاب ، ويعود إلى هذه الفكرة نفسها في مقالته « أنصفوا أصحاب القلم » فيتحدث عن الحيف المادي الذي يعانيه الكاتب « ويستثنى من ذلك بعض الكتّاب الذين يبيعون أقلامهم بتسخيرها لخدمة مصالحهم » ، ويرى مع ذلك أن مهنة الكتابة بعامة مهنة مغبونة ، لا يتمتع أصحابها بالحقوق والامتيازات المعادلة للمجهود ، ويعود ليؤكد على دور اتحادات الكتّاب والصحفيين العرب التي يمكن أن تقوم بدور في هذا المجال .

وفي مقالته « المعلومات والصحافة » يتحدث عن خطر المعلومات الخاطئة أو المشوهة التي يمكن أن تقلب الحقائق إلى أضدادها بشكل مقصود أو غير مقصود ، وذلك من خلال عامل الخطأ أو تغلب العامل الذاتي أو عامل الدعاية أو بتأثير النقص أو الحذف اللذين قد يؤديان إلى تغيير المعنى أحياناً .. كما يرى أن الخطأ في المعلومات يستجر أخطاء أخرى في عالم الصحافة .

وفي إدلائه بدلوه في إيجاد الحل يرى أن الحقائق والمعلومات الصحفية الصحيحة التي يجب أن يطلع عليها القارىء هي من مهام رؤساء التحرير الذين يتوجب عليهم أن يكلفوا مختصين أكفاء

بمراجعة المقالات والتأكد من صحة ما ورد فيها من معلومات وتصحيح ما فيها من أخطاء قبل دفعها للطباعة .

وفي الفصل الثالث : يتحدث الكاتب عن دوريات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم « اليكسو » التي تحمل جميعها سمات خاصة بها وهي :

ـــ التوجه العربي العام ، فهي تقوم على أساس عربي شامل .

ـــ التخصص العميق ، سواء في مجال التربية أو الثقافة ، أو العلوم أو الإعلام أو اللغويات أو علم « المعلومات » .

ـــ تمتع مجلات المنظمة كلها بمستوى صحفي وعلمي رفيعين مع الميل إلى المنهجية العلمية والبحث الجاد الطويل .

ـــ اعتماد معظم مجلات المنظمة على خطة الملف ونشر المستخلصات باللغات الأجنبية .

ـــ ابتعاد المجلات هذه عن السياسات المحلية والفنون الأدبية من قصة وشعر ومسرحية .

ـــ استقطاب الكتّاب العرب الكبار المعروفين في مجالات تخصصهم . وهي المجالات التي تمثل المستوى الفكري الحضاري المتطور .

ومع هذا فإن معظم هذه المجلات تنقصها ناحية حضارية في الصحافة ، وهي إعلام الكاتب عن مصير عمله الذي يرسله لها .

وفي الفصل الرابع : يتحدث الكاتب عن مجلات المؤسسات والجامعات ، ويذكر الموضوعات التي تطرقها عادة وأهم ما تتصف به ، كما يذكر اسم رئيس تحريرها وعنوانها .

وفي الفصل الخامس : يعرض الكاتب كتباً يدور موضوعها حول الصحافة والصحفيين الذين اشتهروا في عالم الصحافة العربية وهذه الكتب هي : « الزيّات والرسالة » و « هيكل والسياسة » و « تطور الصحافة السورية في مائة عام » و « صحافة الكواكبي » و « دور الخبر في الإعلام العربي » و « المجلات الثقافية والتحديات المعاصرة » .

كما يتحدث عن الصحافة الأجنبية من خلال عرضه لكتابين باللغة الانجليزية **الأول** : وهو كتاب أمريكي عن الصحافة اليومية وعنوانه « إعداد الخبر الصحفي » وهو يحوي إحدى وخمسين مقالة تتعلق بممارسة العمل الصحفي . أما الكتاب **الثاني** : فبعنوان « كيف تكتب بحثاً علمياً وتنشره » وهو يتناول فن كتابة البحث العلمي من خلال التعريف بماهية البحث العلمي وبكيفية اختيار عنوان البحث ، ثم فهرسته وطريقة ذكر مصادره وإعداد خلاصة له وكتابة مناقشة .. ثم دفعه إلى النشر على اعتبار أن قيمة أي بحث لا تبدو إلا بعد نشره .

وفي الكتاب هذا فصل عن كيفية التعامل مع المحرر والفرق بين المحرر الإداري النظامي داخل المجلة والمحرر الذي يمكن أن يقوّم العمل ويبت بصلاحية نشره من خلال الأسس التالية :

ـــ إذا كان المقال (أو البحث) يدخل ضمن اهتمامات المجلة .

ـــ صلاحية المقال (أو البحث) من خلال الشكل والحجم والنسج والأسلوب .

فإذا توافرت الصلاحية من خلال هذه الأسس أتى دور المحرر النظامي الذي يبت نهائياً في زمن النشر .

وهذا الفصل من أفضل فصول كتاب « السالب والموجب » لمن يرغب في العمل الصحفي ليفهم الأسس التي يعتمد عليها ، والعلاقات التي يجب على الصحفي مراعاتها مع الناشر والصحيفة والجمهور القارىء ، ووضعه على الطريق الصحيحة التي تبين له كيف يكتب المقالة والخبر والدراسة والبحث .

وبعد ، وانطلاقاً مما نادى به الكاتب من « أن تكبيل الصحافة هو من بين أهم عوامل المعاناة العربية لأن غياب النقد يسمح بتراكم الخطأ واستمرار الانحراف ويؤدي إلى إغلاق جميع منافذ التشخيص السليم وإيصاد الأبواب أمام رسم الحلول الواقعية للمشكلات القائمة (ص ١٩٦) فإن في تقبل النقد ورسم ما فيه من سالب أو موجب هو أمر يقرّه الكاتب ولايلوم به الناقد .. ومن الموجب في هذا الكتاب :

١ ـــ جرأة الكاتب وصراحته وإخلاصه في عرض المشكلات وطرح الحلول لها ، والدعوة إلى سنّ قوانين تشجع كل من يعمل في عالم الصحافة للسير بالصحافة إلى الأمام ، سواء ما يتعلق بأمر الكاتب أو الناشر ، وسواء ما يتصل بأمر الكتابة أو الصحيفة .

٢ ـــ التوجه القومي الذي يدعو إليه لإقامة الجسور بين أقطار العالم العربي ، وذلك بالدعوة إلى صحافة عربية قومية متحررة تستطيع أن تنقل في الصحيفة اليومية أو المجلة الشهرية أو الفصلية الفكرة الصائبة التي تحمل مضموناً عربياً حراً من خلال المقالة الجيدة والإخراج المشوق واللغة الصحيحة السليمة .

٣ ـــ الإلحاح على أسلوب التعامل الصحيح بين الناشر والكاتب الذي يريح المجلة والكاتب في آن واحد .

٤ ـــ معالجة القضايا الصحفية اليومية من خلال الموضوعات أو عرض الكتب الأجنبية بما يجعل الكتاب من المراجع الأساسية التي يحتاج إليها كل من يمارس مهنة الكتابة ، وبخاصة الكتابة الصحفية « ككاتب أو محرر أو مخبر أو طالب في معهد للصحافة أو عامل في هذا الحقل من خلال النشر » .

٥ ـــ في عرض الكاتب للكتابين الأجنبيين « إعداد الخبر

الصحفي » و « كيف تكتب بحثاً علمياً وتنشره » ما يشوق إلى قراءة الكتابين بصورة كاملة ، وهذا هو الهدف الرئيسي من العرض ، إضافة إلى تدريب طالب الصحافة على أسلوب العرض والنقد والتعليق .

ويحسن الكاتب الفهد كل إحسان ، وهو الإنسان الذي آمن بالترجمة كتواصل حضاري يقتضي من المترجم براعة لغوية فائقة في كلتا اللغتين ، المترجم عنها والمترجم إليها ، واستطاع هو ذاته أن يصل إليها ويكتسب تلك المقدرة ، أن يترجم الكتابين ترجمة كاملة ، ليضيف إلى المكتبة العربية من ثمار الأقلام الأجنبية بلغة عربية صحيحة وسليمة ما من شأنه رفع مستوى الصحافة ، سواء منها اليومية التي تعتمد على الخبر أو الشهرية أو الفصلية ، في وقت تكاد المكتبة العربية تفتقر إلى هذا النوع من الكتب المعرّبة .

كذلك فإن عروض الكتب سواء أكانت عربية أم أجنبية عن تارخ الصحافة وعالمها الحالي ما يفيد ، حبذا لو يورد الكاتب في كتاب جديد عروضاً ودراسات لكتب أخرى في هذا الحقل ، بحيث يكون الكتاب القادم ثبتاً كاملاً لكتب عربية وأجنبية تحوي جل ما في عالم الصحافة .

وفي حديث الكاتب عن المؤسسات الصحفية في سورية ومهامها ما يفيد طالب الصحافة ، حبذا لو يكتب المؤلف كتاباً حول هذا الموضوع مع التقليل عن إيراد الأسماء .

وبعد ، فإذا ما التفتنا إلى السالب ــ برغمنا ــ لأن الكاتب أراد من النقد ألا يقتصر على الموجب واتهم النقاد بالمحاباة حين ينقدون ، وبالتزلف حين يعرضون الكتاب ، فإننا على الرغم مما وصفنا به الكاتب من جرأة وصراحة وإخلاص ، فإننا نرى أن المعالجة العاطفية غلبت على بعض موضوعاته فوسمتها بالمغالاة أو التسرع ، من ذلك ما جاء في تعريفه « للكاتب » وحرمانه دارس الأدب من هذا اللقب بجرة قلم منه ، لأنه يعتمد في كتابته على المصادر ، في حين لا يرى المؤلف أن في الاعتماد على المصادر الأدبية لكتابة البحث أي ابتكار ؟! كذلك فإن مقياسه العلمي للكاتب ليس مقياساً علمياً ولا دقيقاً ، بل هو رأي شخصي بحت .

ــ مشكلة إلزام الكاتب وعلاقته بالسلطة وفكرة الالتزام وحرية الكاتب موضوعات طالما تحدث عنها الكتاب والمفكرون وأدلوا بدلوهم فيها ، وهنا يوردها الكاتب مرتبطة بالصحافة مع قول يوسف إدريس : إن الحرية الممنوحة لجميع الكتّاب العرب في الوطن العربي لا تكفي لكاتب واحد .

قد تكون كتابته حقاً ، ولكن غلبة العاطفة والمغالاة عليها يجعلها باهتة التأثير .

ــ عدم مكافأة الكاتب على جهوده فكرة كررها المؤلف أكثر من ثلاث مرات ، ولكن حلّها على الرغم من خطرها لم يكن منطقياً .

ــ في حديثه عن الترجمة وتاريخها ــ على الرغم من أن البحث جيد ككل ــ تسرع وعدم دقة تاريخية .

ــ في مناقشته للكتاب الأجنبي « كيف تكتب بحثاً علمياً وتنشره » عدم تعمق ، والصحيح أن أي بحث علمي جاد إذا لم ينشر لا يمكن أن يفيد وأن يعرف ، ونشر البحث يعطيه قيمة ولا شك .

ــ في نهاية موضوع « الملفات » يحتاج إلى توسيع أكثر وتقليل من ذكر الأسماء مع الموضوعات المكتوبة .. ومع ذلك فلعل للكاتب في أسلوبه هذا بذكر الأسماء مايسوغه ــ وأنت تلوم ــ .

ــ في بعض الموضوعات استطرادات لا مجال لها ، تذكرنا باستطرادات المؤلفات القديمة كما في ص (٣٢) مثلاً .

ــ قد يورد الكاتب آراء شخصية فيها بعض ما يجرح ، كما جاء ذلك في حديثه عن مجلة المعلم العربية السورية ص (٣٦) .

ــ لم يتعرض الكاتب إلى العلاقة بين الكاتب والجمهور أو بالأحرى بين المحرر والجمهور ، في وقت تتدفق فيه الأنباء ويختل التوازن ، وهذا يذكرني باجتماع لجان اليونسكو في يوغوسلافيا منذ سنتين لبحث أمور الإعلام والأخبار منها بخاصة التي توجه للعالم سواء في الصحف أو الإذاعات ، وقد جاء أن وكالات الأنباء العالمية هي التي تسيطر على الأخبار في العالم ، فتقدم ما تشاء من خبر وتحجب ما تشاء ، وتجعل من مقتل جنديين صهيونيين في مكان ما خبراً عالمياً ينبغي أن يهز العالم ، وتهوّن من شأن مقتل آلاف بأيدٍ مجرمة آثمة ، فتورد الخبر وكأنه خبر تافه لا يستحق أن يقف القارىء أو المستمع أمامه .. إنه موضوع جديد وعلى من يود الحديث عن الصحافة أن يتطرق إليه بموضوعية ودون تسرع .

ــ في آراء الكاتب بعض تناقض ، ويبدو هذا في حديثه عن النقد ، فقد رآه في الصفحة (١٠) يقتصر على التملق ، بينما نرى رأياً مناقضاً لهذا في الصفحة (٦١) .

ــ من آرائه المتسرعة حديثه عن المقالات التي تُكْتَبُ لأصحاب النفوذ ص (١٨) .

وأخيرا ورغم كل ما ورد في باب السلبيات ، فالكتاب يضيف إلى عالم الصحافة مؤلفاً لا بد لكل طالب في معهد للصحافة من اقتنائه ، ولا بد لكل كاتب يود أن يخوض بحر النشر المتلاطم من الاطلاع عليه وعلى ما سبقه من كتب المؤلف ، ليعرف موطن قدميه ويسير في هدي على درب (صاحبة الجلالة الصحافة) ، كما أنه لا بد لكل من يصدر صحيفة أو مجلة من الاطلاع على السمات التي يجب أن تتوافر في المجلة العربية المعاصرة ، حتى يمكن أن تقوم

بدورها في التوجيه الفكري والثقافي والقومي .

وبعد ، فإن ما أورده الكاتب من دور الكتابة هو خير ما يختم به التعليق على هذا الكتاب وهو : « إن الكتابة عمل خلاق عظيم ورسالة إنسانية سامية ، وليس هناك ما يمكن أن يدفع صاحب هذه الرسالة إلى مواصلة الخلق والإبداع بدأب وجلد لا يقلان وعزيمة ماضية لا تفل ، سوى شعوره بأن الكتابة تحقق غاياته النبيلة في الحياة ، وتقيم جسراً بينه وبين قرائه بنقله لهم ما تزدحم به أعماقه من أفكار وتطلعات ودعوات خيرة » .

لقد آمن الكاتب بما قال ، وكتب ما آمن به ..

الرسائل الجامعية

أوقاف السلطان الأشرف شعبان بن حسين على الحرمين الشريفين

لراشد القحطاني

القحطاني ، راشد بن سعد/أوقاف السلطان الأشرف شعبان بن حسين علي الحرمين الشريفين ــ رسالة ماجستير بإشراف محمد فتحي يوسف الريس ــ الرياض : قسم التاريخ والحضارة بكلية العلوم الاجتماعية ــ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٦هـ ، ٢٨٢ ص .

السلطان الأشرف شعبان بن حسين (٧٥٤ ــ ٧٧٨هـ) هـ الذي تولى الحكم في مصر وله من العمر عشر سنوات ، وقتل وهو في الرابعة والعشرين من العمر .. اهتمّ بعمارة الحرم بصفة عامة . وقد أجمل الفاسي في العقد الثمين أعماله بقوله :

(فعل الأشرف بالحرمين مآثر حسنة ، وهي أنه قرر دروسا في المذاهب الأربعة ، ودرسا في الحديث وتصادير ، وقراء ، ومؤذنين وغيرهم ، ومكتبا للأيتام وأقام البيمارستان المستنصري بمكة . ووقف على ذلك وقفا كافيا ، وبعث ابن كلبك لعمارة مئذنة باب الحزورة ، وكانت قد سقطت سنة إحدى وسبعين وسبعمائة وفرغ من عمارتها سنة اثنين وسبعين ، وحلى باب الكعبة ، والميزاب ، وعمل ميضأة باب علي في سنة ست وسبعين وسبعمائة ، وعمرت في مبدأ دولته أماكن بالمسجد الحرام ، وأكمل المطاف بالحجارة المنحوتة ، وجدد المقامات الأربعة وعمل درجة للكعبة ، كانت الكعبة تفتح عليها إلى موسم سنة ثماني عشرة وثمانمائة ، وعمل منبرا ، وعوض صاحب مكة عن المكس الذي كان يؤخذ على الحجاج) .

وفي المقدمة يذكر الباحث الأسباب التي دعته لاختيار هذا الموضوع ، وهو أنه عثر على وثيقة قيمة محفوظة بدار الوثائق القومية بالقلعة بالقاهرة ، وهي حجة وقف مؤرخة في الثالث من جمادى الآخرة سنة سبع وسبعين وسبعمائة باسم السلطان الأشرف شعبان بن حسين ، وبها أسماء عدة قرى موقوفة يصرف من ريعها على الحرمين الشريفين . يبلغ طول الوثيقة نحو واحد وأربعين متراً وعرضها نحو ثلاثين سنتيمتراً . وجعل موضوعه دراسة هذه الوثيقة .

وقد قسم الباحث هذه الدراسة إلى تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة وملحق : ففي التمهيد عرّف الوقف ، وتناول آراء فقهاء المذاهب الأربعة فيه بإيجاز ، ثم تحدث عن تاريخ الوقف عند البابليين والمصريين القدماء والرومان وعند العرب قبل الإسلام ، ثم عن الوقف في الإسلام .

وفي الفصل الأول تناول موضوعين :

الموضوع الأول وفيه نبذة تاريخية عن أهم سلاطين المماليك البحرية قبل السلطان الأشرف شعبان ، وأشار إلى أعمال السلاطين الخيرية على الحرمين .

والموضوع الثاني تحدث فيه عن السلطان الأشرف شعبان تاريخياً من مولده ونشأته إلى الظروف التي دفعت به إلى الحكم ، وأهم أعماله على الحرمين والتي لم ترد في الوثيقة إلى أن توجه للحج .. ثم عودته للقاهرة وقتله .

أما الفصل الثاني فقد جعله للحديث عن القرى والأماكن التي أوقفها السلطان على الحرمين الشريفين كما جاءت في الوثيقة .

وذكر الباحث أنه بذل جهداً كبيراً في الاستدلال على هذه القرى التي زال بعضها وتحول بعضها إلى خرائب ، وتغيرت أسماء بعضها الآخر أو حرّفت عما كانت عليه ، وظل القليل منها محتفظاً باسمه القديم . وذكر أنه استعان بالخرائط الحديثة وكتب الجغرافية القديمة والحديثة حتى اهتدى إلى أغلب هذه الأماكن .

أما الفصل الثالث ــ والأخير ــ فقد تناول فيه أوجه الصرف من ريع وقف السلطان على الحرمين الشريفين وعلى غيرهما مما يتصل بالحج والحجاج ، كما جاءت في الوثيقة . وقد درس موضوعات هذا الفصل في أربعة أقسام تفصيلية .

كما ألحق بالكتاب الوثائق والمصادر والخرائط . وفي الخاتمة لخّص نتائج ما توصل إليه في بحثه هذا منها :

- بذل سلاطين المماليك البحرية جهودا خاصة في رعاية الحرمين الشريفين وتعميرهما وتجديدهما ، فأنشأوا المنابر وجددوا الجدران والمنائر واعتنوا بنظافتهما والحفاظ على مظهرهما في نظر المسلمين .
- اهتم السلطان الأشرف شعبان بالحرمين أكثر ممن سبقه من سلاطين المماليك فأوقف عدة قرى في بلاد الشام وفلسطين للصرف من ريعها على الحرمين الشريفين وكان الهدف من هذا ألا ينقطع الصرف عليهما بوفاته .
- أن السلطان شعبان حاول أن يخفف العبء عن كاهل الفقراء والحجاج وذلك بإلغاء المكوس التي كان يفرضها أميرا مكة والمدينة على المأكولات والملبوسات وما يحصل من العشور على النخيل والمزروعات ، وفي مقابل هذا قرر مبلغ مائة وستين ألف درهم لأمير مكة ومائة ألف لأمير المدينة .
- أنشأ السلطان الأشرف شعبان مارستانا جديدا في مكة المكرمة قرر له كل ما يحتاج إليه من حكيم وممرضين وممرضات وأدوية وأشربة ونفقات جارية أخرى .
- اهتم السلطان شعبان بإحياء علوم الحديث والتدريس في الحرم المكي والمسجد النبوي ، فقرر المحدثين والعلماء الذين يلقون الدروس كما جرت العادة آنذاك . وحدد عدد طلبة الحديث الذين يدرسون على علماء المذاهب ، كما عين مؤدبا لتعليم عشرة من الأيتام حتى لا ينقطع العلم ، ويستمر في مسيرته التي سار عليها منذ بدأ علم الحديث وروايته خاصة في الحرمين الشريفين .

سابق البربري والاتجاه الإسلامي في شعره

لشادية زيني

زيني ، شادية حسن/سابق البربري والاتجاه الإسلامي في شعره .ـ رسالة ماجستير .ـ مكة المكرمة : كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى ، ١٤٠٥ هـ .

أرادت الباحثة أن تجعل من موضوعها هذا سبيلاً للرد على زعم القائلين بضعف التأثير الإسلامي في الشعر ، ورداً على اتهام الشعر الإسلامي بالضعف والجمود والاقتصار على التقليد المحض والاقتباس الحرفي من القرآن الكريم أو الحديث الشريف . وقد رأت في شعر سابق البربري مقومات قوية للرد على هذه الاتهامات ، فقد كان شعره وقفاً على الوعظ والتزهيد والحكمة والأمثال ، وهو شاعر أموي يعكس شعره قوة تأثير الإسلام فيه ، ومساره يختلف عن الاتجاهات التي سادت في عصره ، ثم إنه شاعر مجهول لم يلق حظاً وافراً من عناية الدارسين قديماً أو حديثاً .

وقد استقرَّ هذا البحثُ في أربعةِ أبوابٍ تسبقُها مقدمةٌ وتتلوها خاتمة .

ففي الباب الأول : حاولت الباحثة وضْعَ تصوُّرٍ عام لشخصيةِ هذا الشاعرِ وحياته ، فقسَّمت هذا البابَ إلى ثلاثةِ فُصول، خصصت الفصلَ الأولَ منها لشخصيته ، فعرَّفت باسْمِه وكُنْيته ونَسبه ، وحاولتْ تحديدَ سنةِ مولِدِه وبيئتِه ووفاتِه ، وفيما بين المولِد والوفاةِ تعرَّضت لأخبارِه في صِلَتِه بعمرَ بنِ عبد العزيز وصِلَته بشعراء عصرِه .. وجعلتْ الفصلَ الثانيَ منها : للحديثِ عن حياته العلمية ، فتحدثت عن المكانة العلمية والمنهج التعليمي والبيئة الدينية والأدبية في الشام في عصره ، وعن تحصيلِه العلمي ، وشيوخه وتلاميذه ، وروايته للحديث . ثم ختمت هذا البابَ بفصلٍ خاصٍ عن الزهدِ في القَرْنِ الأولِ الهجري ، وهو القرنُ الذي ثَبَتَتْ لشاعرِنا أخبارٌ فيه .

وفي البابِ الثاني : حاولت جمعَ شعره ، وتحقيقَه ، وتخريجَ رواياته من بطونِ الكتبِ المتنوعةِ ، فقسمت البابَ إلى فصلين ، خصصت الأولَ منهما لجمع الشعرِ وتخريجه في مصادرِه المتنوعة ، محاولَةً صُنْعَ ديوان شعر لسابق البربري ، وقد فرقت في هذا الديوانِ بين الشعرِ الذي ثَبَتَتْ نسبتُه إلى سابق البربري ، والشعرِ المنسوبِ إليه وإلى غيره ، والشعرِ الذي وقعَ في ظنها أنه لسابقِ البربري . وجعلت الفصلَ الثانيَ منهما لدراسةِ المَصادرِ التي جمعت منها شعر سابق .

وفي البابِ الثالثِ : حاولت دراسةَ شعرِ سابق البربري دراسةً فنيةً موسعةً ، فقسَّمْت هذا البابَ إلى ستةِ فصولٍ ـ قد تطولُ أو تَقْصُر ـ بحيثُ جعلت الفصلَ الأولَ دراسةَ الألفاظِ ، والثانيَ لدارسةِ الظوهرِ الأسلوبيةِ البارزةِ في شعره ، فقسمته إلى ستة مباحثَ ، خصَّصت كلَّ مبحثٍ لظاهرةٍ أسلوبيةٍ برزتْ في شعرِه . بحيثُ كانَ الأولُ خاصاً بالأساليبِ الإنشائيةِ ، والثاني لدراسةِ طريقةِ الاستدلالِ ، والثالثُ لأسلوبِ الخطابِ ، والرابعُ لظاهرةِ التكْرارِ ، والخامسُ لدراسةِ استعمالِ قَدْ ، والسادسُ والأخيرُ كان لدراسةِ أسلوبِ القصرِ بإنما . أما الفصلُ الثالثُ في هذا البابِ فخصصته لدراسةِ الصورِ البيانيةِ في شعرِه ، فدرست فيه التشبيهَ والاستعارةَ . والفصلُ الرابعُ كانَ لدارسةِ الصنعةِ البديعيةِ في هذا الشعرِ ، فدرست فيه الطباقَ والمقابلةَ ، الجناسَ ، وردَّ العَجُزِ على الصدر ، ومراعاةَ النظير . وفي الفصلِ الخامسِ درست الوزنَ والقافيةَ في شعرِ سابقٍ ، بحيثُ قسَّمت هذا الفصلَ إلى مَبْحثين : أولَهما لدارسةِ أوزانِ الشاعرِ وزحافاته ومناسبةِ هذه الأوزانِ لمعانيه ، والآخَرُ : لدراسةِ قوافيهِ ومناسبةِ هذه القوافي لمعانيه . وفي الفصلِ السادسِ والأخيرِ من البابِ الثالثِ درست افتتاحياتِ قصائد سابقِ البربري .

وفي البابِ الرابعِ والأخيرِ حاولت دراسةَ الاتجاهِ الإصلاحي في شعرِ سابقٍ ، حيثُ درست هذا الشعرَ من الوِجْهةِ الدينيةِ في ظلِّ ما أُشيعَ عن هذا الشعرِ الديني من مزاعمَ خاطئة .

وقد قسمتْ هذا البابَ إلى أربعةِ فصولٍ ، بحيثُ كان الفصلُ الأولُ لدراسةِ الأغراضِ التي قامَ عليها شعرُ سابقِ البربري ، والفصلُ الثاني لدراسة أثرِ القرآنِ الكريمِ والحديثِ الشريفِ في شعرِه ، والفصلُ الثالثُ لدراسةِ قضيةِ ضَعْفِ الشعرِ في الإسلامِ ، والفصلُ الرابعُ لدراسةِ شعرِ سابق في ضوءِ قضيةِ الالتزام .

وقد تَلَتْ هذه الأبوابَ الأربعةَ خاتمةٌ لخصتْ فيها بإيجازٍ أهمَّ النتائج والتوصياتِ التي خَرجتْ بها من هذا الجهد .

وأهمُّ هذه النتائج والتوصيات هي :

١ ـ التفريقُ بين سابق بن عبدِ اللهِ الرَّقي ، وسابقِ بن عبدِ اللهِ البربري الذي هو شاعِرُنا .

٢ ـ تحديدُ تاريخ مولِد الشاعرِ بالتقريبِ في النصفِ الثاني من القرنِ الأولِ ، ووفاتِه في النصفِ الأولِ من القرنِ الثاني الهجري .

٣ ـ إثباتُ أنَّ للشاعرِ ديوانَ شعرٍ مجموع كان معروفاً حتى القرن السادس الهجري ، ولعلَّه يظهرُ في المستقبلِ إن شاءَ اللهُ .

٤ ـ بيانُ التزامِ سابقٍ بالمنهجِ الإسلامي في شعره ، الأمْرُ الذي جعلَ شعرَه محصوراً في نطاقِ الخيرِ ، حيث كانت أغراضُه متقاربةً تقتصرُ على الزهد والمواعظِ والحكمةِ والأمثالِ ، مما جعلَ سابقاً البربريَّ الشاعرَ الجديرَ بأن يُسمى شاعرَ الزهد والمواعظِ ، بحيثُ يسبقُ بهذا الاسمِ أبا العتاهيةِ شاعرَ العصرِ العباسي المسمى بشاعرِ الزهدِ .

٥ ـ بيانُ تأثُّرِه بالقرآنِ الكريمِ والحديثِ الشريف تأثراً عاماً شمِلَ المعانيَ والألفاظَ ، والصورَ والتراكيبَ ، والصورَ البيانية ، مما يدلُّ على أنَّ القرآنَ الكريمَ والحديثَ الشريفَ هما المصدران الأساسيان للشعرِ الملتزمِ بالنهجِ الإسلامي .

٦ ـ تأكيدُ عدمِ صدقِ مقولةِ ضعفِ الشعرِ المتجهِ إلى الخيرِ ، أو ضعف الشعرِ الملتزمِ بالنهجِ الإسلامي ، ذلكَ أن الشعرَ لا يقوى في بابٍ مخصوصٍ من المعاني ، ويضعُفُ في آخر ، وإنما مردُّ قوةِ الشعرِ أو ضعفِه يرجعُ إلى صدقِ موهبةِ الشاعرِ وصفاءِ طبعه ، ونضجِ شاعريته . بل إن التزامَ الشاعرِ بالمنهجِ الإسلامي في شعرِه داعٍ إلى تميزِه وتفردِه .

أما التوصياتُ التي خرجتْ بها هذه الدراسة فهي :

١ ـ التوصيةُ بزيادةِ الاهتمامِ بدراسةِ مادةِ أدبِ الدعوةِ الإسلاميةِ في كليةِ اللغةِ العربيةِ ، بحيث تكونُ مادةً ضروريةً في كلِّ المستويات ، مع توسيع مجالِ الدراسةِ فيها ، بحيث تُعنى بجمعِ الشعرِ الإسلامي المتناثرِ في بطونِ الكتبِ وتحقيقِه ودراستِه . إذ هو غرضٌ أساسي من أغراضِ الأدبِ العربي ينبغي الاهتمامُ به ،

وتحقيقُ غاياتِه .

٢ ــ التوصيةُ بالتعمُّق في دراسةِ أدبِ الدعوةِ الإسلاميةِ ، بحيثُ لا يُكْتَفى بنماذجِ صدرِ الإسلامِ المعروفةِ ــ أي بالشعرِ المنافحِ عن دعوةِ رسولِ الله ﷺ ــ بل إنّ أدبَ الدعوةِ في حقيقتِهِ تعبيرٌ عن تأثرِ الشاعرِ المسلمِ بمبادىء الإسلامِ السمحةِ خلالَ العُصورِ المتعاقبةِ ، وينبغي توجُّهُ جهودِ الباحثينَ في الأدبِ الإسلاميِّ إلى هذه الغايةِ الكريمة .

المخلاف السليماني تحت حكم الأدارسة

لأميرة علي المداح

المداح ، أميرة علي/المخلاف السليماني تحت حكم الأدارسة ــ رسالة دكتوراه بإشراف محمد عبد اللطيف البحراوي ــ مكة المكرمة : قسم التاريخ ، جامعة أم القرى ، ١٤٠٦هـ ، ٧٤٨ ص .

تقول الباحثة إنها التزمت في كتابة هذه الأطروحة طريقة منهجية للرد على كل ما كتب خطأ عن الدولة العثمانية ، إذ إن تاريخ هذه الدولة تعرض كثيراً للتشويه من جانب الاستعمار ، إلى جانب الجهل باللغة التركية والاقتصار على الاطلاع على ما كتبه الغربيون .

أما فترة البحث فقد امتدت منذ وصول السيد أحمد بن إدريس للمخلاف السليماني ، إلى انضمام المخلاف السليماني وعسير مع سائر أجزاء البلاد الأخرى للمملكة العربية السعودية ، لأن ذلك أدى إلى تنقية المخلاف والمنطقة كلها من كل طامع ، بالإضافة إلى ظهور صحوة فكرية واجتماعية واقتصادية جديدة في تلك المنطقة بعد توحيد المملكة العربية السعودية .

وقد اعتمدت على كثير من الوثائق والمخطوطات والدوريات والمذكرات والكتب الحديثة والجرائد اليومية التي ظهرت أثناء تلك الفترة .

أما خطة الأطروحة فهي كالتالي :

المقدمة :

تناولت فيها التعريف بالمخلاف السليماني وحدوده ، ثم انتقلت منها إلى دراسة التضاريس والمناخ ، لما له من أثر على أهل المخلاف ، ولأهمية الجغرافيا بالنسبة للتاريخ وخاصة في العصور الحديثة ، وأوضحت أهمية موقع المخلاف بالنسبة لشبه الجزيرة العربية والقوى المجاورة له .

الفصل الأول :

تعرضت فيه للطريقة الأحمدية وكيف فرضت نفوذها في المخلاف السليماني على يد السيد أحمد بن إدريس ، مع بيان الأوضاع التي كان عليها المخلاف قبل وصول أحمد بن إدريس إلى صبيا ، لتصل إلى أن الفوضى والاضطراب وانعدام الأمن في المنطقة بالإضافة إلى الفساد العقـدي كان إرهاصاً لقبول أهل المخلاف لهذه الطريقة ، فاستطاع الأدارسة بذلك أن يفرضوا وجودهم في المخلاف ، وأن تصلح أموره ، وبذلك وضعت البذرة الأولى لإقامة إمارة إدريسية في المخلاف السليماني .

الفصل الثاني :

تناولت فيه حياة المؤسس الحقيقي لهذه الإمارة وهو السيد محمد بن علي الإداريسي ، وقد فصلت عن نشأته ورحلاته لما لها من أثر في حياته المستقبلية في المخلاف السليماني ، وتميز شخصيته عن غيره من الأدارسة . إذ إنه استطاع أن يلم شمل القبائل المتفرقة ، ويأخذ البيعة منها ، ثم عقد حلقات النصح والإرشاد بينهم ، فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ، لإيمانه أن النظم السياسية يجب أن ترتكز على العقائد ، لذلك حاول بشتى الطرق القضاء على الفتن ليتمكن من قلوب الناس تمهيداً لخروجه على العثمانيين ، ثم تتبعت الطرق التي اتخذها لتقوية مركزه إدارياً واقتصادياً ، فكان اتحاده مع إمام اليمن ، ذلك الاتحاد الذي تجمعه المصلحة المشتركة حينئذ ، وهو الوقوف في وجه الدولة العثمانية ، وتمكن بالفعل من الانتصار على العثمانيين في موقعة الحفاير ، مما اضطر الدولة العثمانية إلى إرسال شريف مكة لمناوأة الإدريسي وفك حصار أبها ، وبالتالي قامت ثورة في المخلاف السليماني متزامنة مع أخرى في اليمن ضد الدولة العثمانية في ذلك الحين ، ووجدت الدولة العثمانية نفسها مضطرة لعقد صلح مع الإمام يحيى ، وهو صلح دعان سنة ١٣٢٩هـ = ١٩١١م لكنها لم تعقد صلحاً مثله مع السيد محمد بن علي الإدريسي لاعتقادها أنه دخيل على المنطقة وليست له جذور تاريخيه فيها ، فلا بد من اقتلاعه منها ، وذلك عكس الإمام يحيى الذي ترك حليفه بالأمس بعد عقد الصلح ، ووجد الإدريسي نفسه وحيداً خارج الحلقة ، فاضطر إلى الاتصال بالايطاليين .

الفصل الثالث :

تناولت « العلاقات الخارجية للمخلاف السليماني تحت حكم الأدارسة » مع دراسة كاملة عن الاستعمار الإيطالي والتكوين الأوروبي في عصر الاستعمار للوصول إلى أهداف الايطاليين من الاتصال بالسيد محمد بن علي الإداريسي ، ومحاولة إنعاش موانئه ، وبينت كيفية الاتصال ونتائجه ، ذلك الاتصال الذي أدى إلى نمو التجارة بين موانىء المخلاف السليماني وموانىء ارتيريا المواجهة له ، فانتعش بذلك ميناء جيزان بعد أن سدت جميع الموانىء العربية خلال الحرب الايطالية ــ الليبية وبعدها الحرب العالمية الأولى ، وبعد احتلال ايطاليا لطرابلس وخروج العثمانيين منها ، انتهى غرض ايطاليا من تدعيم السيد محمد بن علي الإداريسي ، فتركوه وحيداً . وعندما بحث عن صداقة أخرى ، وجد انجلترا مرحبة حيث عقد معها معاهدة ١٣٣٤ هـ = ١٩١٥م ، ثم جددها في ١٣٣٦ هـ = ١٩١٧م ، وأدت إلى امتداد أملاك الإدريسي في الحدود اليمنية وتسلمه الحديدة من الإمام يحيى حميد الدين ، وكان ذلك ذروة ما وصلت إليه الإمارة الإدريسية في المخلاف السليماني .

الفصل الرابع :

قدمت فيه دراسة عن الحالة الداخلية في المخلاف بعد وفاة محمد بن علي الإدريسي ، إذ أصيبت الإمارة بالانهيار إثر وفاة السيد محمد بن علي الإدريسي ، ويرجع ذلك لصغر سن ابنه الذي تولى الإمارة من بعده ، فكان قليل الخبرة بالشئون الإدارية ، فعزل وزراء والده ، بالإضافة إلى وجود طامعين في الإمارة أمثال عمه مصطفى الإدريسي وغيره ، وقد بينت كيف استغلت انجلترا في عدن وإيطاليا في مصوع ذلك لأخذ مناطق استراتيجية مهمة تابعة للمخلاف في جزيرتي كمران وفرسان ، وما أدى إليه ذلك من عقد معاهدة مكة ١٣٤٥ هـ = ١٩٢٦م .

الفصل الخامس :

كان الحديث عن الملك عبد العزيز رحمه الله والمخلاف السليماني ، فلا بد من إعطاء فكرة عن دعوة التوحيد والإصلاح وصاحب الدعوة ، وإلقاء الضوء على كيفية دخولها للمخلاف السليماني ، مما أدى إلى ضم عسير إلى نجد في ١٣٣٨ ــ ١٣٤٠ هـ = ١٩٢٠ ــ ١٩٢٢ م ، إثر صدور البيان السعودي الإدريسي بين الإمام عبد العزيز والسيد محمد بن علي الإدريسي ، ومن ثم تم تحديد حدود المخلاف بينهما ، ثم انتقلت إلى انتهاز الإمام يحيى انشغال الإمام عبد العزيز آل سعود بضم الحجاز ليوسع مملكته على حساب الأدارسة ، ثم بينت أهمية عقد معاهدة مكة في القضاء على تلك الأطماع ، كما كان لهذه المعاهدة أهمية خاصة بالنسبة للدول الأوروبية المسيطرة على البحر الأحمر في ذلك الحين ، وهي انجلترا وإيطاليا ، ومن ثم كانت اتفاقات روما ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧ م خوفاً على مصالحهما الحيوية في البحر الأحمر .

الفصل السادس :

تناولت فيه « نهاية الأدارسة وتثبيت النصر للملك عبد العزيز » وذلك بعد أن ناقشت حادثة العرو وثورة ابن رفاده وصلتها بالأدارسة ، ثم ما كان من مشكلات الحدود ، ومشكلة نجران ، ومشكلة الأدارسة . فكان عقد مؤتمر أبها الذي أدى فشله إلى قيام الحرب السعودية اليمنية ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م والتي انتهت بمعاهدة الطائف التي أنهت مشكلة الأدارسة في منطقة المخلاف ، وبانتهائها توفرت كل وسائل إدماج المخلاف السليماني في المملكة العربيةالسعودية وقطع كل خيط يربط الأدارسة به ، وأغلق المخلاف وعسير في وجه المطامع الأوروبية والمنافسة الاستعمارية بل والمطامع الإمامية .

وفي الخاتمة :عرضت تحليلا تاريخياً ختامياً للموضوع وفترته الزمنية ، وأظهرت مدى أهمية المعاهدات التي عقدت والنتائج المترتبة عليها ، وموقف الدول العربية والأوروبية منها ، ومن أهمها معاهدة مكة ومعاهدة الطائف ، ولم تهمل النتائج الثقافية والاقتصادية والإدارية والعسكرية في عهد الأدارسة وما طرأ عليها من انضمام المخلاف السليماني وعسير في المملكة العربية السعودية .

نظام الملك ودوره في الازدهار الحضاري للدولة السلجوقية

لعبد الرحمن السنيدي

السنيدي ، عبد الرحمن علي/نظام الملك ودوره في الازدهار الحضاري للدولة السلجوقية ٤٥٦ ــ ٤٨٥ هـ = ١٠٦٣ ــ ١٠٩٢ م .ــ رسالة ماجستير بإشراف محمد مسفر الزهراني ومحمد فتحي الريس .ــ الرياض : قسم التاريخ والحضارة بكلية العلوم الاجتماعية ــ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٦ هـ ــ ١٩٨٦م ، ٢٥٧ ص .

كان لقيام الدولة السلجوقية واتساع نفوذها آثار حسنة على مستوى العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري ، فقد حمت العالم الإسلامي من أخطار كثيرة داخلية وخارجية ، فأنقذت الخلافة العباسية من السقوط الوشيك بيد الفاطميين ، وحاربت التيارات الباطنية الهدامة في إيران والعراق ، كما حمل السلاجقة راية الجهاد الإسلامي في آسيا الصغرى وما وراء النهر ، وكذلك كان لهذه الدولة دور هام في تعزيز المذهب السني في العالم الإسلامي وإنشاء المدارس والمكتبات ، وقد تولى وزارتها خلال الفترة من عام ٤٥٦ هـ = ١٠٦٢م إلى عام ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢م الوزير الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي ، المشهور بلقبه (نظام الملك) وكان هو القابض على زمام الأمور في الدولة السلجوقية في عهدي السلطانين ألب أرسلان وملكشاه ، وبفضل جهوده حدث الازدهار الحضاري في الدولة السلجوقية ، فقد اتخذ أثناء وزارته إجراءات إصلاحية في المجالات الإدارية والاقتصادية استهدفت تقوية جهاز الإدارة وتنمية موارد الخزينة السلجوقية واستحدث أنظمة جديدة .

وقد قسم الباحث هذا البحث إلى أربعة فصول . تناول في الفصل الأول قيام الدولة السلجوقية واتساع نفوذها ، فتحدث عن ظهور السلاجقة والصراع بينهم وبين الغزنويين وقيام الدولة السلجوقية واتساع نفوذها في المشرق الإسلامي .

ثم تناول الوزارة في الدولتين البويهية والغزنوية ، لأن السلاجقة أقاموا دولتهم على بلاد كانت تابعة للغزنويين والبويهيين ، كما استفادوا ــ أي السلاجقة ــ من نظم الدولتين السياسية والإدارية .

ثم تناول الوزارة في الدولة السلجوقية قبل نظام الملك ، موضحاً دور وزراء هذه المرحلة في رسم سياسات الدولة .

وخصص الفصل الثاني لدراسة حياة نظام الملك وسيرته موضحا مولده ونشأته وثقافته ومكانته العلمية ، وتوليه الوزارة للدولة السلجوقية وعلاقته بالسلطانين ألب أرسلان وملكشاه ، وكذلك تناول علاقته بالخلافة العباسية .

وفي الفصل الثالث قام بدراسة سياسات نظام الملك الإدارية والاقتصادية خلال توليه الوزارة، وقد وضح سياساته في مجالات إدارية متعددة ، كالولاية على الأقاليم والدواوين ، كما درس في هذا الفصل موارد الدولة السلجوقية في تلك الفترة لإعطاء صورة عن الوضع المالي للدولة السلجوقية خلال وزارة نظام الملك ، كما تناول نظام الإقطاع في الدولة السلجوقية موضحا محاولات نظام الملك التي استهدفت القضاء على مساوىء هذا النظام .

وفي الفصل الرابع ، تناول الحياة العلمية والفكرية في عهد نظام الملك ، وتطرق إلى المدارس النظامية باعتبارها أهم مظاهر النهضة العلمية آنذاك ، ووضح أثر المدارس في النهضة العلمية ، ثم تناول موقف نظام الملك من التيارات الفكرية والمذهبية ومحاربته للفكر الباطني ، وتناول في هذا لفصل أيضاً تشجيع نظام الملك للعلم وعلاقته بكبار علماء عصره ، حيث أنفق بسخاء على العلم وطلابه ، ثم تطرق إلى « كتاب نظام الملك » مقارنا إياه بكتابي : « قابوسنامه » للأمير كيكاوس بن اسكندر و « التبر المسبوك في نصيحة الملوك » للإمام الغزالي .

وفي الخاتمة يذكر الباحث النتائج التي توصل إليها نذكر منها :

١ — أسهم نظام الملك في نشر السنة النبوية من خلال الدروس التي كان يلقيها في مجالسه في عدد من المدن السلجوقية ، وذلك رغم توليه منصب الوزارة وتحمله مسؤوليات كبرى .

٢ — قام نظام الملك بتحديد مدة ولاية كل والٍ على إقليمه ، ورأى أن تقوم الدولة بتبديل الولاة ونقلهم من مكان إلى آخر كل سنتين أو ثلاث ، لأن الوالي إذا بقي في الولاية مدة طويلة ، عمل على ترسيخ نفوذه ، وقد يجره ذلك إلى الاستقلال ومنازعة الحكومة المركزية .

٣ — طبقت الحكومة السلجوقية أثناء وزارة نظام الملك ، نظام الإقطاع على نحو واسع ، فمنحت ولايات وأقاليم بأكملها على سبيل الإقطاع ، ولهؤلاء الأمراء حكم ولاياتهم المقطعة وإدارتها وتصريف شؤونها ، كما منحت الإقطاعات لجزء من جنود الجيش السلجوقي مقابل الخدمة العسكرية ، وساعد هذا النظام على إنعاش الحياة الزراعية وزيادة دخل الدولة من الأراضي الزراعية ، كما قلل من الأعباء الإدارية والمالية على الحكومة المركزية ، كما أسهم هذا النظام في حل مشكلة تأمين الإمدادات الغذائية للجيش السلجوقي .

٤ — أسس نظام الملك المدارس التي حملت اسمه .. في مدن وبلدان الدولة السلجوقية ، وتعد هذه المدارس من أوائل المدارس المنظمة ظهوراً في تاريخ الإسلام .

ومما أظهرته هذه الدراسة أن نظام الملك كان يشرف بنفسه على هذه المدارس كلما سمح له الوقت بهذا ، فيختار لها المدرسين وينفق عليها ، وان المدرستين النظاميتين في كل من بغداد ونيسابور كانتا المدرستين الرئيسيتين من بين المدارس الأخرى ، وقد درس بهما وتخرج منهما خيرة علماء ذلك العصر والعصور التالية حتى انتهاء الخلافة العباسية وأمدتا المدارس الأخرى بالمدرسين . ويرى الباحث أن المواد التي كانت تدرس في هذه المدارس هي العلوم الشرعية بمختلف تخصصاتها ، وكذا النحو والأدب العربي ، أما العلوم الأخرى فلم تكن تدرس في هذه المدارس ، وكان المدرسون على درجات مختلفة ، فمنهم من يعتبر المدرس الأول في المدرسة ويقوم بإدارة المدرسة إضافة إلى إلقاء الدروس ، وهناك مدرسون يقتصر دورهم على إلقاء الدروس ، كما أن هناك معيدين ووعاظاً ومشرفين على خزائن الكتب التي ألحقت بالمدارس النظامية .

٥ — كان لهذه المدارس أثر في إنعاش الحركة العلمية في ذلك العصر ، وظهر ذلك جليا في إقبال الطلبة على الدراسة بهذه النظاميات ، الأمر الذي يعني ازدياد أعداد المتعلمين في المجتمع ، كما ظهر هذا الأثر في كثرة المؤلفات الفقهية واللغوية التي ألفها علماء النظاميات وخريجوها .

٦ — حرص نظام الملك على اتباع سياسة متوازنة مع كل المذاهب الصحيحة السائدة في الدولة السلجوقية ، مع تأييده ودعمه للمذهب الشافعي، وأظهر عداءه لمذهب الباطنية الإسماعيلية الذين كان يتزعمهم في عهده الحسن بن الصباح .

واحة القطيف ، دراسة في الجغرافيا الإقليمية

لعبد الله الحميدي

الحميدي ، عبد الله بن عبد العزيز/واحة القطيف ، دراسة في الجغرافيا الإقليمية .— رسالة ماجستير بإشراف عبد الفتاح محمد وهيبة .— الرياض : قسم الجغرافيا بكلية العلوم الاجتماعية — جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٦ هـ ، ٣٤٣ ص .

تقع واحة القطيف في منطقة متوسطة من الساحل الشرقي للمملكة العربية السعودية ، بين ما يعرف بـ « بر الجبيل » في الشمال و « بر الظهران » في الجنوب ، وبين الخليج العربي في الشرق ونفود البيضاء في الغرب .

وهدف هذه الدراسة هو إبراز صورة توضح الشخصية الجغرافية للواحة كإقليم . ويتعرف من خلالها على إمكانات الإقليم ومشكلاته .

وتضم هذه الدراسة مقدمة وثمانية فصول وخاتمة ، إلى جانب قوائم المحتويات والمصادر (والمراجع) والجداول والخرائط (والأشكال) والصور ، وقد خصت الفصول الثلاثة الأولى بدراسة البيئة الطبيعية، فالفصل الأول كان خاصا بالتركيب الجيولوجي وبالظاهرات الجيومورفولوجية ، والفصل الثاني خاص بالمناخ ، والثالث جمع بين التربة وموارد المياه .

بينما شمل الحديث عن البيئة البشرية الفصول الخمسة الباقية . ففي الفصل الرابع درس السكان من حيث الحجم والخصائص والتوزيع . وفي الفصل الخامس كان الحديث عن النشاطات الاقتصادية ، وكان التركيز على الزراعة النشاط الرئيسي بالواحة . أما الفصل السادس فقد كان الحديث فيه عن النقل والمواصلات (النقل البري والبحري وغيرهما) على حين خص الفصل السابع ببحث السكن في الواحة سواء الريفي أم الحضري .. والفصل الثامن يخص الحديث عن مستقبل الواحة المنظور من خلال خطط التنمية . أما الخاتمة فقد حوت نتائج البحث والتوصيات التي خرجت بها الدراسة .

وقد توصل الباحث إلى نتائج عديدة في بحثه هذا ، نذكر منها :

— تتوفر بالواحة الإمكانات المائية اللازمة للزراعة ، فهناك طبقتا العلاة والخبر اللتان تستخدمان في معظم جهات الواحة ، إلى جانب طبقة أم رضمة التي تشكل احتياطياً ضخماً للمناطق الزراعية في غرب الواحة .

— تنشط حركة الهجرة بين مراكز السكن بالواحة ، كما تنشط الهجرة من الواحة إلى المناطق البترولية خارجها .

— تزيد في الواحة حالات الإجهاض والإسقاط والمواليد والأموات ، كما تزيد

وفيات الأطفال الرضع ، وذلك راجع لانتشار الأمراض التناسلية المعدية ، ولوجود بعض الأمراض الوراثية مثل الأنيميا المنجلية الناتجة عن أسباب ، من أهمها المداومة على التزاوج من الأقارب .

— يتركز السكان في المنطقة الساحلية من الواحة ، وذلك بسبب توفر الصيد البحري والأرض الصالحة للزراعة والمياه اللازمة لها ، لكن ملامح الصورة التوزيعية تحددها عوامل أخرى أهمها : توزيع العيون الطبيعية ، وكذا توزيع التلال الصغيرة التي يتجمعون فوقها .

— أدى ظهور البترول إلى تقلص النشاط الزراعي ، وإلى ظهور نشاطات الخدمات والصناعات الاستخراجية والتحويلية ومنافستها للزراعة . كما أثر ذلك على البنية الاجتماعية . فمثلاً ارتفعت السن الوسطية للزواج .

— تتوفر أهم مقومات الإنتاج الزراعي ، ومع ذلك فالزراعة تعاني من كثير من المشكلات . فالتربة فقيرة في المواد العضوية وعالية الملوحة ومعظمها من الأراضي الغدقة . والمياه رغم وفرتها تشكل مشكلة في استخدامها استخداماً سيئاً ، سواء في نظام الري أم في كميته أم في توزيع آبار الماء .

— تغطي أشجار النخيل ما يقرب من نصف مساحة الأرض الزراعية ، وتعاني أشجار النخيل بالواحة من مشكلتين هما : تناقص أعدادها وضعف إنتاجها ورداءته .

— يعاني المزارعون من مشكلة تسويق الإنتاج الزراعي ، فهذه العملية ما تزال غير منظمة ، ولا تقوم على الإلمام بحركة العرض والطلب ، ولا بحركة الأسعار ، مما يؤدي إلى ضعف العائد الاقتصادي للزراعة .

وفي نهاية بحثه ذكر عدداً من التوصيات منها :

— ضرورة الاهتمام بمحطات الرصد والتأكد من دقة عملها حتى يمكن الإفادة من بياناتها في دراسة المناخ على مدى السنين .

— نجمت أهم مشكلات الزراعة عن الإسراف في استخدام مياه الري ، حتى إن الكمية المستخدمة في الري تزيد عن ضعف الحاجة الفعلية ، وهذا مما أضرّ بالأرض الزراعية . ويهدد بغزو مياه البحر للخزانات الباطنية . وبترشيد استخدام المياه يمكن زيادة الرقعة الزراعية إلى ضعف مساحتها بكمية المياه المستخرجة ذاتها . كما يمكن توفيرها في باطن الأرض وتجنب الأضرار التي تلحقها بالأرض الزراعية .

— توجيه أنظار المختصين لدراسة الينابيع البحرية وإمكانية الإفادة من مياهها في إمداد الواحة بمياه الشرب خاصة ، وأنه يوجد عدد منها حول سواحل الواحة .

— ضرورة تدريب الباحثين التدريب الكافي قبل بداية الحصر مع عمل تقييم لنتائج الحصر .

— معظم أشجار النخيل بالواحة من تلك التي قد يصل عمرها إلى مائة عام . وهذه غالباً ما يضعف إنتاجها، وتكون خدمتها مكلفة أكثر من غيرها . فلذلك من الضروري توجيه المزارعين إلى غرس فسائل جيدة بين هذه الأشجار الطويلة ليمكن إزالتها بعد بداية الجديدة في الإنتاج . كما أن معظم المزارع تزدحم بأشجار النخيل مما يتطلب وضع خطة للتخفيف منها بغية تحسين إنتاجها .

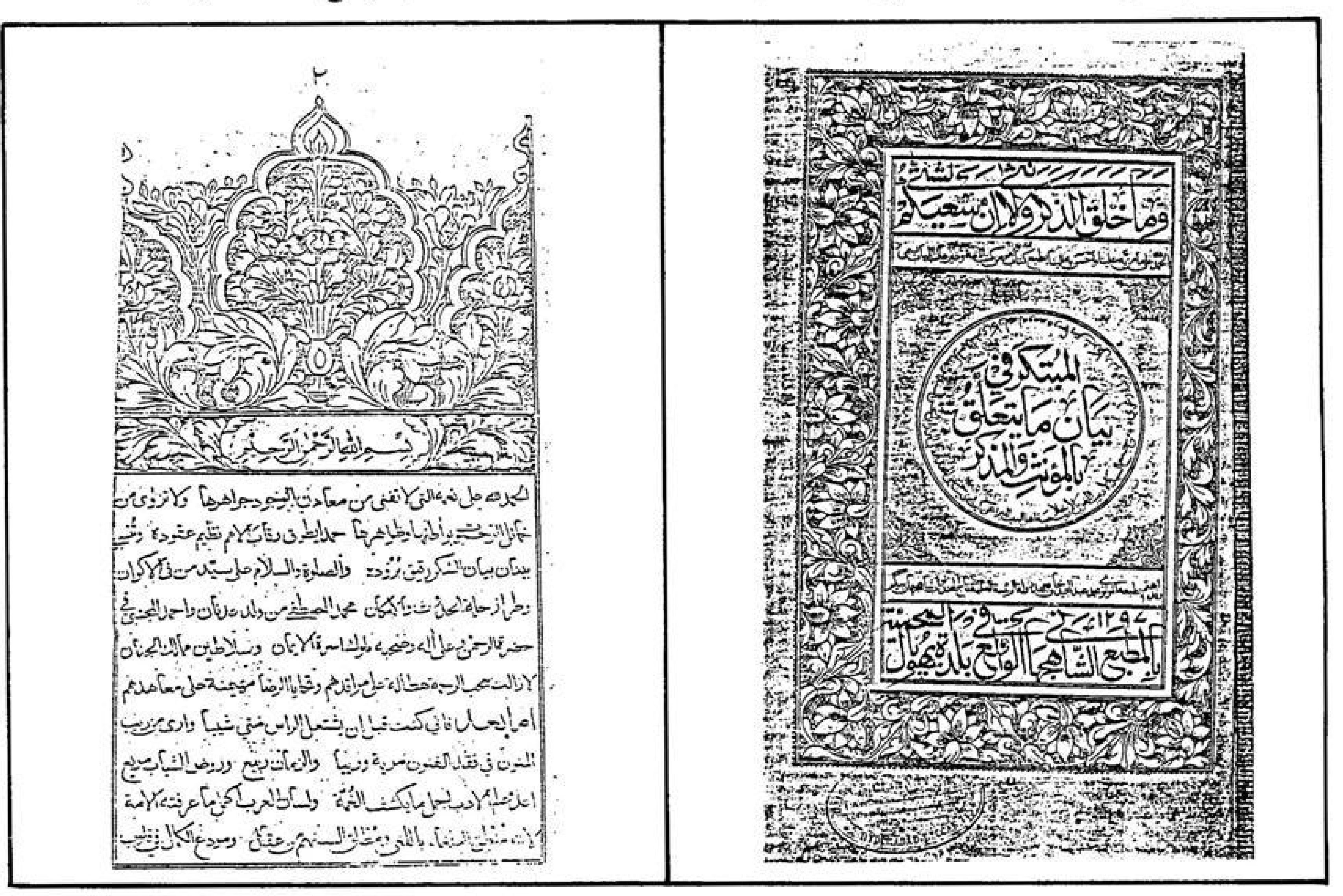
مُناقشَات وتعقيبَات

وجدت الكتاب .. ؟!

محمد بن عبد الله الحمدان

كنت رأيت كتاباً طريفاً جيداً عند بعض الإخوان يبحث في المؤنثات السماعية ، ساقط أوله وآخره ، فحاولت معرفة اسمه ومؤلفه والصفحات الناقصة منه فلم أتمكن من ذلك . فكتبت عنه في هذه المجلة في عددها الثاني من المجلد الرابع الصادر في شهر شوال ١٤٠٣هـ كلمة صغيرة تعريفاً به . ورجوت ممن يعرف عنه شيئاً التفضل بإخباري . ثمّ مضت مدة طويلة لم أتلق أي خبرٍ عن الكتاب . حتى قيض الله الأستاذ عبد الشكور فدا صاحب مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة بمبادرة من الأستاذ إبراهيم الطاسان فحصل على اسم الكتاب ومؤلفه والصفحات الناقصة منه من الهند حيث طبع .

وتبيَّن أنه كتاب «المبتكر في بيان ما يتعلق بالمؤنث والمذكر» جمع السيد ذو الفقار أحمد المنقري . واهتم بطبعه محمد عبد المجيد خان بالمطبع الشاهجهاني في بلدة (بهوبال) «موطن محمد صديق حسن خان» سنة ١٢٩٧هـ كما توضح صفحة العنون المرفقة .



وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى

المبتكر في بيان ما يتعلق بالمؤنث والمذكر

١٢٩٧

بالمطبع الشاهجهاني الواقع ببلدة بهوبال

٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أوله «الحمد لله على نعمه التي لا تفنى من معادن الوجود جواهرها» وألفه بناء على طلب السيد محمد صديق حسن خان ملك بهوبال .

وفي الصفحة الثانين بعد الخمسمائة ذكر المصنف مآخذ الكتاب «مصادره» وعددها ٧٩ ، منها مؤلفات محمد صديق حسن خان «غصن البان المورق بمحسنات البيان» و «نشوة السكران من صهباء تذكار الغزلان» و «لف القماط» ومنها «أبجد العلوم ورسالةالكوع والكرسوع وحلبة الكميت ورجوع الشيخ والإيضاح ، وكتب السيوطي كالمزهر والكنز المدفون ، وغيرها» .

وآخر الكتاب صفحة ٥٩٢ وختمه بقوله «وعلى آله وأصحابه أولي الأيادي والسبق . وفتحة الغرب والشرق . ما شرّق شرْق ورعَد رعْد وَبَرق برْق» .

حول تحقيق السامرائي وأبي علي لكتاب الفخر الرازي : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز

محمد مصطفى هدارة

أستاذ في قسم اللغة العربية

كلية الآداب ــ جامعة الإسكندرية

منذ أعوام طويلة عكفت على تحقيق كتاب «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» للإمام فخر الدين الرازي ، إذ صارت النسخة الوحيدة التي طُبِعَتْ منه في عام ١٣١٧هـ في عداد المخطوطات ، برغم كل ما فيها من نقص وتشويه وتحريف . وقد درست الكتاب وترجمت لصاحبه ترجمة مطولة ، ونشرت هذه الدراسة في مجلة كلية الآداب بجامعة الرياض (الملك سعود) بينا كنت مشغولاً بتحقيق نص الكتاب قبل سنوات .

وقد ذاع خبر عكوفي على تحقيق الكتاب في البيئات العلمية المختلفة المعنية بالتحقيق ، ونُشِرَ ذلك أكثر من مرة في المجلات والنشرات المتخصصة ، وإلى ذلك أشار الأستاذ عبد الجليل هنوش في صدر مقالته التي نقد فيها تحقيق السامرائي وأبي علي لهذا الكتاب . ولا شك في أنني قد فوجئت بصدور تحقيقهما لهذا الكتاب بوصفه خبراً ، ولكنني فجعت به تحقيقاً يبعد صدوره عن عالم متخصص . ولعلي أتحمل بعض الوزر في تأخري عن إصدار تحقيقي للكتاب الذي تم منذ سنوات ، ولكن أمر التحقيق لا ينبغي أن يكون تنافساً في التعجل لقطع الطريق على المحققين الذين نعلم أمر تحقيقهم لعمل ما .

وأنا لن أشغل نفسي بالتنبيه على أوجه التشويه والتحريف في تحقيق السيدين الفاضلين ، ولكني سأذكر السبب الذي أخرني عن إخراج تحقيقي للكتاب حتى الآن بعد أن دفعت به إلى المطبعة ، وبدأ الطبع بعد أن حققت الأصول على تسع مخطوطات ، ثم ظهرت لي أربع مخطوطات أخرى جعلتني أسترد الكتاب لأقابله على المخطوطات الجديدة أداء لحق الأمانة العلمية ، ثم شغلتني الشواغل عن إنجاز هذا العمل اليسير ، فكان جملة عدد المخطوطات التي حققت عليها أصول كتاب «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» ثلاث عشرة مخطوطة أتيت بها من مصر وسورية وتركيا وبريطانيا . فكيف يدَّعي الدكتور السامرائي وزميله أنهما بحثا في خزائن المخطوطات في البلدان الغربية كافة وخزائن المشرق في تركيا وإيران وتونس والمغرب ومصر وبلاد الشام والعراق فلم يوفقا إلى شيء ، ودفع بهما هذا الادعاء إلى الاعتماد على النسخة المطبوعة المشوهة ، ألا قاتل الله العجلة والأثرة التي تدفع إلى قطع الطريق على العلماء الجادين ، وليتق الله العلماء الذين يحق لنا أن ننسبهم للعلم وأهله .